التذاكر الجياد لأهل الجهاد

بقلم الأخ المجاهد

عبد الله خالد العدم

«حفظه الله»

راجعها وعلَّق عليها الشيخ المجاهد

عطية الله

«رحمه الله»

التَذَاكِرُ الجِيَاد لأَهلِ الجِهَاد

بقلم الأخ المجاهد

عبد الله خالد العدم (أبو عبيدة)

[حفظه الله]

راجعها وعلّق عليها الشيخ المجاهد

عطية الله الليبي

[رحمه الله]

مركز الفجر للإعلام

الفهرس العام

التذكرة السادسة عشر في: المدارة مع الناس.

التذكرة السابعة عشر في: أدب الخلاف بين المجاهدين.

التذكرة الثامنة عشر في: المثبطين عن الجهاد في ساح الجهاد والصادين عن سبيله.

التذكرة التاسعة عشر في: التثبت والتبين وعدم نشر الشائعات ورد الأمر الى أهله.

التذكرة العشرون في: حتمية الابتلاء والامتحان لأهل الحق وأن لا جنة بغير ذلك.

التذكرة الحادية والعشرون في قول الإمام علي رضي الله عنه: حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله..؟!

التذكرة الثانية والعشرون في قوله صلى الله عليه وسلم: الدين النصيحة، قلنا لمن يا رسول الله قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

التذكرة الثالثة والعشرون في: قتل القيادات وكيفية التعامل مع الحدث.

التذكرة الرابعة والعشرون في: فضل الخدمة في سبيل الله.

التذكرة الخامسة والعشرون في: وجوب أخذ الحذر من العدو واستكمال أسباب ذلك.

التذكرة السادسة والعشرون في قوله تعالى: {وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا}.

التذكرة السابعة والعشرون في قوله تعالى: { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ}.

التذكرة الثامنة والعشرون في : حفظ اللسان وفضل الصمت.

التذكرة التاسعة والعشرون في قوله صلى الله عليه وسلم: لا ضرر ولا ضرار.

التذكرة الثلاثون في قوله تعالى: { وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }.

التذكرة الحادية والثلاثون في: المحافظة على المال العام للمجاهدين.

التذكرة الثانية والثلاثون في قوله صلى الله عليه وسلم: كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.

التذكرة الثالثة والثلاثون في: آداب حمل السلاح.

التذكرة الرابعة والثلاثون في قوله تعالى: { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ..}.

التذكرة الخامسة والثلاثون في: الهجرة من أجل الجهاد.

التذكرة السادسة والثلاثون في: حقيقة الانتصار.

التذكرة السابعة والثلاثون في: أهمية مشاركة الشعوب المسلمة في الجهاد.

التذكرة الثامنة والثلاثون في: الغاية الأسمى من الجهاد.

التذكرة التاسعة والثلاثون في: معايشة الواقع.

التذكرة الأربعون في: ائتلاف الأمة أعظم من المستحبات.

التذكرة الحادية والأربعون في قوله تعالى: {ولا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلا إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}.

التذكرة الثانية والأربعون في: اسألوا أهل الثغور.

التذكرة الثالثة والأربعون في: الإنفاق في سبيل الله.

المقدمة

الحمد لله على عظيم مننه، وجزيل عطائه، وسابغ نعمه، وواسع فضله، وكثير كرمه، حمداً يليق بجلاله، ويوافي عطاءه، ويكافئ مزيده، فله الحمد في السر والعلانية، وله الشكر في الأولى والآخرة، والصلاة والسلام على محمد أفضل خلقه، وسيد أنبيائه، نبي الرحمة، ورسول الملحمة، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، حملة لواء الدين، ومن اقتفى آثارهم، واتبع سنتهم، واهتدى بهديهم وإلى يوم الدين.

أما بعد: فإنه كان ينقدح في نفسي منذ زمن أن أكتب كتاباً أجمع فيه جملة مما يحتاجه المجاهد في سبيل الله أثناء سيره في هذا الطريق القويم، الذي اختاره لنفسه وارتضاه، في زمن قد اشتدت فيه المحنة، وعلت فيه الكربة، وتكاثر فيه الأعداء، وادلهمت فيه الخطوب والمحن، وشاعت فيه الفتن، وعاد الدين غريباً كما بدأ أول مرة، وذلك ليستعين به كل نافر على أداء هذه الفريضة الربانية، ولِيَسْلَم في كثير من الأحيان من الانزلاق في مهاوي ما يَعْرُضُ له أثناء سيره المبارك في هذا الطريق، ولكن صرفني عن ذلك كثرة المشاغل، وانعدام الاستقرار، وكثرة التنقل والترحال، وتكالب الأعداء، فنحن ولله الحمد والمنة بين كر وفر، نصبح في ناحية، ونمسي في أخرى وهكذا.. إلى أن شاء الله واستقر لي الأمر بعد أن ألجأتني الظروف والأحوال إلى الخلو مع نفسي، فاستجمعت قواي، واستنهضت الهمة، وسننت يراعي، وشرعت بعد التوكل على الله بخط هذه التذاكر، نصرةً لعصب الجهاد، وعوناً لأبناء التوحيد، وتبكيتاً لأهل الكفر والشقاق والنفاق، ودحراً لأهل الزيغ والضلال والفساد.

وهذه التذاكر التي أضعها بين يديك أخي المجاهد على تواضعها وقلة زاد صاحبها فيها معاني كثيرة، وفوائد جليلة، ونصائح عزيزة، وحكم منهجية قد رأيت من واجبي تجاه إخوان العقيدة والجهاد، أن أنثر ما استطعت من شذاها بين أيديهم حباً لهم وكرامة، وزاداً معيناً لهم على هذا الطريق، ونبراساً يهتدى به في دياجير هذه الغربة، وليكون كل نافر للجهاد على بينة من أمره، واعياً بحقائق ما هو مُقدم عليه، بصيراً بمعالم هذه العبادة التي شرفه الله بها، فيزداد بها بصيرةً على بصيرته، ونوراً على نوره، والله وحده الهادي إلى سواء السبيل.

واعلم أخي الحبيب أن هذه التذاكر الجياد هي ثمرة تجارب، ونتاج معركة استخلصتها من خلال معايشة الأحداث الجسام، وعصارة مسيرة طويلة قضيتها في ميادين الهجرة، وساحات الجهاد، والله نسأل الإخلاص والقبول والسداد، فالزم يا أخي سبيلها، واشدد يدك في غرزها، واستمسك بهديها.

قَرَاطِيسٌ حَوَتْ حِكَماً صِحَاحَاً   يَهِيْمُ بِحُسْنِهَا أُسْدُ العَرِيْنِ

سَقَاهَا الشَّيْبُ أكْسَاهَا بَهَاءً   وأمْلاهَا اليَرَاعُ مَعَ السِّنِيْنِ

فَأشْرَقَ مِنْ سَنَاهَا الهَدْيُ نُوْرَاً   يُنَاصِحُ كُلَّ ذِي هَمٍّ لِدِيْنِ

حَبَوْتُكَ عَذْبَ أنْفَاسٍ فِصَاحٍ   فَـلازِمْ غَرْزَهَا فِي كُلِّ حِيْنِ

واعلم بعد هذا وذاك وكما قال ابن القيم رحمه الله: فيا أيها القارئ له والناظر فيه، هذه بضاعة صاحبها المزجاة مسوقة إليك، وهذا فهمه وعقله معروض عليك، لك غنمه وعلى مؤلفه غرمه، ولك ثمرته وعليه عائدته، فإن عدم منك حمداً وشكراً فلا يعدم منك عذراً، وإن أبيت إلا الملام فبابه مفتوح، وقد استأثر الله بالثناء والحمد، وولى الملامة الرجلا.اهـ

واعلم حفظك الله أنني لم أقصد في هذه التذاكر والنصائح الى ترتيب معين فى تقديم تذكرة على أخرى، وإنما ما فتح الله به عليَّ في حينه، وما جاد به الفكر وانقدح في الذهن، والله وحده المسؤول أن يبلغنا ما أردنا من هذه التذاكر.

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل للشيخ الفاضل أبي عبد الرحمن عطية الله جمال ابراهيم اشتيوي المصراتي على مراجعته لأكثر ورقات هذه التذاكر وقد أثبتُّ فيها أكثر تعليقاته ليعم خيرها فجزاه الله عنا وعن المسلمين كل خير وجعل ذلك في ميزان حسناته.

هذا وإنني أتضرع إلى الله العلي القدير، أن يتقبل منا هذا العمل، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعل فيه الخير والسداد لأبناء الجهاد، المتشوقين لإقامة حكم الله في الأرض، واعلم

حفظك الله أن هذا جهدٌ بشري، فما كان منه صواباً فمن الله وحده لا شريك له، وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله منه بريئان، واستغفر الله من ذلك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كُتب من بعض الثغور في 14/ 3 / 1429 الموافق ليوم الجمعة 21 / 3 / 2008

أبو عبيدة

عبد الله بن خالد العدم

كان الله له

التذكرة الأولى في: الإخلاص والمتابعة

اعلم علمني الله وإياك أن الله عز وجل لا يقبل عمل عاملٍ ما لم يتوفر في عمله شرطان لازمان، لا غنى عنهما لمن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهما: إخلاص النية لله والمتابعة لنبيه صلى الله عليه وسلم، وهذان الشرطان هما ركنا العمل، وبغير ذلك فالنتيجة { وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا }، وهذا بيان ذلك وتفصيله:

أولاً: إخلاص النية لله:

اعلم أيها اللبيب الفطن أن الإخلاص هو منبع الخير وأصله، وهو رأس التقوى والإحسان، وهو سبب النجاة، وسبيل الخلاص، وعلامة الفلاح، وعنوان النجاح.. وقد تنوعت تعريفات السلف لهذه الكلمة العظيمة التي تعتبر رأس الإيمان وكلمة التوحيد، فقال أبو محمد سهل بن عبد الله التستري رحمه الله: نظر الأكياس في تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا: أن تكون حركاته وسكناته في سره وعلانيته لله تعالى وحده لا يمازجه شيء لا نفس ولا هوى ولا دنيا. وقال حذيفة المرعشي رحمه الله: الإخلاص أن تستوي أفعال العبد في الظاهر والباطن. وقال هوازن القشيري رحمه الله في رسالته المشهورة: الإخلاص إفراد الحق في الطاعة بالقصد وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شيء آخر، من تصنع لمخلوق، أو اكتساب محمدة عند الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو شيء سوى التقرب إلى الله تعالى.

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

وحاصل ما ذكره أهل العلم في الإخلاص أن تقصد الله عز وجل بالطاعة وتفرده جل وعلا بذلك، فلا يكون لغيره نصيب أو حظ فيما تعمل، لا حظ فيه لملك مقرب، ولا نبي مرسل ولا ولي موفق، ولا أمير معظم، ولا مسؤول مبجل، ولا رغبة في عطاء، ولا مهابة منع وحرمان، ولا حرصاً على تبييض صورة حزب، ولا قصد تكثير سواد جماعة، إلى غير ذلك فتنبه لذلك يرحمك الله.

فصل: تكاثرت الآيات والأحاديث والآثار الآمرة بإخلاص العمل لله، وأنه لا وزن للعمل في ميزان الله بغير ذلك كما قال الشيخ عبد الله أبا بطين رحمه الله: وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأُمة على اشتراط الإخلاص للأعمال والأقوال .

فمن القرآن قوله جل وعلا: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين}. ومنه أيضاً: { قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} ومنه:{ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ الله مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ }. وقال أيضا: { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا }، قال الفضيل بن عياض: هو أخلص العمل وأصوبه، فسئل عن معنى ذلك فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، فالخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة ثم قرأ قوله تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}.

ومن السنة فقد روى الشيخان وغيرهم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنما الإعمال بالنيات وإنما لامرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدينا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه.

قال صاحب فيض القدير شرح الجامع الصغير: هذا الحديث أصل في الإخلاص ومن جوامع الكلم التي لا يخرج عنها عمل أصلا ولهذا تواتر النقل عن الأعلام بعموم نفعه وعظم وقعه، وقال أبو عبيد: ليس في الأحاديث أجمع ولا أغنى ولا أنفع ولا أكثر فائدة منه واتفق الشافعي وأحمد وابن المديني وابن مهدي وأبو داود والدارقطني وغيرهم على أنه ثلث العلم ومنهم من قال ربعه.

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة مرفوعاً: يقول الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً فأشرك فيه غيري فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك. ومعناه كما ذكر النووي في شرحه لصحيح مسلم: أن الله غني عن المشاركة، فمن عمل عملاً له ولغيره لم يقبله منه، بل يتركه لذلك الغير، والمراد أن عمل المرائي باطل لا أجر له فيه بل هو عليه وبال يوم القيامة.

وقال صلى الله عليه وسلم: إذا جمع الله الأوَّلين والآخرين ليوم لا ريب فيه، نادى مُناد: من كان أشرك في عمل عمِلَهُ لله – عز وجل – فليطلُب ثوابَه من عند غير الله – عز وجل– فإن الله أغنى الشركاء عن الشِّرك.

وقال أبو بكر الصديق في مستهل خطبة له: إن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه، فأريدوا الله بأعمالكم واعلموا أن ما أخلصتم الله من أعمالكم فطاعة أتيتموها، وحظ ظفرتم به، وضرائب أديتموها، وسلف قدمتموه من أيام فانية لأخرى باقية، لحين فقركم وحاجتكم.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله متحدثاً عن الإخلاص وعظمته ومكانته: بل إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، وهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل، وأنزل به جميع الكتب، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه.

ويعضد هذا ما ذكره أبو العالية في قوله تعالى: { شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّين مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا } قال رحمه الله: وصاهم بالإخلاص.

فصل: والإخلاص عزيز الشأن، كريم على الله، ثمين البيع، لا يعطيه إلا لأهل خاصته كما ذكر بعضهم: في إخلاص ساعة نجاة الأبد ولكن الإخلاص عزيز. وقيل لسهل – سهل بن عبد الله التستري: أي شيء أشد على النفس.؟ فقال: الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب.

وقال يوسف بن الحسين الرازي: أعزّ شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرِّياء عن قلبي، وكأنه ينبُتُ فيه على لون آخر.

فصل: وأحوج الناس إلى الإخلاص هم المجاهدون في سبيل الله، حيث أرواحهم على أكفهم يعرضونها صبح مساء على بارئها راجين قبولها، فحريٌّ بكل مجاهد أن يتفقد نفسه، وينظر أين هو من الإخلاص، فالوعيد الشديد الذي ثبت في صحيح مسلم لمن راءى في جهاده يأبى على كل منافح دون هذا الدين إلا أن يحذر كل الحذر أن تنزلق قدمه في هاوية الرياء فيخسر بذلك دنياه وآخرته والعياذ بالله.

فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أنه سمع النبي صلى الله وسلم يقول: إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال: قاتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار.. الحديث.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ماله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لاشيء له، فأعادها ثلاث مرات، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: لاشيء له، ثم قال: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجهه.

وفي معناه في الأحاديث والآثار كثير، فتفطن لذلك فإنك إن غفلت عن أمر نيتك أو سهوت فإن الشيطان لا يغفل عنك، واحذر أن تكون من ذاك الصنف الذي ذكره ابن الجوزي في كتابه النفيس "تلبيس ابليس " قال رحمه الله: إن إبليس لبَّسَ على خلق كثير فخرجوا إلى الجهاد ونيتهم المباهاة والرياء، ليقال فلان غاز وربما كان المقصود أن يقال شجاع، أو كان طلب الغنيمة وإنما الأعمال بالنيات.

واحرص بعد هذا البيان أن يكون جهادك متجرداً من أهواء النفس، بعيداً عن حبِّ الذكر أو الإشارة بالبنان، خالصاً من الشوائب التي تعكر صفوه كالرغبة بالسمعة والثناء والمدح، أو التطلع لنصرة حزب على آخر، أو جماعة على أُخرى لمجرد كونها جماعتك أو نحو ذلك، بعيداً عن حب العلو الذي قلما تخلو منه نفسٌ بشرية، ليكن شعارك على أي حال وفي كل مآل: { قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ }.

فصل: واعلم أن للإخلاص حلاوة وطلاوة، وتوفيقاً وسداداً، وطمأنينة في النفس لا يتذوقها إلا قلب موحد، استسلم له لله وأخلص العمل لوجهه قال شيخ الإسلام: وإذا كان العبد مخلصًا لله اجتباه ربه، فأحيا قلبه، واجتذبه إليه فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء ويخاف ضد ذلك.

وخلاف ذلك أي الإخلاص فالأمر كما قال شيخ الإسلام: القلب الذي لم يخلص لله فإنه في طلب وإرادة وحب مطلق، فيهوى ما يسنح له، ويتشبث بما يهواه كالغصن أي نسيم مر

بعطفه أماله، فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة فيبقى أسيراً عبداً لمن لو اتخذه هو عبداً له لكان ذلك عيباً ونقصاً وذماً، وتارةً يجتذبه الشرف والرئاسة، فترضيه الكلمة، وتغضبه الكلمة، ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي من يذمه ولو بالحق، وتارةً يستعبده الدرهم والدينار، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب، والقلوب تهواها فيتخذ إلهه هواه ويتبع هواه بغير هدىً من الله.

فائدة جليلة: قال ابن القيم رحمه الله: وقد جرت عادة الله التي لا تتبدل وسنته التي لا تتحول، أن يلبس المخلص من المهابة والنور والمحبة في قلوب الخلق، وإقبال قلوبهم إليه ما هو بحسب إخلاصه ونيته ومعاملته لربه، ويلبس المرائي ثوبي الزور من المقت والمهانة والبغض وما هو اللائق به فالمخلص له المهابة والمحبة وللآخر المقت والبغضاء.

فصل: وضد الإخلاص الرياء والتسميع وهو الشرك الأصغر، وهو آفة العبادة، وهو الداء الدفين، أعاذنا الله وإياكم منه.

وقد عرفه الإمام الغزالي بقوله: الرياء مشتق من الرؤية، والسمعة مشتقة من السماع، وإنما الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير، إلا أن الجاه والمنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات وتطلب بالعبادات، واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادة وإظهارها فحد الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله، فالمرائي هو العابد والمراءى له هم الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة في قلوبهم، والمراءى به هو الخصال التي قصد المرائي إظهارها، والرياء هو قصده إظهار ذلك.

والرياء ولا شك محبطٌ للعمل وهو الذي سيقت الآيات والأحاديث لبيان تحريمه، وهو مبطلٌ للأعمال التي يصاحبها، وهو خفيٌ لا يعرفه كل جاهل غبي، كما بيَّن ذلك القرطبي رحمه الله في تفسيره.

وقد ورد في التحذير منه ومن مغبة الوقوع بين براثنه من الآيات والأحاديث والآثار ما تشيبُ لهوله نواصي الرضع من الأطفال، وتجعل كل نفس تأخذ حذرها مهابة أن ينالها شره المتطاير عن اليمين وعن الشمال.

فمن ذلك قوله تعال: { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا }.

قال الماوردي وقال جميع أهل التأويل: معنى قوله تعالى: " ولا يشرك بعبادة ربه أحدا " أنه لا يرائي بعمله أحدا.

وقال عز من قائل: { وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ }: قال مجاهد، وسعيد بن جُبير، وشَهر بن حَوشَب: هم المراؤون بأعمالهم، يعني: يمكرون بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله، وهم بُغَضَاء إلى الله عز وجل، يراؤون بأعمالهم، { وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلا قَلِيلا }.

أما الأحاديث المحذرة من الرياء فكثيرة منها ما رواه البخاري في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: من سمَّع سمَّع الله به، ومن يُرائي يُرائي الله به.

قال الخطابي: معناه من عمل عملاً على غير إخلاص وإنما يريد أن يراه الناس ويسمعوه جوزي على ذلك بأن يشهره الله ويفضحه ويظهر ما كان يبطنه، وقيل من قصد بعمله الجاه والمنزلة عند الناس ولم يرد وجه الله فإن الله يجعله حديثاً عند الناس الذين أراد نيل المنزلة عندهم ولا ثواب له في الآخرة، ومعنى يرائي في قوله "يرائي الله به" يطلعهم على أنه فعل ذلك لهم لا لوجهه، ومنه قوله تعالى: { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا – إلى قَوْله – مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }، وقيل: المراد من قصد بعمله أن يسمعه الناس ويروه ليعظموه وتعلو منزلته عندهم حصل له ما قصد، وكان ذلك جزاءه على عمله، ولا يثاب عليه في الآخرة.

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر". قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال: "الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء .

وقال صلى الله عليه وسلم: من سَمَّع الناس بعمله سَمَّعَ الله به سَامِعَ خَلقِه وَحَقَّرَهُ وَصَغَّرَهُ.

أما الآثار عن السلف في مقت الرياء وإعلان الحرب عليه فكثيرةٌ جداً وقد ذكر الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين طرفاً منها نسوق إليك بعضه للعبرة العظة، حيث أنه وبلا شك في أن انضمام الأدلة بعضها إلى بعض يزيدها قوة إلى قوتها.

فمنها: قال رجل لعبادة بن الصامت: أقاتل بسيفي في سبيل الله أريد به وجه الله تعالى ومحمدة الناس، قال: لا شيء لك، فسأله ثلاث مرات كل ذلك يقول: لا شيء لك، ثم قال في الثالثة: إن الله يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك... الحديث.

وسأل رجل سعيد بن المسيب فقال: إن أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمد ويؤجر، فقال له: أتحب أن تمقت ؟ قال: لا، قال: فإذا عملت لله عملاً فأخلصه.

وقال الضحاك: لا يقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك ولا يقولن هذا لله وللرحم، فإن الله تعالى لا شريك له.

وللمرائي علامات يُعرف بها ويتميز، منها ما ذكره الإمام علي رضي الله عنه قال: للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أُثني عليه ويَنقُصُ إذا ذُمَّ. ، نسأل الله العافية والسلامة.

فائدة: أما إذا اعترى المرء شيءٌ من الرياء أو وجد في نفسه بعضاً من ذلك – وما إخال أحداً ينجو من ذلك إلا من رحم الله كما نوه إلى ذلك الغزالي رحمه الله – فقد أرشدنا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى طريق الخلاص من تلك الآفة التي تحرق الحسنات حرقاً، والتي هي في الأمة أخفى من دبيب النملة، فالجواب هو، قال أبو بكر كيف ننجو منها وهي أخفى من دبيب النملة، فقال عليه الصلاة والسلام قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم، وفي رواية تقولها ثلاث مرات.

فصل: وهنا مسألتان:

الأولى: إرادة الغنيمة مع إرادة وجه الله وقصده بالجهاد.

الثانية: إرادة الذكر والثناء والمديح والدنيا مع إرادة وجه الله.

أما الأُولى أي إرادة الغنيمة مع إرادة وجه الله فقد تنازع فيها العلماء، فمنهم من ذهب إلى أن نيته فاسدة لا تصح، بل هو معاقب عليه على ذلك، ومنهم على خلاف ذلك أي ذكروا أن نيته صحيحة ولا شيء يشينها وهذا هو الصحيح كما قرر ذلك الإمام ابن النحاس في كتابه مشارع الأشواق: فقد قال رحمه الله: وهذه النية مما اختلف فيها العلماء وأشباهها، فذهب بعضهم إلى أن هذه النية فاسدة، وأن صاحبها يعاقب عليها لإدخاله قصد الدنيا في عمل الآخرة. وذهب جمهور العلماء إلى أن هذه النية صحيحة، وأن صاحبها مأجور مثاب عند الله، وهذا هو الصحيح لأنه يتفق مع فعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذه جملة أقوال ممن ذهب من أهل العلم إلى صحة نيته:

قال ابن رجب الحنبلي: فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية غير الرياء، مثل أخذ أجره للخدمة، أو أخذ شيء من الغنيمة، أو التجارة، نقص بذلك أجر جهادهم، ولم يبطل بالكلية... وروي عن عبد الله بن عمرٍو أنه قال: إذا أجمع أحدُكم على الغزو، فعوضه الله رزقاً، فلا بأس بذلك، وأما إن أحدكُم إن أُعطي درهماً غزا، وإن مُنع درهماً مكث، فلا خير في ذلك.

وقال القرافي المالكي في الفروق: وأما مطلق التشريك كمن جاهد ليحصل طاعة الله بالجهاد، وليحصل المال من الغنيمة فهذا لا يضره، ولا يحرم عليه بالإجماع، لأن الله تعالى جعل له هذا في هذه العبادة. ففرق بين جهاده ليقول الناس إنه شجاع، أو ليعظمه الإمام فيكثر عطاؤه من بيت المال، فهذا ونحوه رياءٌ حرام، وبين أن يجاهد ليحصِّل السبايا والكراع والسلاح من جهة أموال العدو، فهذا لا يضره مع أنه قد شرك، ولا يقال لهذا رياء.

وقال القرطبي في تفسيره: دلَّ خروج النبي صلى الله عليه وسلم ليلقى العير على جواز النفير للغنيمة لأنها كسب حلال، وهو يرد ما كره مالك من ذلك، إذ قال: ذلك قتال على الدنيا، وما جاء أن من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله دون من يقاتل للغنيمة، يراد به إذا كان قصده وحده وليس للدين فيه حظ.

قال ابن النحاس في مشارع الأشواق: وهذا الدليل الذي استدل به القرطبي دليل جيد.اهـ

هذا وقد تنازع العلماء في نقص الأجر والثواب لمن يرجع بالغنيمة سالماً، فجزم النووي في شرحه لحديث ابن عمر " ما من غازية تغزو.." الحديث في مسلم والبخاري وغيرهم، أن ذلك ينقص من الأجر والثواب، قال رحمه الله: فالصواب الذي لا يجوز غيره أن الغزاة إذا سَلِموا أو غنموا يكون أجرهم أقل من أجر من لم يسلم، أو سلم ولم يغنم، وأن الغنيمة هي في مقابلة جزء من أجر غزوهم، فإذا حصلت لهم فقد تعجلوا ثلثي أجرهم المترتب على الغزو، وتكون هذه الغنيمة من جملة الأجر، وهذا موافق للأحاديث الصحيحة المشهورة عن الصحابة، كقوله: مِنَّا من مات ولم يأكل من أجره شيئا، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يَهْدِبُهَا، أي يَجْتَنِيها فهذا الذي ذكرنا هو الصواب وهو ظاهر الحديث ولم يأت حديث صريح صحيح يخالف هذا فتعين حمله على ما ذكرنا. ، بخلاف ابن حجر الذي أورد المسألة وبحثها في شرحه لصحيح البخاري ولم يحكم في المسألة، وكذلك الشوكاني فصَّلَ فيها في نيل الأوطار / باب إخلاص النية في الجهاد ولم يحكم فيها.

وذهب شيخنا الشهيد أبو المنذر سالم الطرابلسي المالكي رحمه الله الى أن الحديث مؤول ولا يُحمل على ظاهره، ويقال في مثل هذا إن الأجر الذي ينقص ليس أصل الأجر وإنما الأجر الزائد، وممن تأول هذا الحديث ابن المناصف ذكر ذلك في: الإيجاد في أحوال الجهاد، كذا سمعته منه تقبله الله والله أعلم.

المسألة الثانية: إرادة الذكر والثناء والمديح والدنيا مع إرادة وجه الله.

لا شك أن من طلب بجهاده واحدةً مما ذكرنا أن جهاده عائدٌ عليه بالوزر والتنكيل يوم القيامة، حيث أنه أشرك مع الله في نيته، وقصد غير وجهه سبحانه في ما سعى إليه، وهذا الصنف أول من تسعر به النار يوم القيامة كما ورد ذلك في الحديث الصحيح الذي رواه الأئمة الأعلام، نسأل الله العفو والعافية.

أما من شرَّك في نيته فكانت نيته من الجهاد الأجر والثواب، والذكر والثناء، فهذا الصنف من البشر لا له ولا عليه كما دلت على ذلك النصوص، ويكفيه من العقاب أن أحبط الله عمله وجهاده، وبذل نفسه رخيصة من غير مقابل، وهذا الذي ذكرت هو ما قرره ابن النحاس في مشارع الأشواق والله الموفق لخير العمل.

أما الذي يطرأ عليه الرياء بعد الخروج الصادق للجهاد، فقد بوب له ابن النحاس في المشارع وجعل له فصلاً مستقلاً هذا ملخص ما قرره رحمه الله:

الطاعات والأعمال الصالحة بغض النظر عن ماهيتها التي كانت قبل أن يطرأ على نيته طارئ الرياء له أجرها، والتي كانت منه بعد حدوث طارئ الرياء لا أجر له عليها، وإن لم يكن قد صدر منه أعمال صالحة قبل طارئ الرياء، وإنما طرأ الرياء عند خروجه للجهاد فهذا لا أجر له، لأن الرياء أحبط العمل، وإن خرج للجهاد ونيته صالحة خالصة ثم ذهبت عنه النية الخالصة عند الاصطفاف للقتال، ولم يحل محلها نية الرياء أو الفخر، فالنية الأولى تكفيه، وهو مأجور على جهاده، والنية العامة في الجهاد تكفيه ولا يشترط له تحقق النية في كل جزئية أو حركة أو لحظة من لحظات جهاده، ويكفي عدم حدوث ما يبطل نية الجهاد . قال شيخنا عطية الله الليبي أكرمه الله: هذه العبارة الأخيرة في غاية الأهمية، فينبغي التنويه بها وشرحها، ومرادُهُ بقوله "تحقق النية" استحضارُها في كل جزئية وحركة ولحظة، لأن القلب يغفل ويذهل عن استحضار النية في كل جزئية وحركة ولحظة، فكان مما يقتضيه لطفُ الله تعالى وجميلُ إحسانه العفو عن ذلك، وجعلُهُ مندرجاً تحتَ النية العامة الأولى المستصحبة، ومع ذلك فاستحتضار النية وتجديدها وتذكرها دائما هو الأفضل والأكمل المحثوث عليه.اهـ

فائدة: أما إن ناله شيءٌ من ذكر الناس له من تعظيم ومحمدة وثناء حسن، ففرح القلب بذلك وسرَّ، من غير أن يتعرض هو لذلك، فهذا من عاجل بشرى المؤمن كما ثبت ذلك في حديث أبي ذر الذي رواه مسلم في صحيحه، وشرحه النووي بقوله: قال العلماء: معناه هذه البشرى المعجلة له بالخير، وهي دليل على رضاء الله تعالى عنه، ومحبته له، فيحببه إلى الخلق كما سبق في الحديث، ثم يوضع له القبول في الأرض، هذا كله إذا حمده الناس من غير تعرض منه لحمدهم، وإلا فالتعرض مذموم.

بهذا القدر من الحديث عن الإخلاص وما يضاده نكتفي، وننتقل للحديث عن الركن الثاني الذي لا يقبل الله العمل من عبده إلا إذا تحقق فيه.

ثانياً: المتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم.

اعلم أن المقصود بالمتابعة هو التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتداء به، واقتفاء أثره، وهذا الذي ذكرناه هو من لوازم ومقتضيات شهادة أن محمداً رسول الله، وهو أحد نوعي التوحيد كما قال ابن أبي العز: فهما توحيدان، لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما، توحيد المرسِل، وتوحيد متابعة الرسول، فلا يحاكم إلى غيره، ولا يرضى بحكم غيره، ولا يوقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه وذوي مذهبه وطائفته.

وهو المقصود من قوله تعالى: { فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا }، قال ابن كثير: وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونحن ولا شك مأمورون بمتابعة الهدي النبوي الشريف كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث، فقد قال سبحانه وتعالى: { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا }، وقال سبحانه: { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا }، وأمثال ذلك في القرآن كثير.

أما في الآثار فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الشيخان أنه قال: من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد. قال النووي في شرحه: قال أهل العربية " الرد " هنا بمعنى المردود، ومعناه: فهو باطل غير معتد به، وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات.

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم: فهذا الحديث يدلُّ بمنطوقه على أن كل عملٍ ليس عليه أمر الشارع، فهو مردود، ويدل بمفهومه على أن كل عمل عليه أمره، فهو غير مردود، والمراد بأمره هاهنا: دينُه وشرعُه، كالمراد بقوله في الرواية الأخرى: " مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ، فالمعنى إذا: أن مَن كان عملُه خارجاً عن الشرع ليس متقيداً بالشرع، فهو مردود، وقوله: " ليس عليه أمرنا " إشارةٌ إلى أن أعمال العاملين كلهم ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة، وتكون أحكام الشريعة حاكمةً عليها بأمرها ونهيها، فمن كان عملُه جارياً تحت أحكام الشرع، موافقاً لها، فهو مقبولٌ، ومن كان خارجاً عن ذلك، فهو مردودٌ.

وعليه فالعمل المرجو قبوله عند الله الذي يكون خالصاً لله، صواباً موافقاً للمنهج القويم الذي جاء به سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، ولا عبرة البتة بالعمل المخالف لهذين الشرطين، ولا مكانة له عند الله وهو مردود على صاحبه، وصاحبه لا يَقبل اللهُ منه صرفاً يوم القيامة ولا عدلاً، فنحن أمة اقتداء وإتباع لا أمة ابتداع واختراع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وجماع الدين أن لا نعبد إلا الله ولا نعبده إلا بما شرع ولا نعبده بالبدع كما قال تعالى: { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا }، قال الفضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه، قيل: يا أبا علي، وما أخلصه وأصوبه ؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة.

فصل: ومما يجب أن يُعلم في هذا الباب أنه ليس هناك في دين الله شيءٌ يستحسنه العقل وتزينه النفس ويهواه القلب، ثم يُتعبد الله به دون أن يستمد هذا العمل المتعبد به مشروعيته من الشارع الحكيم.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: فأما العبادات، فما كان منها خارجاً عن حكم الله ورسوله بالكلية، فهو مردود على عامله، وعامله يدخل تحت قوله: { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ الله }، فمن تقرَّب إلى الله بعمل، لم يجعله الله ورسوله قربة إلى الله، فعمله باطلٌ مردودٌ عليه، وهو شبيهٌ بحال الذين كانت صلاتهم عند البيت مُكاءً وتصدية.

مسألة: اعلم أيها الراجي عفو ربك أنه ليس هناك في هذا الدين بدعة حسنة وبدعة سيئة، فكل بدعة كما جاء في الحديث الصحيح ضلالة وكل ضلالة في النار، أما ما وقع في كلام بعض السلف من استحسان بعض البدع، فإنما ذلك في البدع اللغوية لا الشرعية كما ذكر الحافظ ابن رجب، مثال ذلك جمع عمر الناس في قيام رمضان على إمام واحد في المسجد، ومن ثم قوله نعمت البدعة هذه، وروي عنه أنه قال: إن كانت هذه بدعة، فنعمت البدعة، وروي أن أبي بن كعب، قال له: إن هذا لم يكن، فقال عمر: قد علمت، ولكنه حسنٌ، فكلام عمر مأخوذ على أنها في اللغة تسمى بدعةً، ولكن الذي فعله رضي الله عنه له أصلٌ في الشرع، فما كان له أصل في الشرع يرجع

إليه ثم قيل إنه بدعة فهو بدعة لغةً لا شرعاً، لأن البدعة شرعاً: ما ليس له أصل في الشرع يرجع إليه، والله أعلم.

فحريٌّ بكل مجاهد والأمر كما ذكرنا أن يتفقه في دينه، ويطلب العلم من مظانه، ويقتفي أثر السلف الصالح ليدرك طريق النجاة، فما ضل من ضل، وما زاغ من زاغ، إلا لمجانبته طريق محمد صلى الله عليه وسلم، وما هذه الأحزاب، وما تلك الجماعات التي عدلت عن جادة الصواب، وسلكت طريق الضلال وسبيل الغواية، إلا نتيجة حتمية ونهاية معلومة لتنكبها الهدي النبوي الكريم.

وهذا الذي نراه اليوم ما هو إلا مصداقٌ لقوله عليه الصلاة والسلام وهو على مشارف الانتقال إلى الرفيق الأعلى، مرشداً أمته ومحذراً إياها من مغبة الانزلاق في هاوية الضلال بعد الهدى، قال صلى الله عليه وسلم: أوصيكم بتقوى الله، والسّمع والطاعة، وإن تأمَّر عليكم عبدٌ، وإنّه من يعش منكم بعدي، فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخُلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثةٍ بدعةٌ، وكل بدعة ضلالة.

التذكرة الثانية في: وجوب العلم قبل القول والعمل والتحرز في مسائل الدماء وإطلاق الأحكام.

إن من المعلوم في دين الله أن عبادة القتال في سبيله سبحانه وتعالى هي عبادة متعدية المنافع إلى الغير، ومع أن عنوانها القتل والقتال، وسمتها إراقة الدماء وتطاير الأشلاء، إلا أن الخير العظيم الذي تختزنه بين جنباتها للبشرية، يجعل النفس المؤمنة الموقنة بموعود الله تقتحم أهواله غير مبالية بألم جراحها.. فإقامة حكم الله في الأرض، وتعبيد الناس لربهم، والقضاء على الأنداد التي تعبد من دون الله في الأرض، وحفظ الأعراض والأنفس والأموال، وغير ذلك من المقاصد الجليلة والنعم الجسيمة التي شُرع من أجلها الجهاد، يجعل هذه العبادة الربانية أحب إلى النفس من الماء العذب الزلال في حرّ الهجير.

هذا وإن معرفة حكم الشارع في ما يُقدم عليه المرء من عمل أمرٌ ضروري، بل هو فريضة ربانية أجمع عليها علماء الأمة، وقد حكى هذا الإجماع الإمام شهاب الدين القرافي المالكي في الفروق، قال رحمه الله: حكى الغزالي الإجماع في إحياء علوم الدين والشافعي في رسالته، أن المكلف

لا يجوز أن يقدم على فعل حتى يعلم حكم الله فيه، فمن باع وجب عليه أن يتعلم ما عينه الله وشرعه في البيع.. ومن صلى وجب عليه أن يتعلم حكم الله في تلك الصلاة وكذلك الطهارة وجميع الأقوال والأفعال. ، ولعظيم هذا الأمر فقد بوب له البخاري في صحيحه باب: العلم قبل القول والعمل.

وإن كان التثبت والتبين ومعرفة الحكم الشرعي واجب على كل مسلم مكلف، فإنه في حق المجاهد أوجب وآكد لما في الجهاد من سفك للدماء، وتعرض للأموال، لذا وجب على كل من ضرب في الأرض يبتغي نصرة هذا الدين، أن يتفقه في دينه فلا يقدم على عمل قبل أن يعرف حكم الشارع فيه، فالجهاد فريضة ربانية لها أحكامها وتعاليمها، فلا بدَّ من التبين فيه ولا بد من التبصر والتثبت.

قال شيخنا أبو مصعب السوري فك الله أسره في كتابه الموسوعة "دعوة المقاومة الإسلامية": ثم إذا عزم على الجهاد توجب عليه أن يعرف أحكامه، فالأمر متعلق بالدماء والأموال والحقوق.. ما يحل وما يحرم، ولا يجوز له أن يتخبط فيه خبط عشواء من غير معرفة أحكامه وحله وحرامه، ومن باب أولى يجب عليه أن يعرف مقاصده وأهدافه وآدابه.اهـ

واعلم أن أمر الدماء والأموال عظيم عند الله، والأصل فيها أنها محرمة من بعضهم على بعض لا تحل إلا بإذن الله ورسوله، ولقد أنزل الله قرآناً يتلى إلى يوم القيامة في ذاك النفر الذي أقدم على قتل رجل واحد، بعد أن ألقى على القوم السلام. قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } .

قال الإمام القرطبي في تفسيره ما ملخصه: وهذه الآية نزلت في قوم من المسلمين مرَّوا في سفرهم برجل معه جمل وغنيمة يبيعها فسلم على القوم وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فحمل عليه أحدهم فقتله. فلما ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم شق عليه ونزلت الآية.

وأخرج البخاري عن ابن عباس: كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون فقال: السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غنيمته، فأنزل الله تعالى ذلك إلى قوله: "عرض الحياة الدنيا" تلك الغنيمة.

واختلف في تعيين القاتل والمقتول في هذه النازلة، والذي عليه الأكثرون، أن القاتل محلم بن جثامة، والمقتول عامر بن الأضبط، فدعا عليه السلام على محلم فما عاش بعد ذلك إلا سبعاً ثم دفن

فلم تقبله الأرض، ثم دفن فلم تقبله، ثم دفن ثالثة فلم تقبله، فلما رأوا أن الأرض لا تقبله ألقوه في بعض تلك الشعاب، وقال عليه السلام: إن الأرض لتقبل من هو شر منه.

قال الحسن: أما إنها تحبس من هو شر منه ولكنه وعظ القوم ألا يعودوا.

ولما كان أمر الدماء عظيماً لا يُقدم عليه إلا بعد التثبت كما أسلفنا، فقد برئ النبي الكريم من فعل خالد بن الوليد يوم أن أرسله إلى بني جذيمة ليدعوهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فقالوا: صبأنا صبأنا، فقتلهم وأخذ أموالهم بنوع شبهة وتأويل، هذا مع العلم أن خالداً هو سيف الله المسلول المسلط على رقاب المشركين.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح: قال الخطابي: أنكر عليه العجلة وترك التثبت في أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم صبأنا.

وفي موقف مماثل أنكر صلى الله عليه وسلم أشد الإنكار على حِبِّه وابن حِبِّه أسامة بن زيد يوم أن أراق دم ذاك المشرك، بعد نطقه بالشهادة متعوذاً كما قال أسامة رضي الله عنه، ولشدة إنكار الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم عليه تمنى أنه لو لم يسلم قبل تلك الحادثة.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح: قال ابن التين: في هذا اللوم تعليم وإبلاغ في الموعظة حتى لا يُقدم أحدٌ على قتل من تلفظ بالتوحيد، وقال القرطبي: في تكريره ذلك والإعراض عن قبول العذر، زجرٌ شديدٌ عن الإقدام على مثل ذلك.

فصل: ويلحق بما ذكرناه الخوض في طرح المسائل العلمية، والتجرؤ على إصدار الأحكام الشرعية دون تأهّل للخوض فيها ودون التثبت والتبيَّن، ومن غير إعمال النظر في المسألة، والإحاطة بجوانبها وجزئياتها وأقوال أهل العلم في بيانها، ومن ذلك التجرؤ على التكفير والتفسيق والتضليل والتبديع دون الإحاطة بعلوم الشريعة، وطرق أبواب تلك المسائل التي يتهيب من طرق بابها جهابذة أهل العلم، فكيف بمن قرأ كتاباً أو كتابين، أو سمع من هنا كلمة، واقتنص من هناك أخرى.!!؟

قال الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: وبالجملة فيجب على من نصح نفسه ألا يتكلم في هذه المسألة – أي مسائل التكفير- إلا بعلم وبرهان من الله، وليحذر من إخراج رجل من

الإسلام بمجرد فهمه واستحسان عقله، فإن إخراج رجل من الإسلام، أو إدخاله فيه من أعظم أمور الدين، وقد استزل الشيطان أكثر الناس في هذه المسألة، فقصر بطائفة فحكموا بإسلام من دلت نصوص الكتاب والسنة والإجماع على كفره، وتعدى بآخرين فكفَّروا من حكَّم الكتاب والسنة مع الإجماع بأنه مسلم.

وقال شيخنا أبو عمرو عبد الحكيم حسان فك الله أسره في التبيان في أهم مسائل الكفر والإيمان: وكما أنه يُحذر من عدم تكفير من يستحق التكفير كما سبق بيانه، فإنه يحذر أيضاً وبدرجة أكبر من تكفير المسلم الذي ثبت إسلامه بيقين، والإقدام على تكفير المسلم بغير مقتضى لذلك فيه كثير من التحاذير التي ينبغي على من أراد السلامة أن يحذرها ومن هذه المحاذير:

القول على الله بغير علم ، والأصل أن لا يتكلم الإنسان في شيء من أمور الشريعة إلا بعلم، فإن هذا وإن كان مأموراً به مطلقاً فهو في هذا الباب أوجب.

ومنها أيضاً: أنه قولٌ على الله بغير الحق وهذا محرمٌ على الأولين والآخرين قال تعالى: (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله غير الحق) . وقال تعالى مخاطباً أهل الكتابين من قبلنا (لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق).

ومع أن هذا الذي سبق ذكره جليل الشأن عظيم القدر تتعلق به مسائل مصيرية، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: اعلم أن مسائل التكفير والتفسيق هي من مسائل الأسماء والأحكام التي يتعلق بها الوعد والوعيد في الدار الآخرة، وتتعلق بها المولاة والمعاداة والقتل والعصمة، وغير ذلك في الدار الدنيا، فإن الله سبحانه وتعالى أوجب الجنة للمؤمنين وحرم الجنة على الكافرين، وهذا من الأحكام الكلية في كل وقت ومكان.

إلا أن الوعيد الذي جاء لردع كل من تسول له نفسه الخوض في مثل هذه المسائل المصيرية دون الإحاطة علماً بكل ما يتفوه به، يجعل النفس التي عرفت الله تقشعر خوفاً وفرقاً من اقتحام أمواج هذا البحر المتلاطم الذي لا يُكاد يبصر له ساحل.

فمن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما.

وعن أبي ذر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: لا يرمي رجل رجلاً بالفسوق ولا يرميه بالكفر، إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك.

وروى مسلم في صحيحه عن أبي ذر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ليس من رجل ادَّعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر، ومن ادعى ما ليس له فليس منا وليتبوأ مقعده من النار، ومن دعا رجلاً بالكفر أو قال: عدو الله، وليس كذلك إلا حار عليه.

ومع أن أهل العلم اختلفوا في تأويل هذا الرجوع — أي رجوع الكفر - كما ذكر النووي إلا أن الوعيد والتهديد والزجر، الذي تحتويه هذه الأحاديث بين جنباتها، يزلزل كيان كل من تسول له نفسه الخوض فيما لا يعلم ولا يُحسِنُ في هذا الباب.

وهذه جملة مختارة من أقوال أهل العلم في المراد من هذه الأحاديث: قال الحافظ ابن حجر في الفتح بعد أن ساق كلام النووي وعلق عليه: والحاصل أن المقول له إن كان كافراً كُفراً شرعياً فقد صدق القائل وذهب بها المقول له، وإن لم يكن رجعت للقائل معرة ذلك القول وإثمه.

وقال ابن دقيق العيد في معنى هذه الأحاديث: وهذا وعيد عظيم لمن كفَّرَ أحداً من المسلمين وليس كذلك، وهي ورطة عظيمة وقع فيها خلق كثير من المتكلمين، ومن المنسوبين إلى السنة وأهل الحديث لما اختلفوا في العقائد، فغلظوا على مخالفيهم، وحكموا بكفرهم، وخرق حجاب الهيبة في ذلك جماعة من الحشوية، وهذا الوعيد لاحق بهم إذا لم يكن خصومهم كذلك.

وقال الحافظ أبو جعفر الطحاوي شيخ الحنفية في معنى هذه الأحاديث: فتأملنا ما في هذا الحديث طلباً منا للمراد به ما هو.؟ فوجدنا من قال لصاحبه يا كافر معناه أنه كافر لأن الذي هو عليه الكفر، فإذا كان الذي عليه ليس بكفر وكان إيماناً كان جاعله كافراً جاعل الإيمان كفراً، وكان بذلك كافراً بالله تعالى، لأن من كفر بإيمان الله تعالى فقد كفر بالله ومنه قوله تعالى: { وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ }، فهذا أحسن ما وفقنا إليه من تأويل.

ولقد رأيت في الفتاوى الهندية: أن من قال للمسلم يا كافر ولم يكن كذلك فالمختار عندهم بخلاف الفقيه أبي بكر الأعمش البلخي أنه لا يكفر بذلك، وهو المختار عندهم للفتوى في

جنس هذه المسائل، هذا إن أراد الشتم ولا يعتقده كافراً لا يكفر، وإن كان يعتقده كافراً فخاطبه بهذا بناءً على اعتقاده أنه كافرٌ يكفر كذا في الذخيرة.اهـ

قال شيخنا عطية الله أكرمه الله: وقوله "وإن كان يعتقده كافراً " يعني لا عن اجتهادٍ معتَبَرٍ.اهـ

وبعد فحريٌ بكل مجاهد بعد هذه النصوص التي تقطر إنكاراً وغلظةً، وزجراً ولوماً، أن لا يتقدم بين يدي الله ورسوله قبل أن يتثبت، وأن لا يقفُو فيما ليس له به علم حتى يتبين، وأن يضع بين عينه هذه النصوص فتكون له رادعةً عن الخوض فيما لم يحط به علما، والله وحده الموفق لكل خير. { وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا }.

وأختم هذه التذكرة بما قاله الشيخ القدوة عمر عبد الرحمن فك الله أسره في خطبة له تحت عنوان " الشريعة الإسلامية: شريعة شاملة...كاملة": نحن نعرف أن كل شيء فيه تخصص، فلماذا لا يكون الإسلام كذلك، لماذا نعتبر الإسلام، كلأ مباحاً، يتكلم فيه أي إنسان ويهرف بما لا يعرف، ويتجرأ على الله وعلى كتاب الله.؟.اهـ

التذكرة الثالثة في قوله تعالى: { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا..}.

إن المتبصر في كتاب الله والمبحر بين ثناياه يدرك أن العلي القدير، يدرك أن العليَّ القدير عظّم أمرَ اجتماع كلمة المسلمين وأعلى شأنها وأجلّ قدرَها، وذلك لما يترتب على الاجتماع من فوائد جليلة ومصالح عظيمة لجملة المسلمين، وحذّر كلَّ التحذير من اختلاف كلمة أبناء هذا الدين، وذلك لما يترتب على الفرقة والاختلاف، من عواقب وخيمة ومفاسد جسيمة كبيرة، لا بد أن تنال كل موحد غيور على دينه وعقيدته.

ففي مواطن عديدة من الذكر الحكيم، أمر أرحم الراحمين أتباع محمد صلى الله عليه وسلم بالتزام جماعة المسلمين، ونهاهم عن التفرق في الدين، وذم الفرقة والاختلاف أيما ذم ولا ذم على ما يكون من الدين كما قال ابن حزم في الإحكام في أصول القرآن، فقد قال جل وعلا مخاطباً ورثة الحق المبين، وإلى يوم الدين: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا }. وقال تعالى:{ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }. وقال تعالى: { وَأَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ الله مَعَ الصَّابِرِينَ }.

وغير هذا كثير في كتاب الله مما يأمر بالاجتماع والألفة، وينهى عن الاختلاف والفرقة، وهو من أعظم ما أوجبه الله ورسوله على المسلمين، وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا الأصل العظيم وهو الاعتصام بحبل الله جميعا وأن لا يتفرق هو من أعظم أُصول الإسلام ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، ومما عظمت به وصية النبي صلى الله علية وسلم في مواطن عامة وخاصة مثل قوله: " عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة " وقوله: " فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد" وقال رحمه الله في موطن أخر: إذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا، فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب.

وقال ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: ولا تفرقوا. أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة.

وقال الطبري في تفسيره لهذه الآية: وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلاَ تَفَرّقُوا. يعني: وتعلقوا بأسباب الله جميعا، يريد بذلك تعالى ذكره: وتمسكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهده إليكم في كتابه من الألفة والاجتماع على كلمة الحقّ والتسليم لأمر الله، والحبل فإنه السبب الذي يوصل به إلى البغية والحاجة، ولذلك سمي الأمان حبلاً، لأنه سبب يوصل به إلى زوال الخوف

والنجاة من الجزع والذعر. وعن ابن مسعود أنه قال في قوله: واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعا. قال: الجماعة. وقال ابن عباس في قوله: وَلا تَكُونُوا كالّذِينَ تَفَرّقُوا وَاخْتَلَفُوا. ونحو هذا في القرآن، أمر الله جل ثناؤه المؤمنين بالجماعة، فنهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله.

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق الشعبي عن ثابت بن فطنة المزني قال: سمعت ابن مسعود يخطب وهو يقول: أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة فإنهما حبل الله الذي أمر به، وأخرج ابن أبي حاتم عن سماك بن الوليد الحنفي، أنه لقي ابن عباس فقال: ما تقول في سلاطين علينا يظلموننا، ويشتموننا، ويعتدون علينا في صدقاتنا، ألا نمنعهم.؟ قال: لا أعطهم الجماعة الجماعة، إنما هلكت الأمم الخالية بتفرقها، أما سمعت قول الله تعالى: واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا.

ولقد تواترت الأحاديث النبوية الآمرة بوجوب اجتماع كلمة المسلمين، والتحذير كل التحذير من الاختلاف والمنابذة والتفرق كما تفرقت الأُمم السابقة.

فعن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويسخط لكم ثلاثاً، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويسخط لكم ثلاثا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال.

فإحدى الثلاث المرضية عنده سبحانه وتعالى الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق، وهو كما قال النووي في شرحه لمسلم: أمرٌ بلزوم جماعة المسلمين وتألُّف بعضهم ببعض، وهذه إحدى قواعد الإسلام.

وقال صلى الله عليه وسلم: عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة.

فانظر كيف يتسلط الشيطان على الواحد وينفرد به، كما ينفرد الذئب بالشاة القاصية، وتأمل كيف أن الاجتماع هو مخالفة للشيطان وتبكيتٌ له، وحفظٌ وصونٌ من الزلة والضياع، وانظر

كيف جعل بحبوحة الجنة وسعتها والسكن في أوسطها لمن يلزم جماعة المسلمين، ويتفيء ظلال دوحتهم الوارفة، بعيداً عن الخصومات والنزاعات والفرقة والاختلاف.

وعن تميم الداري قال: تطاول الناس في البنيان زمن عمر بن الخطاب فقال: يا معشر العرب الأرض الأرض إنه لا إسلام إلا بجماعة ولا جماعة إلا بإمارة ولا إمارة إلا بطاعة ألا من سوده قومه على فقه كان حياةً له ولهم، ومن سَوَّدَهُ قومه على غير فقه كان ذلك هلاكا له ولهم.

وقال الإمام الأوزاعي: كان يقال، خمسٌ كان عليها أصحاب محمد والتابعون بإحسان: لزوم الجماعة، واتباع السنة، وعمارة المسجد، وتلاوة القرآن، والجهاد في سبيل الله.

فصل: واعلم أن الاجتماع والوحدة في حق المجاهدين أولى وآكد، حيث أن الجهاد عبادة جماعية لا يمكن لها بحال من الأحوال أن تؤتي أكلها الطيب بالتفرق، والتمزق، والتشتت، ولما يترتب على الفرقة من مفاسد عظيمة، من ذهاب ريح المؤمنين، وتسلط الكافرين، وتأخر النصر، وضياع طاقات المجاهدين، وتشتت جهدهم، قال تعالى: { وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }، فنتيجة التنازع والاختلاف هو الفشل وذهاب القوة والنصر والدولة كما قال ذلك غير واحد من المفسرين.

ومعلوم أن الجهاد هو ضربٌ وبابٌ عظيم من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال الجصاص في أحكام القرآن، وغيره من العلماء، وكما أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد له من موالاة وتعاضد ونصرة وقوة وإمارة كما قال تعالى: { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ}الآية وكذلك الجهاد لا بد له من موالاة وشوكة وقوة وتكاتف واجتماع حتى يتم كما يحب الله ويرضى، وإن لم يكن ذلك فلن يقوم للمسلمين قائمة، ولن يتفيؤا ظلال التوحيد فوق هذه البسيطة إلا أن يشاء الله.

واعلم أن خصومات المجاهدين ونزاعاتهم وفرقتهم واختلافهم، هو جوهرٌ ثمين لأعداء هذا الدين، ولطالما تربصوا به تربص الذئب بفريسته لتحقيق مآربهم وطموحاتهم، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.

وكم رأينا من قدم قد زلت في هاوية سحيقة، لمفارقتها جماعة المجاهدين، وانطوائها على نفسها، وانشغالها بأمنيات قد زينها الشيطان وحببها إليها، ولكن النتيجة كانت الفشل والضياع، والارتداد على الأعقاب، نسأل الله العفو والعافية، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية كما جاء في الحديث: ما من ثلاثة نفر في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.

قال الطيبي رحمه الله: هذا من الخطاب العام الذي لا يختص بسامع دون آخر تفخيما للأمر، شبه من فارق الجماعة التي يد الله عليهم ثم هلاكه في أودية الضلال المؤدية إلى النار بسبب تسويل الشيطان، بشاة منفردة عن القطيع بعيدة عن نظر الراعي ثم تسلط الذئب عليها وجعلها فريسة له.

فحريٌ بكل مجاهد بعد هذا الذي ذكرناه أن يكون فأل خير على إخوانه المجاهدين أين ما حلَّ، وأداة للمِّ الشمل ووحدة الصف أين ما أقام، ولبنة طيبة في بناء صرح الجهاد القائم، وليعلم أن ما يكره في الجماعة خيرٌ مما يجمع من الفرقة، كما قال بعض السلف: إن التي تكرهون في الجماعة خيرٌ مما تطلبون في الفرقة. { إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ }.

فصل: ومن الجدير ذكره في هذا المقام أن البيعات أو العهود التي يعقدها المسلمون فيما بينهم، ويلزمون أنفسهم بها وسواء كانت هذه العهود على الجهاد في سبيل الله، أو على تعلم علم نافع، أو العمل مع جماعة على الحق بعمل مخصوص، أقول: لا يجوز بحال من الأحوال نقض هذه العهود والبيعات بعد إبرامها إلا بموجب شرعي يقتضي نقض العهد أو البيعة، وبخلاف ذلك فإن ناكث العهد وناقضه قد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب، وأتى بعظيم من عظائم الأمور، وتعدى حدود الملك القهار، واستحق بذلك أن يبوء بسخط الجبار، قال تعالى: { وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً }، قال ابن كثير: أي الذي تعاهدون عليه الناس والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه { إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولا } أي: عنه. وقال سبحانه: { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً } قال القرطبي في تفسيره: وأوفوا بعهد الله لفظ عام لجميع ما يعقد باللسان ويلتزمه الإنسان من بيع أو صلة أو مواثقة في أمر موافق للديانة.

وقال: { وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ }. قال ابن كثير في تفسيره: أي إذا اؤتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا، وهذه صفات المؤمنين، وضدها صفات المنافقين، كما ورد في الحديث الصحيح: آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان. ، وغير هذا كثير في كتاب الله مما يأمر بالوفاء بالعهد وعدم نقضه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى الكبرى: روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً ثم أكل ثمنه، ورجل أستأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره. فذم الغادر وكل من شرط شرطاً ثم نقضه فقد غدر، فقد جاء الكتاب والسنة بالأمر بالوفاء بالعهود والشروط والمواثيق والعقود، وبأداء الأمانة ورعاية ذلك، والنهي عن الغدر ونقض العهود والخيانة والتشديد على من يفعل ذلك.

وقال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم بعد أن ساق حديث ابن عمر في الصحيحين " لكل غادرٍ لواءٌ يوم القيامة يعرف به، وفي رواية: إن الغادر يُنصبُ له لواء يوم القيامة، فيقال: ألا هذه غَدرةُ فلان. قال: والغدر حرام في كل عهدٍ بين المسلم وغيره، ولو كان المعاهد كافراً، ولهذا في حديث عبد الله بن عمرو في البخاري، عن النبي صلى الله عليه وسلم: من قتل نفساً معاهداً بغير حقها لم يَرَح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما، وقد أمر الله تعالى في كتابه بالوفاء بعهود المشركين إذا أقاموا على عهودهم ولم ينقُضوا منها شيئاً.

وأما عهود المسلمين فيما بينهم، فالوفاء بها أشد، ونقضها أعظم إثماً، ومن أعظمها: نقضُ عهد الإمام على من بايعه، ورضي به، وفي الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، فذكر منهم: ورجلٌ بايع إماماً لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه ما يريد، وفى له، وإلا لم يف له.

ويدخل في العُهود التي يجب الوفاء بها، ويحرم الغدر فيها: جميع عقود المسلمين فيما بينهم إذا تَرَاضَوا عليها من المبايعات والمناكحات وغيرها من العقود اللازمة التي يجب الوفاء بها.

ولعظيم جرم الغدر فقد ذهب كثير من العلماء الى عدم الغزو مع الأمير الغادر كما قال شيخنا الشهيد أبو المنذر سالم الطرابلسي المالكي رحمه الله.

تنبيه هام: فعلى من في رقبته بيعة أو عهد أو ألزم نفسه بميثاق، أن يتقيَ الله في ما قد أعطى، وأن لا يحل عقداً أبرمه من غير موجب شرعي معتبر، وليحذر من تسويل الشيطان له وإغرائه، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد كما تقدم، فلا يجعلن من خصومة أو نزاع أو اختلاف في الرأي سبباً موجباً لنقض عهد أبرمه وليتق الله فيما أمر، ومن رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر وليحتسب فإن الله عنده حسن الثواب، ولا يكونن أداة لشق صف اجتمع على نصرة دين الله في زمن كثرت فيه الفتن.

التذكرة الرابعة في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ...}.

إن السمع والطاعة لمن ولاه الله أمراً من أمور هذا الدين، أو حمله شأناً من شؤون المسلمين في محل ولايته، عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه، حيث أن طاعة أُولي الأمر من المؤمنين هي في الأصل طاعة لله ولرسوله كما تحدثت بذلك الأحاديث النبوية، وقد أجمع العلماء على وجوب طاعة الأمراء في غير معصية الله، ونقل هذا الإجماع القاضي عياض وآخرون كما ذكر ذلك النووي رحمه الله، وللمكانة العظيمة للسمع والطاعة في الإسلام، فقد ذكرها ربُّنا العلي القدير في كتابه الكريم، آمراً أهل التوحيد بطاعته وطاعة رسوله وطاعة أُولي الأمر، فقال جلّ ثناؤه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}.

قال الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية الكريمة: لما تقدم إلى الولاة في الآية المتقدمة وبدأ بهم فأمرهم بأداء الأمانات وأن يحكموا بين الناس بالعدل، تقدم في هذه الآية إلى الرعية فأمر بطاعته جل وعز أولاً، وهي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ثم بطاعة رسوله ثانياً فيما أمر به ونهى عنه، ثم بطاعة الأمراء ثالثاً، على قول الجمهور وأبي هريرة وابن عباس وغيرهم.

وقد اختلف أهل العلم في المقصود بأُولي الأمر كما ذكر ذلك الطبري في تفسيره، قال رحمه الله: اختلف أهل التأويل في أولي الأمر الذين أمر الله عباده بطاعتهم في هذه الآية، فقال بعضهم عن أبي هريرة: هم الأمراء، وقال آخرون هم الفقهاء، وقال آخرون هم أهل العلم والدين والعقل.

ثم رجح رحمه الله أن يكونوا هم الأمراء والولاة، لصحة الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر بطاعة الأئمة والولاة فيما كان لله طاعة و للمسلمين مصلحة، وهذا ما ذهب إليه جماهير الفقهاء والمفسرين من السلف والخلف كما ذكر ذلك النووي رحمه الله.

وقال الجصاص في أحكام القرآن بعد أن ساق بعضاً من أقوال أهل العلم في ذلك: ويجوز أن يكونوا جميعاً – أي أولو الفقه والعلم وأمراء السرايا – مرادين بالآية، لأن الاسم يتناولهم جميعاً، لأن الأمراء يلون أمر تدبير الجيوش والسرايا وقتال العدو، والعلماء يلون حفظ الشريعة وما يجوز مما لا يجوز، فأَمَرَ الناس بطاعتهم والقبول منهم.

أما الأحاديث التي تتحدث عن وجوب السمع والطاعة لمن تولى أمراً من أمور المسلمين، أو شأناً من شؤونهم فهي في الحديث النبوي من الكثرة بمكان، فلم يهمل باني أول مجتمع مسلم هذا الأمر – أي أمر السمع والطاعة – وذلك لخطورة عواقب معصية الإمام أو الأمير أو من تولى أمراً من أمور المسلمين، فقد قال حاثاً أتباعه صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة: من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد اطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني، وإنما الإمام جُنّة يقاتل من ورائه ويُتقى به، فإن أمر بتقوى الله وعدل فإن له بذلك أجرا، وإن قال بغيره فإن عليه منه.

وقال صلى الله عليه وسلم: اسمعوا وأطيعوا، وإن أمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي أن أسمع وأطيع، وإن كان عبداً حبشياً مُجَدّع الأطراف.

وقال صلى الله عليه وسلم: السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة.

قال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم: وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين، ففيها سعادة الدنيا، وبها تنظيم مصالح العباد في معاشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربهم، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن الناس لا يصلحهم إلا إمام؛ بر أو فاجر، إن كان فاجراً عبَدَ المؤمنُ فيها ربه، وحمل الفاجر فيها إلى أجله.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: فطاعة ولاة الأمور واجبة لأمر الله بطاعتهم، فمن أطاع الله ورسوله بطاعة ولاة الأمر لله فأجره على الله، ومن كان لا يطيعهم إلا لما يأخذه من الولاية والمال فإن أعطوه أطاعهم، وإن منعوه عصاهم: فماله في الآخرة من خلاق.

وقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع رجلا بسلعة بعد العصر فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا فصدقه وهو غير ذلك، ورجل بايع إماماً لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها وَفَى، وإن لم يعطه منها لم يَفِ ".

وبهذه النصوص وغيرها الكثير مما لا يسع المجال بسردها، يتبين أن طاعة الأُمراء واجب شرعي، وهي عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه، وينال بها المنزلة العالية الرفيعة، ويساعد بتلك الطاعة على عدم الفرقة في الدين واختلاف كلمة المسلمين، ويجب على الأخ المجاهد الساعي إلى إقامة دين الله في الأرض أن يستشعر حلاوة تلك العبادة وهو يلبي أمر أميره، ويعلم أنه يغدو ويروح في طاعة ملاك القلوب.

مسألة مهمة ذكرها شيخنا عطية الله:

قال أكرمه الله: وهذه الأحاديث النبوية والنصوص الشرعية التي ذكرت في وجوب السمع والطاعة والوفاء للأمراء بيعاتهم وعدم الخروج عليهم....إلخ أنما هي شاملةٌ للأمراء ممن هم دون الإمام الأعظم، كأمراء الجماعات المجاهدة في وقتنا هذا، أو الممكنة تمكينا غير كامل في بعض نواحي البلاد الإسلامية ونحوها، (كما كانت دولة طالبان في معظم أفغانستان مثلا) فهذه تأخذ في محل ولايتها حكم الإمام الأعظم وتنطبق عليها الأحاديث الواردة في السمع والطاعة والوفاء وتحريم الخروج عليها... أما الجماعات المجاهدة فليس لها حكم الإمامة العظمى في كل ما ورد من أحكام شرعية، ولكن تجتمع معها في بعض الأحكام بمقتضى العموم المعنوي، مثل عموم تحريم الشقاق بين المسلمين وتفريق كلمتهم وإضعافهم وإذهاب ريحهم... وعموم وجوب أضداد ذلك من الاجتماع على الحق وعلى أمير واحدٍ قدر الإمكان والائتلاف... وأن الجهاد لا يقوم ولا يمكن إلا بها فهي واجبةٌ بقاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وأنها جائزة بأصل الشرع بأدلة متعددة، فلما كانت مشروعة،

بل واجبةً، اقتضت المصلحة المتحققة الضرورية أن تكون هذه الجماعات المجاهدة تأخذ الكثير من الأحكام التي وردت في الإمامة العظمى، ثم إن الكثير من الأحكام الواردة في الحديث هي معلقة بطاعة الأمير، الذي يشمل كل تأميرٍ سواء كان الإمام الأعظم نفسه، أو أميراً من جهته، أو غيرهما كأمير سفرٍ مثلا، أو أمير جهادٍ وحرب عيّنه المسلمون في حربِ عدوهم.اهـ

فصل: اعلم أن الطاعة التي نتكلم عنها إنما هي الطاعة في المعروف، وفي حدود ما أمر الله عز وجل وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن يكون ذلك في استطاعةِ المأمور، أما خلاف ذلك فلا سمعٌ ولا طاعة، كما قرر ذلك أهل العلم وتكلمت عنه الأحاديث، وهذا بيان ذلك:

فقد ثبت في صحيح البخاري وغيره عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – قال: بعث النبي صلى الله عليه وسلم سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه فغضب فقال: أليس قد أمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تطيعوني ؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطباً، فجمعوا فقال: أوقدوا ناراً فأوقدوه، فقال: ادخلوها، فهمُّوا وجعل بعضهم يمسك بعضاً، ويقولون فررنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من النار فما زالوا حتى خمدت النار، فسكن غضبه فبلغ النبي صلى الله عليه فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة إنما الطاعة في المعروف.

قال الخطابي رحمه الله: هذا يدل على أن طاعة الولاة لا تجب إلا في المعروف كالخروج في البعث إذا أمر الولاة، والنفوذ لهم في الأمور التي هي الطاعات ومصالح المسلمين، فأما ما كان منها معصية كقتل النفس المحرمة وما أشبهه فلا طاعة لهم في ذلك، إنما الطاعة في المعروف لا في المنكر، والمراد بالمعروف ما كان من الأمور المعروفة في الشرع، وهذا تقييد لما أُطلق في الأحاديث المطلقة القاضية بطاعة أُولي الأمر على العموم.

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله: وفي الحديث دليل أن على من أطاع ولاة الأمر في معصية الله كان عاصياً، وأن ذلك لا يمهد له عذراً عند الله، بل إثم المعصية لاحق له، وإن كان لولا الأمر لم يرتكبها، وعلى هذا يدل الحديث، وبالله التوفيق.

وعليه فالواجب على كل مأمور أن لا يطيع أميره في معصية الله، وأن لا يرضي الناس بسخط الله، وهذا الذي يطيع في المعصية لا عذر له أمام الله، بل هو آثمٌ بفعله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

مسألة مهمة: اعلم أن للأمير حق السمع والطاعة في المسائل الاجتهادية، حيث لا نص ثابت مقرر في المسألة، كما قال شارح العقيدة الطحاوية: دلت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن ولي الأمر، وإمام الصلاة والحاكم وأمير الحرب وعامل الصدقة يطاع في مواضع الاجتهاد، وليس عليه أن يطيع أتباعه في موارد الاجتهاد، بل عليهم طاعته في ذلك، وترك رأيهم لرأيه، فإن مصلحة الجماعة والائتلاف، ومفسدة الفرقة والاختلاف، أعظم من أمر المسائل الجزئية .

فاللأمير السمع والطاعة في تدبير شؤون الحرب، وما يصلح فيها وما لا يصلح، ومتى يكون الكر ومتى يكون الفر، ومتى التقدم، ومتى الانحياز والانسحاب، وغير ذلك من فنون القتال التي تعرف بالدربة والتجربة والممارسة وسائرها من مسائل الاجتهاد.

ولو لم يكن له الأمر في ذلك لغدا الأمر كما قال الإمام الجويني في غياث الأمم: ولو لم يتعين اتباع الإمام في مسائل التحري لما تأتَّى فصل الخصومات في المجتهَدات، ولاستمسك كل خصم بمذهبه ومطلبه، وبقي الخصمان في مجال خلاف الفقهاء مرتبكين في خصومات لا تنقطع.

فائدة: وحقيقة السمع والطاعة لا تظهر غالباً إلا في الأمر الذي يكره الفرد القيام به ويشق عليه فعله، ولا يتوافق مع هواه، ولا يتماشى مع مطلبه ومناه، لهذا وذاك فقد وردت الأحاديث التي تأمر بالسمع والطاعة على جميع الأحوال وخاصة في ما يكره القيام به، فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك.

قال النووي رحمه الله في شرحه لمسلم: قال العلماء: معناه تجب طاعة ولاة الأمور فيما يشق وتكرهه النفوس وغيره مما ليس بمعصية، فإن كانت لمعصية فلا سمع ولا طاعة.

والأثرة هي: الاستئثار والاختصاص بأمور الدنيا عليكم، أي اسمعوا وأطيعوا وإن اختص الأمراء بالدنيا ولم يوصلوكم حقكم مما عندهم، وهذه الأحاديث في السمع والطاعة في جميع الأحوال، وسببها اجتماع كلمة المسلمين، فإن الخلاف سبب لفساد أحوالهم في دينهم ودنياهم.

فأرِ الله منك السمع والطاعة في اليسر كما هو في العسر، وفي المكره كما هو في المنشط، حتى تنال رضاه، وكن كما قال عليه الصلاة والسلام: طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله

أشعث رأسه مغبرة قدماه إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقة كان في الساقة وإن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع.

فصل: عواقب وتبعات معصية الأمير:

قصَّ علينا العلي القدير في كتابه الكريم، جانباً من تبعات معصية الأمير، وبيَّن سبحانه وتعالى ما حلَّ بعباده المؤمنين، عندما عصى بعضهم أوامر سيد البشرية صلى الله عليه وسلم، وكيف انقلب النصر الساحق إلى هزيمة بسبب معصية الرماة، وتركهم لمواقعهم التي أمرهم الرسول عليه الصلاة والسلام بلزومها، مهما كانت نتيجة المعركة: " لا تبرحوا مكانكم ! إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا لا تعينونا"، وهذا الذي كان إنما هو عاقبة معصية الرماة.

قال سبحانه وتعالى واصفاً ذلك في المعركة الخالدة " غزوة أحد ": { وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآَخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }.

قال الإمام الجصاص في أحكام القرآن: فيه إخبار بتقدم وعد الله تعالى لهم بالنصر ما لم يتنازعوا ويختلفوا، فكان كما أخبر به يوم أحد ظهروا على عدوهم وهزموهم وقتلوا منهم، وقد كان عليه الصلاة والسلام أمر الرماة بالمقام في موضع وأن لا يبرحوا، فعصوا وخلوا مواضعهم حين رأوا هزيمة المشركين وظنوا أنه لم يبق لهم باقية واختلفوا وتنازعوا، فحمل عليهم خالد من ورائهم فقتلوا من المسلمين من قتلوا بتركهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعصيانهم.

وفي ذلك دليل على صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، لأنهم وجدوا موعود الله كما وعد قبل العصيان، فلما عصوا وكلوا إلى أنفسهم.

وفيه دليل على أن النصر من الله في جهاد العدو مضمون باتباع أمره والاجتهاد في طاعته، وعلى هذا جرت عادة الله تعالى للمسلمين في نصرهم على أعدائهم.

وفي هذه الواقعة عبرةٌ وعظةٌ لكل مسلم من المخالفة والعصيان، حيث أن معصية الفرد الواحد قد تكون سبباً رئيساً في هزيمة المسلمين، وفي هذا المعنى يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله في

الفتح: وفيه شؤم ارتكاب النهي وأنه يعم ضرره من لم يقع منه، كما قال تعالى: { وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً }، وأن من آثر دنياه أضر بآخرته ولم تحصل له دنياه.

فإياك ثم إياك أيها النافر في سبيل الله، أن تكون شؤماً على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، أو على تلك الفئة التي تجاهد معها من كفر بالله، فإن معصية الإمام أو الأمير لا تأتي إلا بكل شر.

فصل: توقير الأمير:

إن من الأمور التي يجب أن يدركها أخو الجهاد، العازم على إعادة صرح الخلافة الراشدة، والذي ارتضى لنفسه أن يكون لبنة مباركة في بناء الجماعة المسلمة التي تعمل على إقامة المجتمع المسلم، أن الأمير هو ظل الله في الأرض، وأن إكرام الأمير وتوقيره وتبجيله والدعاء له بالخير، أمرٌ محمود بل جاءت الأحاديث النبوية تحث عليه وتأمر به، فقد روى مسلم في صحيحه عن عوف بن مالك أنه قال: قتل رجل من حمير رجلاً من العدو، فأراد سلبه فمنعه خالد بن الوليد رضي الله عنه وكان والياً عليهم، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم عوف بن مالك فأخبره، فقال لخالد ما منعك أن تعطيه سلبه ؟ قال: استكثرته يا رسول الله، قال: ادفعه إليه، فمر خالد بعوف فجر بردائه، ثم قال: هل أنجزت ما ذكرت لك من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟، فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستغضب، فقال: لا تعطه يا خالد لا تعطه يا خالد، هل أنتم تاركون لي أمرائي ؟ إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استرعي إبلاً أو غنماً فرعاها، ثم تحين سقيها فأوردها حوضاً، فشربت صَفوه، وتركت كدره، فَصفوهُ لكم وكدره عليهم.

في هذا الحديث دلالة واضحة على إكرام النبي صلى الله عليه وسلم لأمرائه، وأنه لا يرضى بحال من الأحوال أن يهان أميره أو يزدرى، وتأمل كيف استطاب النبي صلى الله عليه وسلم قلب أميره خالد، وذلك للمصلحة في إكرام الأمراء كما ذكر ذلك النووي في شرحه هذا الحديث.

وأضاف رحمه الله في معنى هذا الحديث: إن الرعية يأخذون صفو الأمور، فتصلهم أعطياتهم بغير نكد، وتبتلى الولاة بمقاساة الأمور، وجمع الأموال على وجوهها، وصرفها في وجوهها، وحفظ الرعية والشفقة عليهم والذب عنهم، وإنصاف بعضهم من بعض، ثم متى وقع علقة أو عتب في بعض ذلك، توجه على الأمراء دون الناس.

وقال شمس الحق آبادي صاحب عون المعبود: الأمراء الذين أمرتهم عليكم منهم خالد بن الوليد تتركونهم بمخالفتهم وعدم متابعتهم وليس صنيعكم هذا لائقاً بشأن الأمراء.

وروى الإمام أحمد وغيره عن معاذ بن جبل عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أنه قال: خمس من فعل واحدة منهن كان ضامناً على الله عز وجل من عاد مريضاً أو خرج مع جنازة أو خرج غازياً أو دخل على إمام يريد تعزيره وتوقيره أو قعد في بيته فسلم الناس منه وسلم من الناس.

وقال صلى الله عليه وسلم: السلطان ظل الله في الأرض فمن أكرمه أكرم الله، ومن أهانه أهان الله.

وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي حسنه الألباني عن أبي بكرة: من أكرم سلطان الله تبارك و تعالى في الدنيا أكرمه الله يوم القيامة، و من أهان سلطان الله تبارك وتعالى في الدنيا أهانه الله يوم القيامة. وفي رواية للترمذي: من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله. وقال عنه حديث حسن غريب.

وقال صلى الله عليه وسلم: من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط.

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: {أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ}، قال: قال سهل بن عبد الله رحمه الله: لا يزال الناس بخير ما عَظَّموا السلطان والعلماء، فإذا عظموا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم، وإذا استخفوا بهذين أفسد دنياهم وأخراهم.

وقال النووي رحمه الله: وأما إكرام الداخل بالقيام فالذي نختاره أنه مستحب لمن كان فيه فضيلة ظاهرة من علم أو صلاح أو شرف أو ولاية ونحو ذلك، ويكون هذا القيام للبر والإكرام والاحترام، لا للرياء والإعظام، وعلى هذا استمر عمل السلف والخلف.

قال شيخنا عطية الله الليبي أكرمه الله: ناقش العلماء كلام النووي هذا — القيام – واعترضوه، ومنهم ابن الحاج المالكي في المدخل، ونقل كلامه ابن حجر في الفتح ومال إلى ترجيح عامة اعتراضاته على النووي، ومنهم ابن القيم وغيرهم، وأما مطلق الاحترام والتوقير والتعزير لذي

السلطان المقسط العدل، فهذا لا شك في أنه من الدين ومن العمل الصالح الذي يحبه الله ويرضاه وهو مأمورٌ به، لا خلاف فيه ذلك ولا ريب.اهـ

وإكرام الأمير وذي السلطان يكون بالدعاء له، وعدم التقدم بين يديه فيما يكره وخاصة بحضور العامة، وعدم رفع الصوت أثناء الحديث معه، ومناصحته سراً، وتحين ذلك في الوقت المناسب، وعدم الإنكار عليه علانية خشية خرق هيبته، قال شيخنا عطية الله: إلا لمقتضٍ خلافَ الأصل، يعني فيجوز النصح والإنكار عليه علانية إذا اقتضى الحالُ والمصلحة ذلك وقد فعله السلف من الصحابة ومَن بعدهم، ولذلك نقول: النصح للولاة سرّاً هو الأصلُ.اهـ

وإعانته على ما حمله الله من أمانة، وطاعته في غير المعصية، وتنبيهه في حال الشرود والغفلة، وسد خلته عند الهفوة والزلة، وجمع الكلمة عليه، ورد القلوب النافرة إليه، ودفعه عن الظلم بالتي هي أحسن، إلى غير ذلك مما يحمد فعله ويستحسن القيام به.

وإهانة ولي الأمر وانتقاصه قد تكون بأشكال متعددة منها: ذمه أمام الآخرين، وذكر عيوبه، ونشر زلاته، والاستخفاف به، والسخرية منه، وعدم طاعته فيما يأمر، وتنفير الناس منه، وعدم إعانته على ما ولاه الله من أمر المسلمين، والإنكار عليه علانية، إلى غير ذلك مما يستقبح فعله، ويزرى عمله.

وعليه فتوقير الأمير وإجلاله وإكباره، واجباً من واجبات المؤمنين، وسنة من سنن المسلمين، والالتزام به دليل صدق على محبة نصرة هذا الدين، وعدم تفرق كلمة المجاهدين، وجديرٌ بكل نافرٍ في سبيل الله أن يعي ما ذكرناه، حتى لا يكون من حيث لا يحتسب سبباً في معصية الرعية لأميرها، مما يترتب على ذلك من المفاسد ما الله بها عليم.

ولا شك أن الإمام أو الولي أو السلطان الذي يجل ويوقر ويحترم إنما هو الإمام العدل العادل القائم بالقسط، أما إذا انحرف عن جادة الحق والصواب وجب نصحه والإنكار عليه وتقويمه بحسبه.

التذكرة الخامسة في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }.

مما لا شك فيه أن أعمال البر بعمومها متوقف أمر نفاذها والتمكن من القيام بها على السلامة من العدو والتحرز منه كما ذكر ذلك القرطبي في تفسيره، وهذه السلامة وذاك الآمان لا يتأتى من غير الرباط في سبيل الله والسهر على الثغور حفظاً لها وحمايةً من تسلل العدو، ولأجل ذلك جاءت الأخبار بعظيم فضل هذه العبادة، وجليل قدرها، ورفيع منزلتها، حتى قال فيها أبو هريرة رضي الله عنه: لأن أرابط يوماً في سبيل الله أحب إلي من أن أقوم ليلة القدر عند الحجر الأسود، والرباط وبلا شك أفضل من الحج لأنه من جنس الجهاد في سبيل الله، وجنس الجهاد أفضل من جنس الحج، كما دلت على ذلك الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، والرباط في سبيل الله أفضل من مجاورة مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس، كما نص على ذلك أئمة الإسلام.

ومعنى الرباط كما جاء في الشرح الكبير لابن قدامة: الإقامة بالثغر مقوياً للمسلمين على الكفار، والثغر كل مكان يخيف أهلُهُ العدو ويخيفهم، وأصله من رباط الخيل لأن هؤلاء يربطون خيولهم وهؤلاء يربطون خيولهم كل يعد لصاحبه فسمي المقام بالثغر رباطاً وإن لم يكن خيل.

فصل: وأقل الرباط ساعة كما قال الإمام أحمد وأبو الخطاب وابن الجوزي وغيرهم، كذا ذكره صاحب الإنصاف، وتمامه أربعون يوماً كما روي ذلك عن أبي هريرة، ونحوه عن نافع عن ابن عمر عن أبيه رضي الله عنهما، وأفضله المقام بأشد الثغور خوفاً لأنهم أحوج والمقام به أنفع، قال أحمد: أفضل الرباط أشده كلباً.

فصل: وقد دلت الأحاديث النبوية على عظيم فضل هذه الطاعة، وجزيل ثوابها، لما فيها من مصالح جليلة، ومنافع جسيمة، ولما يصحبها من مشاق وكلل، وبوب لها أئمة الحديث، فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه أنه قال: رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما عليها.

وثبت في صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجري عليه رزقه وأمن الفتان.

وروى أبو داود في سننه عن فضالة بن عبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كل ميت يختم على عمله إلا المرابط فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتان القبر.

قال القرطبي رحمه الله: وفي هذين الحديثين دليل على أن الرباط أفضل الأعمال التي يبقى ثوابها بعد الموت، كما جاء في حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، فإن الصدقة الجارية والعلم المنتفع به والولد الصالح الذي يدعو لأبويه ينقطع ذلك بنفاد الصدقات وذهاب العلم وموت الولد.

والرباط يضاعف أجره إلى يوم القيامة، لأنه لا معنى للنماء إلا المضاعفة، وهي غير موقوفة على سبب فتنقطع بانقطاعه، بل هي فضل دائم من الله تعالى إلى يوم القيامة.

قال النووي رحمه الله في شرح مسلم: هذه فضيلة ظاهرة للمرابط، وجريان عمله بعد موته فضيلة مختصة به لا يشاركه فيها أحد.

وفي سنن الترمذي عن عثمان رضي الله عنه أنه قال على المنبر: أيها المسلمون ! إني كتمتكم حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كراهية تفرقكم عني ثم بدا لي أن أُحدثكموه ليختار امرؤٌ لنفسه ما بدا له، سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: رباط يوم في سبيل الله خير من رباط ألف يوم فيما سواه من المنازل.

وقال الإمام أحمد: ليس يعدل الجهاد والرباط شيء، والرباط دفع عن المسلمين وعن حريمهم وقوة لأهل الثغر ولأهل الغزو، فالرباط عندي أصل الجهاد وفرعه، والجهاد أفضل منه للعناء والتعب والمشقة.

فائدة: ولعظيم منزلة هذه العبادة فقد كان السلف رضوان الله عليهم يحرصون على سكنى الثغور والرباط فيها، حتى اشتهرت تلك الثغور وفاقت مثيلاتها لكثرة ما نزل بها من الصالحين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى الكبرى: وفضائل الجهاد والرباط كثيرة، فلذلك كان صالحو المؤمنين يرابطون في الثغور، مثل ما كان الأوزاعي وأبو إسحاق الفزاري ومخلد بن الحسين وإبراهيم بن أدهم وعبد الله بن المبارك وحذيفة المرعشي ويوسف بن أسباط وغيرهم، يرابطون في الثغور الشامية،

ومنهم من كان يجيء من خراسان والعراق وغيرهما للرباط في الثغور الشامية لأن أهل الشام كان يقاتلون النصارى... ولهذا كثر ذكر "طرسوس " في كتب العلم والفقه المصنفة في ذلك الوقت لأنها كانت ثغر المسلمين حتى كان يقصدها أحمد بن حنبل والسري السقطي، وغيرهما من العلماء والمشايخ للرباط وتوفي المأمون قريباً منها.

فصل: واعلم أن الصبر على الرباط لا تحتمله إلا النفوس العظيمة، ولا تتكبد مشاق عنائه إلا الأرواح التي اصطفاه الله لخدمة هذا الدين، وهذا ما يفسر ذاك الأجر العظيم الذي ينتظر المرابط. يقول الشيخ الفقيه عبد الله عزام رحمه الله في التربية الجهادية: والصبر على الرباط أشد بكثير من الصبر على السجون، لأن السجن يجد أنه أمرٌ ليس له فيه حل وليس ليده فيه حكم، أما الصبر في داخل الجبهات فهو بيده يتركه متى شاء ويصبر متى شاء، فالصبر في داخل الجبهات صعب ومرير، ولذا كان الرباط في القرآن الكريم مسبوقا بأمرين في الصبر: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } .اهـ

والقتال أمره سهل يسير على من يسره الله له، ولكن الأمر الشاق الصعب على النفس هو الصبر في الثغور انتظاراً للمعركة، ولقد خَبرنا ذلك فما وجدناه غير الذي ذكرنا، يقول الشيخ المرابط الشهيد عبد الله عزام في التربية الجهادية: فعملية الجهاد عملية شاقة، وأصعب من القتال الصبر على انتظار القتال، وأصعب من القتال الرباط الطويل في انتظار المعركة، هذه عملية شاقة لا تحتملها إلا العلية من نفوس البشر، ولذلك لم يكن الإسلام بعيداً عن منطقه إذ فرض الجهاد، وقد بقيت الفترة المكية فترة ممنوعة من الجهاد حتى ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم صفوة البشر من خلقه بعده صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عاما وهو يربيهم على المحن وعلى الشدائد وعلى الصبر وعلى الزهد حتى تكونت هذه الصفوة، حتى تربت هذه المجموعة الفريدة من البشر ثم نزل عليه قوله تعالى: { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ الله عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } .اهـ

فائدة جليلة: اعلم أن الرباط موطن لصقل النفس البشرية، وتزكيتها، وتربيتها على الصبر وتحمل المشاق، وأرض خصبة لنماء الإيمان في دواخل المرء، وواحة مباركة يتجرد فيها الإنسان من ذاته ويرتفع فيها عن حطام الدنيا الزائل، لهذا يجب أن يحرص المرء على عدم تفويت هذه المواطن دون أن ينعم بجزيل بركاتها، وإن فات المرء هذا الخير لمصلحة ما قد يراها الأمير، من قبيل إشغاله بأمر إداري يحول بينه وبين الرباط في الثغور – وفي كل خيرٌ، وكله جهادٌ في سبيل الله والحمد لله– فلا يبخل على

نفسه في وقت فراغه من اللحاق بإخوانه المرابطين، فهي كما علمنا وجربنا عبادة لا شك تجعلك قريباً من الله، وتدنيك من أخلاق من يتقبلهم الله، ولا شك أنك سترى الفرق الشاسع، والبون الهائل بين النفس التي كانت بين جنباتك قبل الرباط، وبين النفس التي غدت بعد الرباط، بل أجزم أنها ستغير كثيراً من أخلاقك وصفاتك، وهذا بالتجربة مشاهد والله ولي التوفيق.

التذكرة السادسة في قوله تعالى: { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ }.

اعلم أيها المجاهد في سبيل الله أن نزال الكفار في الميدان، لا بد له من إعداد بدني وإيماني، وكلما كان المجاهد معداً نفسه بشكل أفضل كلما كان أكثر نفعاً للإسلام والمسلمين، وأعظم نكاية في العدو المهين، وبخلاف ذلك فإنه عبء على الجهاد والمجاهدين، وغنيمة سهلة للكفار أعداء الدين، وهذا مشاهدٌ بالتجربة، والإعداد بكافة أشكاله وصوره من الفروض التي أمر الله بها، كما ذكر ذلك القرطبي في تفسيره: أمر الله سبحانه المؤمنين بإعداد القوة للأعداء بعد أن أكد تقدمة التقوى، فإن الله سبحانه لو شاء لهزمهم بالكلام والتفل في وجوههم وبحفنة من تراب، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه أراد أن يبتلي بعض الناس ببعض بعلمه السابق وقضائه النافذ..ثم قال رحمه الله: وهو من فروض الكفاية وقد يتعين.

وقال الرازي في تفسيره: وهذه الآية تدل على أن الاستعداد للجهاد بالنبل والسلاح وتعليم الفروسية والرمي فريضة، إلا أنه من فروض الكفايات.

ومن المعلوم في هذا الزمان، أن الجهاد فرضٌ متعين على كل مسلم غير معذور كما قرر ذلك جماعة من أهل العلم وهو الصواب، وحيث أن الجهاد فرض عين فكذلك الإعداد فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وعليه فالإعداد واجبٌ كوجوب الجهاد، حيث لا جهاد بغير إعداد، وإن تعذر الجهاد للعجز لا يسقط فرض الإعداد كما نص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى قال رحمه الله: وكما يجب الاستعداد للجهاد بإعداد القوة ورباط الخيل في وقت سقوطه للعجز، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

فصل: والإعداد دليل صدق على إرادة الجهاد في سبيل الله، وخلاف ذلك دليلٌ على النفاق، كما قال تعالى فاضحاً المنافقين: ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدته، فلو أرادوا الغزو لأعدوا لذلك وأخذوا أُهبتهم واستعدوا، ولكن الله كره انبعاثهم وقيل لهم اقعدوا مع القاعدين.

وقد حثَّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم في مواطن كثيرة، فقد صح عنه كما جاء في حديث مسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي إلا أن القوة الرمي.

قال الجصاص رحمه الله في أحكام القرآن: ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم: " ألا إن القوة الرمي"، أنه من معظم ما يجب إعداده من القوة على قتال العدو، ولم ينف به أن يكون غيره من القوة بل عموم اللفظ الشامل لجميع ما يستعان به على العدو ومن سائر أنواع السلاح وآلات الحرب، ثم ساق بسنده إلى الحكم بن عمير رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نحفي الأظفار في الجهاد وقال: إن القوة في الأظفار، وهذا يدل على أن جميع ما يقوي على العدو فهو مأمور باستعداده، وقال الله تعالى: " ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة "، فذمهم على ترك الاستعداد والتقدم قبل لقاء العدو.

وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميا.

قال ابن بطال في شرحه لصحيح البخاري: قال المهلب: فيه من الفقه أن للسلطان أن يأمر رجاله بتعليم الرمي وسائر وجوه الحرابة ويحض عليها.

وجاء في الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: من رمى بسهم في سبيل الله فهو له عدل مُحرر.

وفي سنن ابن ماجه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: من رمى العدو بسهم فبلغ سهمه العدو أصاب أو أخطأ فعدل رقبة.

فتأمل هذا الفضل العظيم في رماية سهم واحد في سبيل الله، فكيف بمن وقف نفسه على الجهاد، نسأل الله من فضله، فحريٌ بكل ذي لب أن يسارع لهذا الخير العظيم، وهذا الثواب الجزيل، حتى لا يفوته فيندم ولات ساعة مندم.

يقول الشيخ الفقيه عبد الله عزام: كل طلقة كأنك أعتقت عبداً في سبيل الله، فانتبهوا، وهذا فرض عليكم، وهو علامة الجدية في الجهاد،" ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة" ونحن هنا في أداء فريضتين: فريضة الإعداد، ثم نحن شبه مرابطين، ففريضة الرباط كذلك، ونحن أولى وأكثر ثواباً من الذين يعيشون في أرض الرباط، دون أن يمروا بالتدريب أو التمرين، وأجركم أعظم بإذن الله عز وجل من أولئك الذين استعجلوا ووصلوا الجبهة دون الإعداد، ودون التدريب والتمرين.اهـ

فصل: ولقد ورد في نسي الرماية بعد علمها الوعيد الشديد والزجر والتهديد، فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى.

قال النووي رحمه الله في شرح هذا الحديث: هذا تشديد عظيم في نسيان الرمي بعد علمه، وهو مكروه كراهة شديدة لمن تركه بلا عذر.

وقال صلى الله عليه وسلم: إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه الذي احتسب في صنعته الخير ومنبله، والرامي ارموا واركبوا، وإن ترموا أحب إلي من أن تركبوا وليس من اللهو إلا ثلاثة، تأديب الرجل فرسه، وملاعبته زوجته، ورميه بنبله عن قوسه، ومن علم الرمي ثم تركه، فهي نعمة كفرها.

قال المناوي في فيض القدير: " من ترك الرمي" بالسهام " بعد ما علمه رغبة عنه فإنها "، أي الخصلة التي هي معرفة الرمي ثم أهملها " نعمة كفرها "، فإنه ينكي العدو ونِعم العون في الحرب، وهذا خرج مخرج الزجر والتغليظ فتعلم الرمي مندوب وتركه بعد معرفته مكروه... وقال في موطن آخر: من علم رمي السهم ثم تركه فليس من المتخلقين بأخلاقنا والعاملين بسنتنا، أو ليس متصلاً بنا ولا داخلاً في زمرتنا، وهذا أشد ممن لم يتعلمه لأنه لم يدخل في زمرتهم، وهذا دخل ثم خرج فكأنه استهزاء به وهو كفران لتلك النعمة.

فالواجب، على من تعلم علماً عسكرياً، أن لا ينشغل عنه ويتركه للنسيان، ولا يتساهل في المعاودة على تكراره بين الفينة والأخرى، حتى لا يقع تحت وطأة هذا الإنكار الشديد، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

فائدة: وأفضل ما يُتعلم من العلوم العسكرية في هذا الزمان، هو ما كان أكثر نفعاً للمسلمين، وهو ما كان أنكى في العدو، وأشد وطأة عليه، وأرهب له ولمن خلفه، وإني لأحسب أن علم المتفجرات هو أخوف ما يخاف العدو، وهو أكثر فتكاً به، وأرهب له من سواه، فاستعينوا بالله عليه.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى: وهذه الأعمال كل منها له محل يليق به هو أفضل فيه من غيره، فالسيف عند مواصلة العدو، والطعن عند مقاربته، والرمي عند بعده أو الحائل كالنهر والحصن ونحو ذلك، فكلما كان أنكى في العدو وأنفع للمسلمين فهو أفضل، وهذا يختلف باختلاف أحوال العدو، وباختلاف حال المجاهدين في العدو، ومنه ما يكون الرمي فيه أنفع، ومنه ما يكون الطعن فيه أنفع، وهذا مما يعلمه المقاتلون.

وقد خصَّ النبي صلى الله عليه وسلم الرمي بالحديث عنه ومدحه لأنه المعتاد في عصره كما ذكر ذلك الصنعاني في سبل السلام قال رحمه الله: أفاد الحديث تفسير القوة في الآية بالرمي بالسهام لأنه المعتاد في عصر النبوة، ويشتمل الرمي بالبنادق للمشركين والبغاة.

فصل: ومما ينبغي على المجاهدين في هذا المقام أن يسعوا سعياً حثيثاً، ويجِّدوا في الطلب كل الجد من أجل تحسين قدراتهم القتالية، والارتقاء بمستواهم العسكري وعلى كل الصعد، من إعداد العدة اللازمة لقتال العدو، وأخذ الأسباب الموصلة للغلبة والظفر، والعمل الدؤوب من أجل استحداث ما يستعان به على صدِّ العدو والنيل منه، والسعي في تطوير ما بأيدي المجاهدين من سلاح، وعدم الركون والاستكانة إلى تلك المقولة البغيضة: ليس في الإمكان أبدع مما كان. بل الواجب هو المحاولة وبذل الجهد المستطاع، وتسخير الطاقات، وبذل الأموال للوصول لهذا الهدف النبيل، وهذا بلا شك يندرج تحت قوله تعالى: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل.

وفي هذا الصدد يقول شيخنا أبو الوليد الأنصاري حفظه الله في مقال له تحت عنوان "الغاية من الحياة؛ بين معاول الهدم وعوامل البناء": وفي ترك المسلمين – عامةً – والمجاهدين – خاصةً

– الحق الذي جعل الله تعالى لهم باختيارهم خير أمة أخرجت للناس وجعلهم خلفاءه في الأرض، خلق لهم ما في الأرض جميعاً منه، ووعدهم إن هم امتثلوا أمره أن يمكِّن لهم في الأرض بقوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ}، فكان مما يدخل في جملة العمل الصالح اتخاذ الأسباب المعنوية والمادية التي يحصل بها الغلبة والنصر على الأعداء، ومن ذلك أنواع الصناعات الحربية والعلوم القتالية، وأن يستحدثوا منها ما يسبقون به الأعداء، لا أن يكون سلاحهم منهم وعلومهم مستقاةً من علومهم فحسب، فإن في كتاب ربنا وسيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وفي تاريخنا المجيد من أصول هذه العلوم وقواعد هذه الفنون ما لا يدرك الكفار شأوه ولا يلحقون ركبه، ناهيك عن كون المسلمين أرقى عقولاً وأصفى فكراً وأشحذ همةً وأقوى إرادة، متى كشفوا عن أعينهم غشاوة التقليد، وتحرروا من رق التبعية، وحطموا أغلال الخمول والكسل.اهـ

فهذا الذي ذكرنا لا شك كفيل –بمعونة الله– بتحقيق النصر والغلبة على العدو، وإن لم يكن ذلك لحكمة يعلمها الباري فلا أقل من أن نكون قد أعذرنا أنفسنا أمام الخالق عز وجل.

فائدة مهمة لشيخنا عطية الله أكرمه الله:

يقول أكرمه الله :

لا شك أن الحث على الأخذ بالأسباب صحيحٌ، أسبابِ القوة وأسباب كل نفع دنيوي وأخرويّ، ولكن بقدْرٍ وعلى قانون الاقتصاد، أعني بالاقتصاد الاقتصادَ في مفهومه التربوي الديني عندنا نحن المسلمين، وأقربُ كلمات تفسّره هي: التوسط والاعتدال والتؤَدة، ومجانبة الإفراط والحرص الشديد، فإن الشريعة كما حثتنا على الأخذ بالأسباب (أسباب تحصيل المنافع الدنيوية والأخروية) ومنها أسباب القوة الحربية العسكرية وأسباب الغلبة على الأعداء، حددت لنا ذلك بدلالة الجمع بين هذا الأمر وسائر أوامر الشريعة ومطالبها، وبدلالةِ مثلِ قول الله تعالى: "ما استطعتم من قوة" ومعنى ذلك –والله أعلم-: في حدود المعتاد من قدراتكم دونَ أن نعنّتكم، ودون الخروج عن حال الاعتدال والاستقامة والاقتصاد المقتضية لتقديم واجباتٍ أخرى كثيرة من العبودية لله تعالى تتزاحَمُ. وقد قطعَ بعضُ العلماء بأن المسلمين لن يستطيعوا أن يصلوا إلى ما وصل إليه الكفارُ من تقدّم تقني صناعيّ، وهذا (أعني هذا القطعَ) عندي غيرُ بعيدٍ! لأن الوصول إلى المستويات التي وصل إليها الكفارُ في الصناعة وفنون التقنية يحتاج إلى تفرّغٍ لها كاملٍ بكل معاني التفرّغ الذي يؤول إلى الانهماك والتوغّل

والاستغراق فيها، على المستوى الفردي والجماعي، وإلى استعمال قاعدةِ "لا يحيط الإنسان بما ينفعُ حتى يتعلم كثيرا مما لا ينفع" [ذكرها لي بعض شيوخي الموريتانيين عازياً إلى الإمام اللغوي الخليل بن أحمد الفراهيدي رحمه الله].. وأنا أضربُ لك أمثلة مما يقربُ لك الفكرة: الأول: الرياضة بمعناها المعاصر وهي الألعاب والملاهي على تعدد فنونها وأنواعها ومنها المزيّنُ الباهي ومنها الخسيس السافي، هل بإمكان المسلمين أن يصلوا فيها إلى ما وصل إليه الكفار؟ تأمّل هذا، نعم ليس مطلوباً منهم أصلا أن يصلوا، لكن المقصود هنا ضرب مثلٍ يقرّب الفكرة. ولهذا انظر مثلا إلى ما تعانيه الدول التي تسمى إسلامية وعربية من "مآسٍ" في هذا المضمار، فإنهم يتلاومون ويتناقشون كثيرا: لماذا وما هي الأسباب التي جعلتهم متخلفين لا يصلون بمستوياتهم الرياضية إلى مستوى الأوروبيين وغيرهم من الكفرة؟! والجواب عندنا نحن طبعا واضح بحمد الله، وهو: ما دمتم لا تزال فيكم رائحة الإسلام فلن تصلوا إلى مستوياتهم، يعني بصريح العبارة: لن تصلوا حتى تكفروا، هذا طبعا الوصول بمعناه الكليّ المتكامل (وهو الذي ينشده العرب ويتناقشون فيه)، فلا يشكل عليه وجود أفراد أو حالات تصل أحيانا لمستوى الكفرة، وهذا المعنى هو الذي لاحظه الخبيث الزنديق طه حسين عندما قال: لابد أن نأخذ الحضارة الغربية كاملة بحلوها ومرّها ولا ننتقي منها...!! كذا قال الملعون أخزاه الله، فهو وأمثاله قد لاحظوا ذلك وتفطنوا له، لكن هذا ذكاءُ الكافر المتمرد على الله المخذول من الربّ عز وجل.!

والمقصود في هذا المثل المضروب أن الرياضي الغربي الكافر متفرّغٌ لرياضته أيما تفرغٍ حتى تكون بمنزلة العبادة وبمنزلة العشق البالغ أقصى مداه، باذلٌ فيها كل نفسه وروحه وجهده وقوته والمجتمع (الوسط والبيئة) الذي هو فيه هو كذلك ومساعدٌ له معاضدٌ، فبالتأكيد سيصل إلى مستويات كبيرة في فنون اللهو والرياضة والفساد...!

أما المسلمُ ما دام فيه إسلام، أو حتى المنتسب للإسلام ما دامت لا تزال فيه رائحة الإسلام وما دام لا يزال في مجتمع مسلم، فلن يستطيع أن يصل إلى مستوى ذاك.

الثاني: الكثير من العلوم التقنية الصناعية كذلك، فتأملها. الثالث: هل تأملتَ أن المسلمين في عز حضارتهم "الإسلامية" "الإيمانية" وعز قوتهم وتمكنهم في الأرض وتحقيقهم للاستخلاف، لم يهتموا كثيرا بمثل هذه الأشياء، وإنما أعدوا العدة لعدوهم في حدود الاستطاعة المعتادة وفي حدود الاعتدال دونَ مشاقّة أو دخولٍ في عنتٍ شديد، أو حرصٍ دقيقٍ جداً (لأن ذلك غير ممكن مع مطالب العبادة والإيمان....) كما قلتُ، خذ على سبيل المثال زمن الخلفاء الراشدين وبالذات زمن

عمر وزمن عثمان رضي الله عنهما. بل تأمل الزمن والعهد النبويّ الكريم ماذا تجدُ فيه من هذا الباب، لا تجد إلا ما ذكرتُه لك إن شاء الله، أعني من الاعتدال والاقتصاد و"أعدوا لهم ما استطعتم" أي في حدود الاستطاعة المعتادة....إلخ ما شرحتها، فمثلا هل وجدتَ في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والتحية أنه فتح المصانعَ والمشاغل والمعامل وأرسل البعوث من الطلبة لتعلم هذه الفنون واستجلب الخبراء من الأمم مثلا أو ترجم الكتبَ ورصد مراكز البحوث... أو نحو ذلك؟! أعلمُ أنه يمكن أن يُعترَض على هذا ببعض الاعتراضات، وعندي الجواب عليها، ولكن المقام مقام اختصارٍ، وحثّ على التأمل.. وأزيدُك مجالا آخر للتأمل: هل تأملت أن كل من برعوا في جنس هذه الفنون الإنسانية الصناعية والتقنية ممن ينتسب إلى الملة الإسلامية في بعض عصورها المتقدمة (عصر الدولة العباسية) كانوا من قليلي الدين بل لعل أكثرهم ممن رمي بالزندقة والإلحاد، وبعضهم لا شك في كفره وإلحاده..!؟

والمقصود أن الحث على الأخذ بأسباب القوة مقيّدٌ بالمفهوم الذي شرحته، ولا شك أن أسباب الغلبة على العدو والتمكين في الأرض معظمها هو القوة المعنوية: التوحيد وعبادة الله تعالى والإيمان والتقوى والأمانة والعمل الصالح، والتمسك على الجملة بهذا النور والهدى الذي عندنا مما جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم وما يتضمنه من عدلٍ ورحمةٍ وإحسانٍ... وسائر الفضائل البالغة حداً لم تجمعه أمة من الأمم أبداً في التاريخ، ومن أهمها، بعد تقوى الله والوازع الديني، الفضائلُ النفسية المتعلقة بعزة النفس وكرامتها وحريتها وشجاعتها وأنفتها وتنوّرها بحجج الله وبراهينه الدالة على كل خيرٍ....إلخ فمن كان كذلك لم يحتج من الأسباب المادية التقنية إلا "ما استطعتم": أي "اللي قدرتوا عليه بسهولة دون أن نشقّ عليكم كثيرا"، وتكون الغلبة له بإذن الله، ويكون الكفرةُ المهرة في الدنيا المتفرغون لها {وهم عن الآخرة هم غافلون} عبيداً له وخدماً.. والله أعلم، وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله.اهـ

التذكرة السابعة في قوله تعالى: { أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين }.

إن من لوازم محبة الله عز وجل للعبد ونيل الزلفى لديه والحظوة عنده، أن يكون من ذاك النفر المحمود الذي أثنى عليه في كتابه الكريم بقوله: { أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين }، وهذه الآية وغيرها الكثير في كتاب الله في معناها، تبين طبيعة العلاقة التي يجب أن تسود بين المسلم وأخيه، وترسم كذلك معالم العلاقة مع الكافر، وكيف يجب أن تكون.

ومن المعلوم أن الذلة للمؤمنين والعزة على الكافرين، دليل على محبة المؤمنين لله كما قال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم، حيث أنهم لما أحبوا الله أحبوا أولياءه، وتقربوا إليه، وعاملوهم بالمحبة والرحمة والرأفة، وخفض الجناح، وأبغضوا أعداء الله، فعاملوهم بالشدة والغلظة، فإن من تمام المحبة مجاهدة أعداء المحبوب.

قال القرطبي رحمه الله: " أذلة " نعت لقوم، وكذلك "أعزة"، أي يرأفون بالمؤمنين ويرحمونهم ويلينون لهم، من قولهم: دابة ذلول أي تنقاد سهلة، وليس من الذل في شيء ويغلظون على الكافرين ويعادونهم.

قال ابن عباس: هم للمؤمنين كالوالد للولد والسيد للعبد، وهم في الغلظة على الكفار كالسبع على فريسته، قال الله تعالى: " أشداء على الكفار رحماء بينهم".

فائدة: وليس معنى الذلة هنا الهوان، أو كونهم ذليين في أنفسهم، وإنما المقصود بالذلة هنا الشفقة والرحمة على المؤمنين وخفض الجناح لهم، وإنما أتى بلفظ "على" حتى يدل على علو منزلتهم ومكانتهم، وعظيم فضلهم ورفيع شرفهم، ويدل على صحة ذلك قوله: أعزة على الكافرين، يعني أنهم أقوياء في أنفسهم وعلى عدوهم، كما قال صاحب: لباب التأويل في معاني التنزيل.

وقد بلغت عزتهم على الكافرين حتى كانوا كما قال الحسن رضي الله عنه: يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم، وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمنٌ مؤمناً إلا صافحه وعانقه.

فصل: ولما كان الجهاد جهاد أمة، قد اختلفت فيه المشارب والأصول، وتنوعت فيه الثقافات والبيئات، وتباينت فيه الأذواق والأفهام، وحوى بين جنباته العالم والأقل منه علما، وانضوى تحت عباءته الكريمة، أجناس وأعراق مختلفة من البشر، وهو من العبادات الجماعية كما هو معلوم،

كان بذل الذلة للإخوان، وغض الطرف عن المساوئ والأخطاء، والتغاضي عن الهفوات والزلات، أوجب وآكد في حق كل مجاهد نافر يبتغي التمكين لدين الله في الأرض، لأن ذلك يعني استمرار عجلة الجهاد، وإيتاءَهُ لأُكله الطيب المرجو من الله، يقول الشيخ المجاهد عبد الله عزام رحمه الله: فالجهاد يحتاج عزة، يحتاج أعزة وأذلة: أذلة على المؤمنين و أعزة على الكافرين، لأن هذه عبادة جماعية، لا تستطيع أن تجاهد وحدك، لابد أن تعيش مع مجموعة، والمجموعة مختلفة معك، مختلفة في عاداتها، في طبائعها، في طريقة كلامها، في طبيعة نومها، هذا يغط، هذا لا يغط، هذا لقمته كبيرة، هذا لقمته صغيرة... لابد أن تعيش أعمى، أبكم، أصم، لا ترى عيباً، لا ترى إلا الخير.اهـ

وبغير ذلك لن يكون هناك جهاد، وسيتشتت الجمع، وتدب البغضاء والشحناء، ويكون الضياع، ففي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: دب إليكم داء الأمم: الحسد والبغضاء، وهي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكنها تحلق الدين، والذي نفس محمد بيده: لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أخبركم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم.

فالواجب على كل مجاهد، أن يكون هيناً، ليناً، مطواعاً بين يدي إخوانه، باذلاً لهم الذلة والنصح، رؤوفاً بهم، عطوفاً عليهم، وكما جاء في الحديث المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد، وهو كما جاء في الحديث الآخر: إن المؤمن يألف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف. ، وفي معناه روى أحمد في مسنده قال صلى الله عليه وسلم: المؤمن مألفةٌ ولا خير فيما لا يَألفُ ولا يُؤلفُ.

فلا يأنف أحدٌ بعد هذا أن يكون كما أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، وإن أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة يوم القيامة أحسنهم خلقا.

يقول سيد رحمه الله في الظلال: الناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، إلى ود يسعهم وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم.. في حاجة إلى قلب يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويحمل همومهم ولا يعنيهم بهمه، ويجدون عنده دائما الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضا، وهكذا كان قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا كانت حياته مع الناس ما غضب لنفسه قط، ولا ضاق صدره لضعفهم البشري.

التذكرة الثامنة في: فضل المهاجرين السابقين في الهجرة والجهاد.

إن من المعلوم من دين الإسلام أن الله عز وجل قد فاضل بين مخلوقاته، فقد كرَّم سبحانه وتعالى بني آدم على غيرهم فقال: { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا }.

وفاضل بين الأنبياء والرسل فقال: { وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا}، وفاضل بين المجاهد والقاعد فقال: { وَفَضَّلَ الله الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا }، وفاضل بين مسجد وآخر، فأجر الصلاة في مسجد النبي عليه الصلاة والسلام ليس كأجر سواه من المساجد، وأجر الصلاة في المسجد الحرام أكبر كما قال صلى الله عليه وسلم: إن صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام.

وفاضل بين الأيام والأوقات، فأجر صوم يوم عرفة ليس كأجر الصوم فيما سواه من الأيام، كما أخبر صلى الله عليه وسلم بذلك: صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعده. كما فاضل سبحانه وتعالى بين الناس في الدرجات والمنازل، فهناك السابقون في الهجرة والجهاد، والبذل والعطاء وهم المقصودون في حديثنا هذا، وهناك التابعون لهم بإحسان.

هذا ولقد رتب القرآن الكريم منازل المؤمنين ودرجاتهم، فلم يجعلهم في مكانة واحدة، ولا في منزلة متساوية، بل فاضل بينهم، وبيَّن ذلك في كتابه الكريم، حتى لا تختلط الأمور، وتضيع الجهود، وحتى يدرك كل امرء في المجتمع مكانته ومنزلته عند ربه، وحتى يحفظ الناس لكل ذي حق حقه، ولكل ذي منزلة منزلته، ولكل ذي سابقة سابقته، فلا يتعدى حدَّه، ولا يطمع بما لم يحط به.

قال تعالى:{ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأنْهَارُ }[الآية]، وقال: { لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلا وَعَدَ الله الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }.

فهاتان الآيتان فيهما دلالة واضحة على أفضلية السابقين إلى الله، وعظيم منزلتهم، ورفيع درجتهم عند بارئهم، فالسابق إنما هو إمام للتالي، فالسابق في الإسلام و السابق في الهجرة، والسابق

في الجهاد، والسابق في البذل والعطاء، والسابق في التضحية والبلاء، كل هذا يوم أن عزَّ النصير، وقلَّ المعين، وتلاشى المحب الناصح، لا يمكن لمن كان حاله كذلك أن يسوى بغيره من سائر الناس، ولا يمكن أن يسوى كذلك بمن جاء بعدهم، واقتفى أثرهم، وسار على نهجهم، واستن بسنتهم. وكما قال الإمام الرازي في تفسيره: وإنما كان السبق موجباً للفضيلة، لأن إقدامهم على هذه الأفعال يوجب اقتداء غيرهم بهم، فيصير ذلك سبباً للقوة أو الكمال.

قال شيخ الإسلام في معرض حديثه عن الهجرة: والله تعالى يقول: {وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ}. قالت طائفة من السلف: هذا يدخل فيه من آمن وهاجر وجاهد إلى يوم القيامة.

قال شيخنا عطية رحمه الله: ومثله قوله تعالى: {والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان}الآية من سورة الحشر، وهي في بيان مصرف الفيء ويدخل فيها كل من جاء بعد المهاجرين والأنصار من المؤمنين إلى يوم القيامة، كما فسرها سيدنا عمر وعليه الجيمعُ.اهـ

فصل: ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يفاضل بين أصحابه، ويعرف لكل صحابي قدره ومنزلته، وتضحياته التي بذلها نصرة لهذا الدين، وصبره في تبليغ الدعوة الربانية، فكان عليه الصلاة والسلام ينزل كل صحابي منزلته، فيغضب لغضب الصديق أبي بكر رضي الله عنه، ويقول للفاروق عمر، ومن هو عمر رضي الله عنه..؟! كما جاء في البخاري: إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدق، وواساني بنفسه وماله فهل أنتم تاركوا لي صاحبي مرتين، فما أُوذي بعدها. ففي الحديث من الفوائد كما قال الحافظ في الفتح فضل أبي بكر على جميع الصحابة، وأن الفاضل لا ينبغي له أن يغاضب من هو أفضل منه.

ولقد صحَّ في البخاري وغيره أنه صلى الله عليه وسلم قال: لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه.

ذكر أحمد في سبب هذا الحديث: أنه كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام فقال خالد لعبد الرحمن بن عوف تستطيلون بأيام سبقتمونا بها، فبلغنا أن ذلك ذُكر للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: لا تسبوا أصحابي.. الحديث.

ومن المعلوم أن الاثنين رضي الله عنهما من أصحابه الكرام، بل إن خالداً سيف الله المسلول وسيفه صلى الله عليه وسلم، ولكن الأمر عندما يتعلق، بأحد العشرة المبشرين بالجنة، بأهل السبق في الهجرة والجهاد والبذل والعطاء، ممن قاتل وأنفق قبل الفتح، يتبدل الأمر ويغضب النبي الكريم لغضب الخاصة من أصحابه، لا لشيء سوى ما ذكرنا، فضيلة السبق في الإسلام، السبق في الهجرة، السبق في الجهاد، الصبر في تحمل البلاء يوم كان الإسلام غريباً، كل هذا دعا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يقول: لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه.

قال شمس الحق آبادي صاحب عون المعبود: إن المراد بأصحابي أصحاب مخصوصون وهم السابقون على المخاطبين في الإسلام، وقيل نزل الساب منهم لتعاطيه ما لا يليق به من السب منزلة غيرهم، فخاطبه خطاب غير الصحابة، ذكره السيوطي.

ولقد كان عمر رضي الله عنه، وهو من جعل الله الحق على لسانه، لا يساوي في العطاء بين المؤمنين، فقد كان يعطي أهل السبق في الهجرة والجهاد والنصرة أكثر من غيرهم، خلافاً للصديق الأكبر رضي الله عنه الذي ساوى في ذلك.

فقد روى أحمد في مسنده عن مالك بن أوس قال: كان عمر يحلف على أيمان ثلاث: والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد، وما أنا أحق به من أحد، ووالله ما من المسلمين أحدٌ إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبداً مملوكاً، ولكنا على منازلنا من كتاب الله، وقَسْمِنَا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته، ووالله لئن بقيت لهم لأُوتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه.

فائدة لشيخنا عطية الله أكرمه الله:

تحرير مذهب عمر رضي الله عنه في القَسْم (أي لأموال الفيء) هو أنه يفاضل بينهم بحسب المزايا والفضائل، وبحسب أسباب الاستحقاق، والفضائلُ والأسبابُ عنده متعددة ذكرها أو ذكر بعضَها (من باب الاكتفاء) والتي ذكرها هي: البلاءُ الحسنُ، السبقُ، نفعُ الإنسان، حاجةُ الإنسان، هذه الأشياء الأربعة التي ذكرها عمرُ رضي الله عنه على التوالي، وواضحٌ منها أنها ليستْ

كلها من بابِ السبق، ولا كلها فضائل، ولهذا قلتُ في كلامي "المزايا والفضائل وأسباب الاستحقاق"، فإن الحاجة ليستْ فضيلة، ولكنها سببٌ للاستحقاق، فيُقدَّمُ المحتاج على غيره، أي غير المحتاج.اهـ

وفي المسند أيضاً عن عمر أنه قام يوم الجابية يخطب فقال: إن الله عز جل جعلني خازناً لهذا المال وقاسماً له، ثم قال: بل الله قاسمه. وأنا بادئ بأهل النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أشرفهم، ففرض لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف إلا جويرة وصفية وميمونة، فقالت عائشة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعدل بيننا، فعدل بينهن عمر، ثم قال: إني بادئ بأصحابي المهاجرين الأولين، فإنا أُخرجنا من ديارنا ظلماً وعدواناً ثم أشرفهم، ففرض لأصحاب بدر منهم خمسة آلاف، ولمن شهد بدراً من الأنصار أربعة آلاف، وفرض لمن شهد أُحداً ثلاثة آلاف، ثم قال: ومن أسرع في الهجرة أُسرع به في العطاء، ومن أبطأ في الهجرة أُبطئ به في العطاء، فلا يلومن رجل إلا مُناخ راحلته. رواه أحمد.

قال الشوكاني رحمه الله في نيل الأوطار: والأثران فيهما أن عمر كان يفاضل في العطاء على حسب البلاء في الإسلام والقدم فيه والغناء والحاجة، ويفضل من شهد بدراً على غيره ممن لم يشهد، وكذلك من شهد أُحداً ومن تقدم في الهجرة.اهـ

فصل: فإذا عُلم مما تقدم أن كل امرئ وسبقه في الإسلام، وسبقه في الهجرة، وسبقه في الجهاد، وسبقه في البذل والعطاء.. إذا عُلم ذلك فالواجب على كل امرئ أن ينزل الناس منازلهم، كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم: انزلوا الناس منازلهم، قال الحافظ النووي رحمه الله: ومن فوائده: تفاضل الناس في الحقوق على حسب منازلهم ومراتبهم وهذا في بعض الأحكام أو أكثرها.

وأن يحفظ لمن سبقه في الدرب حقه، وأن يعرف له سابقته، وأن ينزله المنزلة التي أنزله الله إياها، ولا يأنف من ذلك فهذا منزلٌ أنزله الله إياه، بصبره وتضحياته وبلائه، وهؤلاء السبَّاقون للخير أقاموا سوق الجهاد حال كساده، وبذلوا لأجله المهج وقدموا الأرواح، يوم أن تراجع عن نصرة الدين من تراجع، ويوم أن قلَّ الناصر، وتلاشى المعين، قال عمر رضي الله عنه: ولكنا على منازلنا من كتاب

الله، وقَسْمِنَا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الشوكاني في معنى ذلك: فيه إشعار بأن التفضيل لم يقع من عمر بمجرد الاجتهاد، وأنه فهم ذلك من الكتاب العزيز والسنة النبوية.

فهؤلاء السابقون في الهجرة والجهاد يُقدَّمون على غيرهم، وتُحفظ لهم أحقيتهم، بل هم سادة المسلمين ورؤساؤهم، وكما روى أشهب عن الإمام مالك: ينبغي أن يقدم أهل الفضل والعزم، وقد قال الله تعالى: " لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل."

فائدة: ذكر الرازي رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: { إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وجاهدوا بأموالهم وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله } أن في هذه الآية أربع صفات أوجبت للمهاجرين السابقين، أن يكونوا سادة المسلمين ورؤساءهم وعظماءهم بلا منازعةٍ من أحد، وأول هذه الصفات: أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقبلوا جميع التكاليف التي بلغها محمد صلى الله عليه وسلم ولم يتمردوا، فقوله: { إِنَّ الذين ءامنوا } يفيد هذا المعنى.

وثانيها: { وَهَاجَرُواْ } يعني: فارقوا الأوطان، وتركوا الأقارب والجيران في طلب مرضاة الله، ومعلوم أن هذه الحالة حالة شديدة، قال تعالى: { أَنِ اقتلوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخرجوا مِن دياركم } جعل مفارقة الأوطان معادلة لقتل النفس، فهؤلاء في المرتبة الأولى تركوا الأديان القديمة لطلب مرضاة الله تعالى، وفي المرتبة الثانية تركوا الأقارب والخلان والأوطان والجيران لمرضاة الله تعالى.

وثالثها: { وجاهدوا بأموالهم وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله } أما المجاهدة بالمال فلأنهم لما فارقوا الأوطان فقد ضاعت دورهم ومساكنهم وضياعهم ومزارعهم، وبقيت في أيدي الأعداء وأيضاً فقد احتاجوا إلى الإنفاق الكثير بسبب تلك العزيمة، وأيضاً كانوا ينفقون أموالهم على تلك الغزوات، وأما المجاهدة بالنفس فلأنهم كانوا أقدموا على محاربة بدر من غير آلة ولا أهبة ولا عدة مع الأعداء الموصوفين بالكثرة والشدة، وذلك يدل على أنهم أزالوا أطماعهم عن الحياة وبذلوا أنفسهم في سبيل الله.

ورابعتها: أنهم كانوا أول الناس إقداماً على هذه الأفعال والتزاماً لهذه الأحوال، ولهذه السابقة أثر عظيم في تقوية الدين قال تعالى: { لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفتح وَقَاتَلَ أولئك أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الذين أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ وَقَاتَلُواْ وَكُلاًّ وَعَدَ الله الحسنى } وقال: { والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ }، وإنما كان

السبق موجباً للفضيلة، لأن إقدامهم على هذه الأفعال يوجب اقتداء غيرهم بهم، فيصير ذلك سبباً للقوة أو الكمال، ولهذا المعنى قال تعالى: { وَمَنْ أحياها فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً }.. ثم قال: فثبت أن حصول هذه الصفات الأربعة للمهاجرين الأولين يدل على غاية الفضيلة ونهاية المنقبة، وأن ذلك يوجب الاعتراف بكونهم رؤساء المسلمين وسادة لهم.

فصل: ومما يجب أن يعلم في هذا المقام، أن الزلات والهفوات والأخطاء التي تقع – وذلك لا بد كائن – من ذوي السبق، لا يعني ذلك بحال من الأحوال أن تكون سبباً في إلغاء تاريخ التضحيات التي قدمها السابق في الهجرة والجهاد، بل هي من السيئات والزلات والعثرات التي تغرق في بحر الحسنات المجيد، وإذا بلغ الماء القلتين لم يحمل الخبث، بل المندوب في ذلك وكما قال عليه الصلاة والسلام: أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا حداً من حدود الله . قال ابن القيم في بدائع الفوائد: هم ذوو الأقدار بين الناس من الجاه والشرف والسؤدد، فإن الله تعالى خصهم بنوع تكريم وتفضيل على بني جنسهم، فمن كان منهم مستوراً مشهوراً بالخير، حتى كبا به جواده، ونبا عضبُ صبره، وأُديل عليه شيطانه، فلا تسارع إلى تأنيبه وعقوبته، بل تقالُ عثرته، ما لم يكن حداً من حدود الله، فإنه ينبغي استيفاؤه من الشريف كما يتعين أخذه من الوضيع.

ويا ترى من أحق من المجاهدين، من أحق من معلمي الناس الخير، من أحق من حاملي لواء هذا الدين، من أحق من دعاة التوحيد في زمن الجاهلية، مَنْ أحقُّ منهم بإقالة العثرة، وستر الزلة، وغض الطرف عن الهفوة.؟!!

قال النووي رحمه الله في شرح حديث: "ومن ستر مسلما ستره الله": وأما الستر المندوب إليه هنا فالمراد به الستر على ذوي الهيئات ونحوهم ممن ليس هو معروفاً بالأذى والفساد.

وأختم هذه التذكرة بكلام نفيس للشيخ الفقيه العالم العامل عبد الله عزام رحمه الله: إن الذي لا يعثر هو الجالس، لأن القاعد في بيته لا يمكن أن يعثر ويقع، إن الذي يعثر ويقع إنما هو الذي يتحرك... هؤلاء الذين يعثرون وهؤلاء الذين يخطئون، ومعلوم أن المؤمن إذا عثر فإن الله يقيل عثراته، وطلب الله منا أن نقيل عثرات ذوي الهيئات في الحديث الصحيح: أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم... ومن هنا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: ولهذا فقد اتفق السلف والخلف على أنه إذا ظهرت محاسن امرئ وانتشر خيره في المجتمع وأمره بالمعروف، فإنه يتغاضى عن زلاته وعن هفواته ما لا

يتغاضى عن الآخرين، لأن الخطأ والذنب خبث، والماء إذا بلغ القلتين لم يحمل الخبث، فإن ذنبه خبث يضيع في بحور حسناته، يضيع في بحور أعماله ومعروفه.اهـ

التذكرة التاسعة في: فضل الأنصار وعظيم منزلتهم.

اعلم أيها المهاجر في سبيل الله طمعاً في رحمته مريداً إعزاز كلمته، وتحكيم شرعته، ورفع لوائه، أن للأنصار الذين أويت إليهم حقاً عظيماً، ودرجةً عاليةً، ومقاماً معلوماً، ومنزلةً رفيعةً قد أنزلهم الله إياها ورسوله، فهم إخوانٌ لمن هاجر إليهم وأولياء، لا يسبقهم المهاجر سوى بفضيلة الهجرة، قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ }. قال ابن كثير رحمه الله: ذكر تعالى أصناف المؤمنين، وقسمهم إلى مهاجرين، خرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا لنصر الله ورسوله، وإقامة دينه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك. وإلى أنصار وهم: المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك، آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم، وواسوهم في أموالهم، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم، فهؤلاء بعضهم أولى ببعض أي: كل منهم أحق بالآخر من كل أحد، ولهذا آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار كل اثنين أخَوَان، فكانوا يتوارثون بذلك إرثًا مقدمًا على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، ثبت ذلك في صحيح البخاري.

والأنصار اسم كريم على الله سماه لمن ينصر رسله وأولياءه، كما ثبت ذلك في البخاري عن غيلان بن جرير أنه سأل أنس: أرأيت اسم الأنصار كنتم تُسمون به أم سماكم الله قال: بل سمانا الله عز وجل.

ولقد دلت الآثار المتواترة على عظيم فضل الأنصار، وسمو مقامهم، وعلو منزلتهم، عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد روى البخاري عن زيد بن عاصم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار، إنكم ستلقون بعد أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض.

قال الخطابي: أراد النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه بهذا الكلام تألف الأنصار واستطابة نفوسهم والثناء عليهم في دينهم، حتى رضي أن يكون واحداً منهم لولا ما يمنعه من الهجرة التي لا يجوز تبديلها، وقال ابن الجوزي: لولا ما سبق من كونه هاجر لانتسب إلى المدينة والى نصرة الدين.

وقوله صلى الله عليه وسلم: ولو سلك الناس وادياً وشعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار. يعني عليه الصلاة والسلام بهذا وما بعده: التنبيه على جزيل ما حصل لهم من ثواب النصرة والقناعة بالله ورسوله عن الدنيا، وفيه أيضاً استعارة لطيفة لفرط قربهم منه، وأنهم بطانته وخاصته وأنهم ألصق به وأقرب إليه من غيرهم، كما ذكر الحافظ في الفتح.

فصل: ولعظيم منزلة الأنصار، وكريم درجتهم وأن حبهم إيمان ودين، وبغضهم والعياذ بالله نفاق، فقد بوب البخاري في صحيحه باب حب الأنصار، وساق حديث أنس عن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام أنه قال: آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار. وأخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد مرفوعاً: لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر. وفي مسند أحمد: حب الأنصار إيمان وبغضهم نفاق.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح بعد أن ذكر أسباب هذه الخصوصية التي خُصُّوا بها دون سواهم: فلهذا جاء التحذير من بغضهم والترغيب في حبهم حتى جعل ذلك آية الإيمان والنفاق، تنويهاً بعظيم فضلهم، وتنبيهاً على كريم فعلهم، وإن كان من شاركهم في معنى ذلك مشاركاً لهم في الفضل المذكور كلٌّ بقسطه.

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى: فإن من علم ما قامت به الأنصار من نصر الله ورسوله من أول الأمر، وكان محباً لله ولرسوله، أحبهم قطعاً فيكون حبه لهم علامة الإيمان الذي في قلبه، ومن أبغضهم لم يكن في قلبه الإيمان الذي أوجبه الله عليه.

تنبيه مهم: ولا يغيبنَّ عن بالك أيها المهاجر رغبةً في نصرة دين الله أن جهادنا قائمٌ بالدرجة الأولى بعد توفيق الله على هؤلاء الأنصار فهم السند الحقيقي للجهاد، وهم الوقود الدافع لعجلة مسيرته، فالإحسان إليهم واجب شرعي وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب قال شيخنا أبو المنذر سالم الطرابلسي المالكي تقبله الله: من الواجب على كل مجاهد أن يُحسن علاقته مع الأنصار

لأن فضل ذلك لا شك يعود على الجهاد، فأي شيء يقربنا إليهم الواجب على المهاجرين فعله، والجهاد لا يتم إلا بالأنصار، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، واعلم أن الإساءة إليهم إنما هي في الحقيقة إساءة الى الجهاد، وهذا ما يسعى إليه أعداء الجهاد كما صرحوا بذلك.اهـ

فصل: اعلم أيها المهاجر إلى الله أن هؤلاء الأنصار، الذين نَزلتَ عليهم وأويت إليهم، رغبةً في نصرة هذا الدين، وطمعاً في الجهاد في سبيله، هم بلا شك امتداد لتلك العصبة الربانية التي نصرت رسول الله الهدى صلى الله عليه وسلم وأصحابه المهاجرين أول مرة، وهؤلاء هم ممن قال الله فيهم بعد ذكر الأوليين من المهاجرين والأنصار: { وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ }، فإن بان لك عظيم حرمتهم، وكريم درجتهم، وفضيل منزلتهم، فاحرص على أن تقبل من محسنهم، و تتجاوز عن مسيئهم، وتقيل عثراتهم، وتعفوا عن زلاتهم، وتتواصى بهم خيراً، فقد وصى الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم بذلك وأمر، فقد صح عنه أنه قال: فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم.

قال الشيخ أبو محمد المقدسي في رسالته الثلاثينية بعد أن ذكر بعضاً من أحاديث مناقب الأنصار ووصية النبي عليه الصلاة والسلام فيهم: فأنصار الدين الذين هم من أهل الطائفة القائمة بدين الله، الذين يفنون أعمارهم ويبذلون مهجهم في نصرة دين الله وتوحيده، لهم نصيب من هذه الوصية النبوية في كل زمان.. فلتحفظ وصيته صلى الله عليه وسلم فيهم.اهـ

واعلم أن من الإحسان إليهم – أي إلى الأنصار –إكبارهم وإنزالهم منازلهم التي يستحقونها، والبَشُّ في وجوههم، وتقدير فعالهم الجليلة في نصرة الإسلام وأهله، وتوقيرهم وإكرامهم فهم أهل ذلك وزيادة.

ومن الإحسان إليهم أيضاً التودد في دعوتهم والتدرج في ذلك، وملاطفتهم وخفض الجناح لهم، واللين بين أيديهم بما يرضي الله، وعدم المبالغة في الإنكار عليهم وخاصة في المسائل التي يسوغ فيها الخلاف، قال شيخ الإسلام رحمه الله في الفتاوى الكبرى: وأما إذا لم يكن في المسألة سنة ولا إجماع، وللاجتهاد فيها مساغ، فلا ينكر على من عمل بها مجتهداً أو مقلداً، وإنما دخل هذا اللبس من جهة أن القائل يعتقد أن مسائل الخلاف هي مسائل الاجتهاد، كما اعتقد ذلك طوائف من

الناس، والصواب الذي عليه الأئمة أن مسائل الاجتهاد ما لم يكن فيها دليل يجب العمل به وجوباً ظاهراً مثل حديث صحيح لا معارض له من جنسه فيسوغ له الاجتهاد لتعارض الأدلة المقاربة، أو لخفاء الأدلة فيها.

وقال الحافظ ابن قدامة المقدسي: لا ينبغي لأحد أن ينكر على غيره العمل بمذهبه، فإنه لا إنكار على المجتهدات.

والقصد مما تقدم ذكره بيان حق الأنصار، وتعظيم درجتهم، وإظهار منزلتهم، حتى لا يستخف بهم من لا يعلم حقهم، ويجحد عظيم تضحياتهم ممن لا يدرك حقيقة فِعالهم، وليكن كل مهاجر إلى الله قدوة في الخير، وعنوان محبة مع من آواه ونصره وفتح ذراعيه مرحباً يوم أن تخاذل من تخاذل عن نصرة دين الله، وليعلم أنه كما قال شيخ الإسلام في رسالته إلى عامة المسلمين يحثهم فيها على محاربة التتار: إن من أعظم النعم على من أراد الله به خيراً أن أحياه إلى هذا الوقت الذي يجدد فيه الدين، ويحيي فيه شعار المسلمين، وأحوال المؤمنين المجاهدين، حتى يكون شبيها بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، فمن قام في هذا الوقت بذلك: كان من التابعين لهم بإحسان الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم.

التذكرة العاشرة في قوله تعالى: { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }.

إن من أعظم أعمال البر في هذا الدين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو طاعة وعبادة عظيمة يتقرب بها العبد إلى ربه، وهو أصلٌ أصيل في دين الله، لا تستقيم شجرة هذا الدين بدونه، وهو كما قال ابن العربي المالكي: هو أصل الدين وخلافة المسلمين، وكما قال الإمام الغزالي في الإحياء: هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قديم قدم الأمم فلم تخلُ أمة منه. يقول القرطبي في تفسيره: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان واجباً في الأمم المتقدمة وهما فائدة الرسالة وخلافة النبوة.

ولم يرسل رسول إلا أمر به كما قال ابن القيم في الطرق الحكمية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، ووصف به هذه الأمة، وفضلها لأجله على سائر الأمم التي أُخرجت للناس.

وهو في ديننا الحنيف واجب كما دلت على ذلك النصوص من الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وقد نقل هذا الإجماع غير واحد من الأئمة رحمهم الله، فقد ذكره النووي في شرح مسلم، والقرطبي في أحكام القرآن، وكذلك الجصاص في أحكام القرآن.

قال تعالى: { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }، وقال عز من قائل: { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ }، وقال أيضاً: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ }.

فهذه الآيات بمجموعها وغيرها الكثير في كتاب الله توجب على كل مسلم أن يكون أماراً بالمعروف نهاءً عن المنكر كلٌ بحسب قدرته، وسلطته، واستطاعته. قال الزجاج في معنى الآية الأخيرة: معنى الكلام: ولتكونوا كلكم أمة تدعون إلى الخير، وتأمرون بالمعروف . وقال ابن العربي المالكي في أحكام القرآن: في هذه الآية دليل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض يقوم به المسلم، وإن لم يكن عدلاً، خلافاً للمبتدعة الذين يشترطون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر العدالة.اهـ

وأما الأخبار الدالة على وجوبه فهي كثيرة منها: قوله صلى الله عليه وسلم كما في صحيح مسلم وغيره: من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطيع فبلسانه، فإن لم يستطيع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.

قال أبو الفضل عياض رحمه الله: هذا الحديث أصلٌ في صفة التغيير فحق المغيِّر أن يُغيِّرَه بكل وجه أمكن زواله به، قولاً كان أو فعلاً، فيكسر آلات الباطل، أو يريق المسكر بنفسه، أو يأمر من يفعله، وينزع المغصوب ويردها إلى أصحابها بنفسه أو بأمره إذا أمكنه.

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين: إياكم والجلوس في الطرقات فقالوا: يا رسول الله، ما لنا بد من مجالسنا، نتحدث فيها، قال: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه قالوا: ما حقه ؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما أقوال السلف في وجوبه وأهميته وعظم مكانته في هذا الدين فهي من الكثرة بمكان أن تحصى وتسرد:

قال القاضي أبو بكر بن العربي المالكي رحمه الله: والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصلٌ في الدين وعمدة من عمد المسلمين وخلافة رب العالمين، والمقصود الأكبر من فائدة بعث النبيين، وهو فرض على جميع الناس مثنى وفرادى بشرط القدرة والأمن.

وقال أبو بكر الجصاص في أحكام القرآن: أكد الله تعالى فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مواضع من كتابه، وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أخبار متواترة عنه فيه، وأجمع عليه السلف وفقهاء الأمصار على وجوبه، وإن كان قد تعرض أحوال من التقية يسع معها السكوت.

فصل: أما ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو ضياع الدين، وانتشار المنكر، وعلو الباطل، وسحق البركة من الأرض، وحاجب يحول بين استجابة الدعاء، والإذن بالدمار والخراب، ولا خير في قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن منكر وجدوه.

قال تعالى حاكياً شأن علماء بني إسرائيل: { لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ }. ففي هذه الآية توبيخ شديد لمن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليس هناك في القرآن كما قال ابن عباس أشد توبيخاً من هذه الآية. وهي دليلٌ على أن تارك النهي عن المنكر كمرتكب المنكر، فالآية توبيخ للعلماء في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقال سبحانه وتعالى: { لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ }.

قال ابن كثير رحمه الله: أي كان لا ينهى أحدٌ منهم أحدًا عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك، ليحذر أن يرتكب مثل الذي ارتكبوه فقال: لبئس ما كانوا يفعلون.

وقال القرطبي في تفسيره قال ابن عطية رحمه الله: والإجماع منعقد على أن النهي عن المنكر فرض لمن أطاقه وأمن الضرر على نفسه وعلى المسلمين فإن خاف فينكر بقلبه ويهجر ذا المنكر ولا يخالطه.

والأخبار في ذم وتوبيخ تارك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة منها ما رواه مسلم عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: أنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون فمن كره فقد بريء، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع قالوا: يا رسول الله ألا نقاتلهم ؟ قال: لا، ما أقاموا فيكم الصلاة.

قال النووي رحمه الله معناه: من كره بقلبه ولم يستطع إنكاراً بيدٍ ولا لسانٍ فقد برئ من الإثم، وأدى وظيفته، ومن أنكر بحسب طاقته فقد سلم من هذه المعصية، ومن رضي بفعلهم وتابعهم، فهو العاصي.

وروى الترمذي عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم.

قال صاحب تحفة الأحوذي المباركفوري رحمه الله: والمعنى والله أعلم أن أحد الأمرين واقع إما الأمر والنهي منكم، وإما إنزال العذاب من ربكم، ثم عدم استجابة الدعاء له في دفعه عنكم، بحيث لا يجتمعان ولا يرتفعان فإن كان الأمر والنهي لم يكن عذاب، وإن لم يكونا كان عذابٌ عظيم.

مما سبق ذكره وبيانه يتبين أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ركن ركين في هذا الدين، وأصلٌ أصيل في شرعة المسلمين، فمن قام به على وجهه الصحيح فاز ونجا، ومن تخلف ونأى بنفسه عن هذه الفريضة فقد باء بالخسران المبين، أعاذنا الله والمسلمين.

فصل: واعلم أن للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر شروطاً يجب أن تتوفر فيه وهي كما ذكر ابن النحاس في تنبيه الغافلين: الإسلام، والتكليف، والاستطاعة، واختلف في العدالة، وإذن الإمام.

أما العدالة فقد دفعها غير واحد من أئمة السلف قال النووي رحمه الله: قال العلماء: لا يشترط في الآمر والناهي أن يكون كامل الحال ممتثلاً ما يأمر به، مجتنباً ما ينهى عنه، بل عليه الأمر وإن كان مخلاً بما يأمر به، وإن كان متلبساً بما ينهى عنه، فإنه يجب عليه شيئان: أن يأمر نفسه وينهاها، وأن يأمر غيره وينهاه، فإذا أخل بأحدهما كيف يحل له الإخلال بالآخر.

وأما إذن الإمام فقال فيه النووي أيضاً: قال العلماء: ولا يختص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأصحاب الولايات، بل ذلك جائز لآحاد المسلمين. قال إمام الحرمين: والدليل عليه إجماع المسلمين.

فصل: وينبغي لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون عالماً بما يأمر، عالماً بما ينهى عنه، بصيراً بعلوم الدين، فالجاهل لا ينبغي له أن يتكلم في دين الله من غير علم،{ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إلى الله عَلَى بَصِيرَةٍ }، فلا بد من البصيرة والمعرفة بما يدعو إليه، وينهى عنه، وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: والقيام بالوجبات من الدعوة الواجبة وغيرها يحتاج إلى شروط يقام بها كما جاء في الحديث: ينبغي لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن يكون فقيهاً فيما يأمر به فقيهاً فيما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به حليماً فيما ينهى عنه. فالفقه قبل الأمر ليعرف المعروف وينكر المنكر، والرفق عند الأمر ليسلك أقرب الطرق إلى تحصيل المقصود، والحلم بعد الأمر ليصبر على أذى المأمور المنهي فإنه كثيراً ما يحصل له الأذى بذلك.

فصل: ومما يجب أن يعلمه الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، أن هذه العبادة تتطلب الإخلاص، والفرار من السمعة والرياء، فالقائم بهذه الوظيفة الربانية عليه أن يتفطن لهذا الأمر، وينتبه لنفسه فيصدق الطوية، ويخلص النية، ويقصد بعمله رب البرية قال ملا علي القاري: من أهم شروط

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون صاحبه مخلصاً في فعله، طالبا إظهار دين الله وإعلاء كلمته وإطاعة أمره في بريته، دون الرياء والسمعة والحمية لنفسه وطبيعته، فإنما ينصر ويزول به المنكر إذا كان صادقا في مقام الإخلاص قال الله تعالى: { إِنْ تَنْصُرُوا الله يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ }.

فصل: اعلم أيها الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن: الأمرُ والنهي يكون فيما ثبت بدليل قويّ لا معارض له، ويشمل أيضاً مسائل الخلاف إذا كان الخلاف ضعيفاً جداً أو شاذاً، وقولهم "لا إنكار في مسائل الخلاف" معناه: الخلاف المعتبر، دون الشاذّ.

وأكثر المحققين على أنه لا إنكار في مسائل الفروع كما قال النووي رحمه الله، وإنما الأصل فيها المناصحة والبيان لمن قدر على ذلك من أهل العلم، قال الغزالي رحمه الله في الإحياء في شروط الحسبة: أن يكون كونه منكرًا معلوما بغير اجتهاد، فكل ما هو محل الاجتهاد فلا حسبة فيه.

وقال النووي رحمه الله في الروضة: ثم إن العلماء إنما ينكرون ما أجمع على إنكاره، أما المختلف فيه فلا إنكار فيه، لأن كل مجتهد مصيب، أو المصيب واحد ولا نعلمه، ولم يزل الخلاف بين الصحابة والتابعين في الفروع ولا ينكر أحد على غيره وإنما ينكرون ما خالف نصاً أو إجماعاً أو قياساً جلياً.

فتنبه أيها المهاجر إلى الله لذلك، وكن على بينة من أمرك، والزم ما قد علمت، فربما ساقتك الأقدار لتنزل على قوم هم على مذهبٍ غير مذهبك الفقهيّ، وهذا حاصل في كثير من مواطن الجهاد في هذا الزمان، فانظر وتأمل وتثبّت قبل الإقدام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واعرف مذاهب الناس، لتميّز بين ما هو معتبَرٌ من المسائل والأقوال والخلاف وما ليس كذلك، واستعمل اللين والحكمة في دعوتك، ولا تكن غليظاً فينفض الجمع عنك، فلا تجد نفسك إلا وحيداً، قد جفاك القريب منهم والبعيد، وتذكر دائماً أن الإنكارَ –كما قرر أهل العلم– هو في الأمور المنصوص على حرمتها وليس في الأمور التي يسَعُ فيها الخلاف، كما روى أبو نعيم بسنده عن سفيان الثوري قوله: إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي اختلف فيه وأنت ترى غيره فلا تنهه.

وإن كان ولا بد من الإنكار وفي جميع الحالات، فعلى وجهِ البيان والنصح، وباللين والحكمة والأناة. قال الإمام أحمد رحمه الله: الناس يحتاجون إلى مُداراة ورفق في الأمر بالمعروف وبلا

غلظة، إلا رجلا مبايناً، معلناً بالفسق والرَّدى، فيجب عليك نهيهُ وإعلامه، لأنه يقال: ليس لفاسقٍ حرمة، فهذا لا حرمة له.

فصل: وإن ترتب على إنكار المنكر منكرٌ أعظم منه، ومفسدة أكبر، سقط فرض الإنكار وغدا الواجب في هذه الحالة ترك الإنكار لإجماع المسلمين على وجوب ارتكاب أخف الضررين عند تعيّن ارتكاب أحدهما، ودليل ذلك ما روى البخاري في صحيحه عن ابن الزبير عن عائشة رضي الله عنها: قال صلى الله عليه وسلم: يا عائشة، لولا قومك حديث عهدهم بكفر لنقضت الكعبة وجعلت لها بابين: باب يدخل الناس، وباب يخرجون.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح: يستفاد منه ترك المصلحة، لأمن الوقوع في المفسدة، وترك إنكار المنكر خشية الوقوع في أنكر منه.

وقال المهلب: فيه أنه قد يترك شيئًا من الأمر بالمعروف إذا خشي منه أن يكون سببًا لفتنة قوم ينكرونه ويسرعون إلى خلافه واستبشاعه.

وقال ابن القيم رحمه الله تحت عنوان إنكار المنكر وشروطه: إن النبي صلى الله عليه وسلم شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله... وأضاف رحمه الله: ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل، وعدم الصبر على منكر، فطلب إزالته فتولد منه ما هو أكبر منه، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها، بل لما فتح الله مكة وصارت دار إسلام عَزَمَ على تغيير البيت ورده على قواعد إبراهيم، ومنَعه من ذلك – مع قدرته عليه – خشية وقوع ما هو أعظم منه، من عدم احتمال قريش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام، وكونهم حديثي عهد بكفر.

فانظر كيف ترك النبي الكريم صلى الله عليه وسلم هدم الكعبة، وردها على قواعد إبراهيم خشية وقوع ما لا يطاق من المفسدة، ومن هنا يجب أن تراعى أحوال الناس وأفهامهم، ومدى إدراكهم وأن يخاطبوا بما يعقلون، وتراعى أيضاً مذاهبهم وما اعتادوا عليه من مذهبٍ وطريقةٍ مادامت في نطاق الاجتهاد الشرعي حتى لا يكذب الداعي إلى الخير، وتجد مصداق ذلك فيما روى مسلم

عن عبد الله بن مسعود قال: ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لم تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة. وروى مسلم في صحيحه أيضاً عن سفيان بن حسين قال: سألني إياس بن معاوية فقال: إني أراك قد كلفت بعلم القرآن فاقرأ علي سورة وفسر حتى أنظر فيما علمت قال: ففعلت فقال لي: احفظ علي ما أقول لك، إياك والشناعة في الحديث فإنه قلما حملها أحد إلا ذلَّ في نفسه وكُذب في حديثه.

قال النووي رحمه الله: معنى كلامه أنه حذره أن يحدث بالأحاديث المنكرة التي يشنع على صاحبها، وينكر ويقبح حال صاحبها فَيُكَذب أو يستراب في رواياته، فتسقط منزلته ويذل في نفسه.

فالواجب على من يأمر أو ينهى أن يخاطب الناس بما يعقلون، وعلى قدر ما يستوعبون، ولا يكلفهم من الفهم والعمل ما لا يطيقون، وأن يتحين الوقت والفرصة المناسبة في تبليغ ما أراد ورغب، إن أمِنَ أن لا يجر ذلك إلى مفسدة أعظم والله ولي التوفيق والهادي إلى سواء السبيل.

التذكرة الحادية عشر في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ }.

إن تحقق نصر الله عز وجل لعباده المؤمنين المجاهدين في سبيله متوقف أمر نفاذه على نصرة العبد لربه، والقيام بواجباته التي أمره الله بها، وتحقيقها واقعاً حياً معاشاً في دنيا البشر، وتتمثل هذه النصرة المطلوبة من العبد، بنصرة عباده الموحدين، والقيام بحفظ حدوده ورعاية عهوده، واعتناق أحكامه، واجتناب نواهيه كما قال الأصفهاني رحمه الله في غريب القرآن.

واعلم أيضاً أن من النصرة المطلوبة من العبد لربه حتى يتنزل عليه النصر أن يجتنب المعاصي، وينتهي عن السيئات، ويسارع في الخيرات، ويتقرب إلى الله بعمل الطيبات، ويداوم على الاستغفار من الزلات، ويبادر إلى التوبة والندامة من الأخطاء والعثرات حتى يرضى رب الأرض والسماوات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقد دل القرآن على أن القوة والعزة لأهل الطاعة التائبين إلى الله في مواضع كثيرة كقوله تعالى في سورة هود: { وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ }.

ومن النصرة المطلوبة من العبد لربه حتى يتنزل عليه النصر، أن يخلص عمله لله عز وجل، ويصدق الطوية، ويستقيم على أمره، ويتبرأ من حوله وقوته، ويجأر إليه بالدعاء، ويذل بين يديه حتى يرضى جبار السماء، وأن يعزم أن يكون غاية جهاده تحكيم شرعه، وإقامة حكمه، وإعلاء كلمته، ونصر أوليائه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة العدل في الأرض.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وكل من عرف سير الناس وملوكهم رأى كل من كان أنصر لدين الإسلام وأعظم جهاداً لأعدائه وأقوم بطاعة الله ورسوله: أعظم نصرةً وطاعةً وحُرمةً: من عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وإلى الآن.

ومن النصرة المطلوبة من العبد حتى يتحقق النصر، أن يسمع ويطيع لمن ولاه الله أمر قيادته، ويلتزم بما عهد إليه من أوامر ونواهي، ولا يجتهد فيما لم يؤمر به، فقد تخلف النصر عن أفضل الخلق نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام في أحد، بعد أن أظفرهم الله بعدوهم وأظهرهم عليهم في بادئ الأمرِ، بمعصية الرماة إمامهم وقائدهم صلى الله عليه وسلم، ونزولهم عن الجبل طمعاً في الغنيمة، فكانت النتيجة كما قص علينا القرآن الكريم: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمْ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: قال العلماء: وكان في قصة أُحد وما أُصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحِكم الربانية أشياء عظيمة: منه تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية وشؤم ارتكاب النهي، لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول أن لا يبرحوا منه.

ومن النصرة المطلوبة من العبد حتى يحوز الظفر، أن يتجرد من حوله وقوته، ويرمي بهما بين يدي ربه، ويسلم ناصيته لخالقه، ويبرأ إلى الله من عدته وعتاده، ويتيقن أن النصر إنما هو من عند الله، وأن القوة كل القوة بيده سبحانه وتعالى، وإنما هي أسباب يتخذها المجاهد امتثالاً لأمر الله، وتحقيقاً للسنن الكونية التي أودعها الله هذا الكون، فلا مقام للفخر ولا مكان للعجب في تلك النفوس التي وعد الله بنصرها، والنتيجة خلاف ذلك هو ما أصاب الفئة المؤمنة في حنين عندما قالت: لن نغلب اليوم من قلة، فكانت النتيجة المبدئية للغزوة المباركة، تخلف النصر ولو لحين، وذلك

حتى تنقطع آمال القوم إلا من حبل الله المتين، الذي ما إن تمسك به المؤمن فلن يذل أو يُغلب، ولقد أنزل الله عز وجل قرآناً يتلى إلى يوم القيامة لتكون تلك الحادثة عبرة وعظة لكل من حمل همَّ هذا الدين قال تعالى: { وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ }.

قال القرطبي رحمه الله: قال بعضهم: لن نغلب اليوم عن قلة، فوكلوا إلى هذه الكلمة، فكان ما ذكرناه من الهزيمة في الابتداء إلى أن تراجعوا، فكان النصر والظفر للمسلمين ببركة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، فبين الله عز وجل في هذه الآية أن الغلبة إنما تكون بنصر الله لا بالكثرة وقد قال: "وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده".

ومن النصرة المطلوبة من العبد حتى ينعم بالنصرة الإلهية، أن يعد العدة، ويأخذ الأهبة، وأن يستعد بما قد منحه الله من أسباب ترجى لاستيفاء النصر، وأن يتجهز بما قدر عليه من عدة وعتاد، وأن يتوكل على الله بعد استفراغ الجهد في الإعداد والاستعداد، ولا يتواكل فهذا مَظِنة الهزيمة ولا شك إلا أن يشاء الله.

قال تعالى: { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ }.

وروى مسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي إلا أن القوة الرمي.

قال الجصاص رحمه الله في أحكام القرآن: ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم: " ألا إن القوة الرمي"، أنه من معظم ما يجب إعداده من القوة على قتال العدو، ولم ينف به أن يكون غيره من القوة بل عموم اللفظ الشامل لجميع ما يستعان به على العدو ومن سائر أنواع السلاح وآلات الحرب، ثم ساق بسنده إلى الحكم بن عمير رضي الله عنه قال: (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نحفي الأظفار في الجهاد وقال: إن القوة في الأظفار، وهذا يدل على أن جميع ما يقوي على العدو فهو مأمور باستعداده، وقال الله تعالى: "ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة " فذمهم على ترك الاستعداد والتقدم قبل لقاء العدو.

ومن النصرة المطلوبة من العبد لربه حتى يحوز الظفر، وينعم بالغلبة، أن يجأر إليه بالدعاء، ويتذلل إليه بالطلب، ويبتهل إليه بالذكر، ونجد مصداق ذلك في تضرع معلم الناس الخير وهاديهم إلى الصواب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في بدر، فقد ناشد ربه وألح عليه بالطلب، حتى أشفق على حاله صاحبه الصديق رضوان الله عليه، وقال له حسبك يا رسول الله، فقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو في قبة في بدر: اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم. فأخذ أبو بكر بيده فقال حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك، وهو يثب في الدرع، فخرج وهو يقول: سيهزم الجمع ويولون الدبر. بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر.

فالدعاء لا شك مفتاح من مفاتيح النصر، وسبب أكيد لتنزل النصر، وهو سلاح المؤمن في مواجهة أسلحة الجاهلية، فعلى كل مجاهد أن يلزم غرزه، ويستمسك به فلا حائل بينه وبين ربه.

وهذه جملة طيبة من كلام الشيخ أبي قتادة الفلسطيني فك الله أسره فيها معانٍ كثيرة حريٌ بكل عامل لهذا الدين أن يتدبرها ويعيها، وقد جاءت في معرض حديثه عن قوله تعالى: إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا. وهي مقتطفة من مقالاته "بين منهجين" يقول فك الله أسره: وها هنا لا بد من أمرٍ نذكره وهو أن هذه المعاصي (أسباب الهزيمة) لا بد أن يكون لها من ارتباط سننيٍّ مع الهزيمة، أي أنها ليست مطلقَ المعاصي والذنوب لكنها المعاصي التي لها علاقة في الحرب والقتال مثل: ترك التدريب، والإعراض عن الجماعة، وعصيان الأمير، وترك الأخذ بالسنة القدرية كعدم تعيين صاحب الأمر المفيد في بابه، وهذا لا يعني التقليل من شأن الذنوب الأخرى لكن تأثيرها على نتيجة المعركة تأثير غير مباشر بخلاف الذنوب التي لها علاقة مباشرة بعملية الجهاد والقتال، ولذلك من إبعاد النّجعة حين نبحث عن أسباب الهزيمة في معركة من المعارك وموقع من المواقع أن نذهب فنعدد معصية عدم صلة الرحم، أو معصية أكل مال اليتيم كأسباب لحصول الهزيمة ونترك الأسباب المباشرة لحصول الهزيمة، فلا بد أن ننتبه إلى العلاقة القدرية بين السبب والمسبب، بين العمل والنتيجة، بين الذنب والهزيمة.اهـ

وبهذا الذي يسر الله ذكره وبيانه نختم هذه التذكرة، ونبتهل إلى الله أن ييسر لنا أمرنا ويهدينا سواء السبيل، وينعم علينا بجزيل فضله وييسر لنا تحقيق هذه الشروط، حتى تتحقق النصرة الإلهية لحملة هذا الدين، ويمضي حملة الراية إلى الغاية المرجوة بإقامة خلافة الله في الأرض.

التذكرة الثانية عشر في قوله تعالى: { وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ..}

اعلم علمني الله وإياك أن الشُّورى قبل إبرام الأمر فضيلة نبيلة، وشيمة كريمة، وديدن الفضلاء، وعلامة العقلاء، وهي كما قال ابن العربي المالكي في أحكام القرآن: أُلفة للجماعة، ومسبار للعقول، وسبب إلى الصواب، وما تشاور قوم إلا هدوا.اهـ

وهي أيضاً كما قال الإمام الطرطوشي المالكي رحمه الله: مما تعده الحكماء من أساس المملكة، وقواعد السلطنة، ويفتقر إليها الرئيس والمرؤوس. قال ابن الأزرق: هو كذلك في الشريعة حرفاً بحرف.

والشورى قديمةٌ قِدم الأمم، فهذه بلقيس تستشير أهل الرأي والسداد، وأولي الأفهام، وأرباب العقول لتستجمع قواها وتستعين بآرائهم على ما ستقدم عليه، ليكون لها بذلك السداد والرشد في الأمر: { قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ }.

ولمنزلة الشورى العظيمة فقد ذكرها عز وجل مع الإيمان والصلاة قال الإمام الجصاص في أحكام القرآن:{ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ } يدل على جلالة موقع المشورة لذكره لها مع الإيمان وإقامة الصلاة، ويدل على أننا مأمورون بها.

وقد أثنى العلي القدير في كتابه الكريم على الذين إذا وقعت بينهم واقعة تشاوروا فيما بينهم، ولم ينفرد أحدهم برأي مهما كان حصيفاً دون المشاورة، وذلك لأن الإحاطة بجميع العلوم والفنون متعذرة ولا تقع لأحد قال تعالى: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ..}، قال ابن كثير: لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بآرائهم فيه مثل الحروب وما جرى مجراها. وقال القرطبي رحمه الله: وقد مدح الله تعالى الفضلاء بقوله: " وأمرهم شورى بينهم ". وقال ابن العربي المالكي: أي لا يستبدون بأمر ويتهمون رأيهم، حتى يستعينوا بغيرهم، ممن يظن به أن عنده مدركاً لغرضه، وقال: وهذه سيرة أولية، وسنة نبوية، وخصلة عند جميع الأمم مرضية.

فصل: اختلف السلف رحمهم الله في حكم الشورى هل هي من باب الوجوب أو من باب الندب على قولين:

القول الأول: الوجوب: قال ابن خويز منداد من المالكية: واجب على الولاة المشاورة، فيُشاورون العلماء فيما يشكل من أمور الدين، ويشاورون وجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ويشاورون وجوه الناس فيما يتعلق بمصالحهم ويشاورون وجوه الكتاب والعمال والوزراء فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها.

وأشار ابن العربي المالكي إلى وجوبها بأنها سبب للصواب فقال: والشورى مِسبار العقل وسبب الصواب. يشير إلى أننا مأمورون بتحري الصواب في مصالح الأمة، وما يتوقّف عليه الواجب فهو واجب.

ولم ينسب العلماء للحنفية قولاً في هذا الأمر إلا أن الجصاص قال في كتابه أحكام القرآن عند قوله تعالى: { وأمرهم شورى بينهم }: هذا يدل على جلالة وقع المشُورة لذكرها مع الإيمان وإقامة الصلاة ويدل على أننا مأمورون بها، ومجموع كلام الجصاص يدل أن مذهب أبي حنيفة وجوبها.

القول الثاني: الندب: قال الإمام الشافعي رحمه الله: إن هذا الأمر للاستحباب، ولتقتدي به الأمة، وهو عام للرسول وغيره، وتطييباً لنفوس أصحابه ورفعاً لأقدارهم، وروى مثله عن قتادة، والربيع، وابن إسحاق.

وقال النووي رحمه الله في صدر كتاب الصلاة شرح حديث " بدء الأذان": وفيه التشاور في الأمور لاسيما المهمة وذلك مستحب في حق الأمة بإجماع العلماء.

وقال ابن بطال في شرح حديث جبير بن حية في باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب: وفى هذا الحديث من الفقه: أن المشاورة سنة لا يستغنى عنها أحد، ولو استغنى عنها لكان النبي صلى الله عليه وسلم أغنى الناس عنها، لأن جبريل كان يأتيه بصواب الرأي من السماء.

وذكر ابن القيم استحبابها أيضاً فقال في فصل بعض ما في قصة الحديبية من الفوائد الفقهية ومنها: استحباب مشورة الإمام رعيته وجيشه استخراجاً لوجه الرأي واستطابةً لنفوسهم وأمناً لعتبهم وتعرفاً لمصلحة يختص بعلمها بعضهم دون بعض، وامتثالاً لأمر الرب في قوله تعالى: { وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ } وقد مدح سبحانه وتعالى عباده بقوله: { وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ }.

فصل: ومما ينبغي أن يعلم في هذا المقام، أن الشورى سواء كانت واجبة أم مندوبة غير ملزمة للمُشاور، فالمشاور على الخيار منها، إن شاء أخذ بها، وإن شاء تركها، وذلك في الأمور الاجتهادية التي لم يتبين له فيها وجه الحق، فإن تبين له الصواب في أمرٍ وجب عليه العملُ به كما نص على ذلك أهل العلم.

قال الإمام النووي رحمه الله في صدر كتاب الصلاة شرح حديث " بدء الأذان": وفيه ينبغي للمتشاورين أن يقول كل منهم ما عنده، ثم صاحب الأمر يفعل ما ظهرت له مصلحة والله أعلم.

وقال ابن بطال في باب قوله عز وجل وأمرهم شورى بينهم: وفيه من الفقه: أن للمستشير والحاكم أن يعزم من الحكم على غير ما قال به مشاوره إذا كان من أهل الرسوخ في العلم، وأن يأخذ بما يراه كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في مسألة عائشة فإنه شاور عليًا وأسامة، فأشار عليه أسامة بإمساكها، وأشار عليه علي بفراقها، فلم يأخذ بقول أحدهما وتركها عند أهلها حتى نزل القرآن فأخذ به، وكذلك فعل أبو بكر الصديق فإنه شاور أصحابه في مقاتلة من منع الزكاة، وأخذ بخلاف ما أشاروا به عليه من ترك قتالهم لما كان عنده متضحًا من قول النبي صلى الله عليه وسلم: إلا بحقها.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: وإنما يؤمر الحاكم بالمشورة لأن المشير ينبهه لما يغفل عنه ويدله من الأخبار على ما لعله أن يجهله، فأما أن يقلد مشيراً فلم يجعل الله هذا لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد أجاد الشيخ أبو محمد المقدسي فك الله أسره في كتابه القيم الذي هدم فيه وثن الديمقراطيين "الديمقراطية دين" عندما قال: وشاورهم في الأمر فإذا عزمتَ فتوكل على الله. ومعنى الآية واضحٌ صريح، لا يحتاج إلى تفسير، ولا يحتمل التأويل، فهو أمرٌ للرسول صلى الله عليه وسلم، ثم لمن يكون ولي الأمر من بعده: أن يستعرض آراء أصحابه الذين يراهم موضع الرأي، الذي هم أولو الأحلام والنهى، في المسائل التي تكون موضع تبادل الآراء وموضع الاجتهاد في التطبيق، ثم يختار من بينها ما يراه حقاً وصواباً أو مصلحة، فيعزم على إنفاذه، غير متقيد برأي فريقٍ معين، ولا برأي عددٍ محدد، لا برأي أكثرية، ولا برأي أقلية، فإذا عزم توكل على الله، وأنفذ العزم على ما ارتآه.اهـ

وبهذا الذي ذكرناه يتضح لكل ذي بصيرة، أن الشورى على فرض أنها واجبة إلا أنها ليست بملزمة للأمير، فإن ظهر له الصواب فيما أشاروا به عليه أخذ به وإن ظهر له الصواب في غيره عمل به مع مراعاة مصلحة الأمة، والعزيمة والأخذ بالرأي والاستئثار به دون العمل فيما أُشير عليه به، إنما هو في الأمور التي لم يرد فيها نص كما سيأتي فتنبه لذلك.

فصل: اختلف أهل العلم في متعلق المشاورة على أقوال كما قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح، فقيل: في كل شيء ليس فيه نص، وقيل في الأمر الدنيوي فقط، وقال الداودي: إنما كان يشاورهم في أمر الحرب مما ليس فيه حكم لأن معرفة الحكم إنما تلتمس منه، قال: ومن زعم أنه كان يشاورهم في الأحكام فقد غفل غفلة عظيمة، وأما في غير الأحكام فربما رأى غيره أو سمع ما لم يسمعه أو يره كما كان يستصحب الدليل في الطريق، وقال غيره: اللفظ وإن كان عاما لكن المراد به الخصوص للاتفاق على أنه لم يكن يشاورهم في فرائض الأحكام. .

وقال أبو بكر بن العربي المالكي في أحكام القرآن: قال علماؤنا: المراد به الاستشارة في الحرب، ولا شك في ذلك، لأن الأحكام لم يكن لهم فيها رأي بقول، وإنما هي بوحي مطلق من عند الله عز وجل، أو باجتهاد من النبي صلى الله عليه وسلم على من يجوِّز له الاجتهاد.اهـ

وقال القرطبي رحمه الله: وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه في الآراء المتعلقة بمصالح الحروب، وذلك في الآراء كثير، ولم يكن يشاورهم في الأحكام، لأنها منزلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمباح والحرام، فأما الصحابة بعد استئثار الله تعالى به علينا فكانوا يتشاورون في الأحكام ويستنبطونها من الكتاب والسنة.

وعليه فالأمور التي يشاور فيها هي التي لم يتبين حكمها لا في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله، ولا في إجماع أو قياس جلي، وتتمثل المشاورة في أمور الحرب وما شابهها، والأمور الدنيوية وحسب، أما ما ورد فيها نص من كتاب أو سنة وبانت فلا مشاورةَ فيها.

قال الإمام ابن قدامة المقدسي في المغني: إن الحاكم إذا حضرته قضية تبين له حكمها في كتاب الله تعالى، أو سنة رسوله، أو إجماع، أو قياس جلي، حكم ولم يحتج إلى رأي غيره.. ثم ذكر حديث معاذ لما أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن.

فصل: وللمشاورة حكم عظيمة، وفوائد غزيرة، ولطائف عزيزة، لا يدرك كنه أمرها، وعظيم فضلها إلا من زاولها، وعمل بها. ومن تلك الحكم كما قال ابن الأزرق المالكي رحمه الله: أولاً: الأمن من ندم الاستبداد بالرأي الظاهر خطؤه ففي الشهاب: " ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار".

ثانياً: إحراز الصواب غالباً، فقد كان يقال: من أعطى أربعاً، لن يمنع أربعاً، منها: من أعطى المشورة، لم يمنع الصواب.

ثالثاً: ازدياد العقل بها واستحكامه، قال الطرطوشي: المستشير وإن كان أفضل رأياً من المستشار، فإنه يزداد برأيه رأياً، كما تزداد النار بالسليط ضوءاً.

رابعاً: الفوز بالمدح عند الصواب، وقبول العذر عند الخطأ.

خامساً: بناء التدبير بها على أرسخ أساس، والعكس بالعكس، ومن ثم قيل: إنفاذ الملك للأمور من غير روية، كالعبادة بغير نية.

سادساً: استمناح الرحمة والبركة، قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: " المشورة والمناظرة بابا رحمة، ومفتاحا بركة، لا يضل معهما رأي، ولا يفقد معهما حزم ".

سابعاً: دلالة العمل بها على الهداية والسداد. قال علي رضي الله عنه: " الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه.

فصل: ولعظيم منزلة الشورى فقد كان النبي الكريم صلى الله عليه وسلم المؤيد بوحي السماء، يشاور أصحابه، ويأخذ برأيهم، وينزل عند مشورتهم، مستجيباً لأمر ربه: "وشاورهم في الأمر"، ومعلماً بذلك أمته من بعده، ليستنوا بسنته، وليقتفوا أثره، فيحوزوا خيري الدنيا والآخرة، قال الإمام الشافعي رحمه الله أخبرنا ابن عيينة عن الزهري قال: قال أبو هريرة ما رأيت أحداً أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال الله عز وجل: "وأمرهم شورى بينهم" قال الشافعي: قال الحسن: إن كان النبي صلى الله عليه وسلم فيمن يجب أن يشاور لغنياً عن مشاورتهم ولكنه أراد أن يستن بذلك الحكام بعده إذا نزل بالحاكم الأمر يحتمل وجوهاً أو مشكل ينبغي له أن يشاور.

ولقد شاور النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه أصحابه في مواطن عدة، فقد شاورهم في غزوة بدر ونزل على رأي الحباب بن المنذر، قال ابن كثير رحمه الله: والمعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سار إلى بدر، نزل على أدنى ماء هناك أي: أول ماء وجده، فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال: يا رسول الله، هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلكه الله فليس لنا أن نجاوزه، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة ؟ فقال: " بل منزل نزلته للحرب والمكيدة". فقال: يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل، ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلي القوم ونغور ما وراءه من القلب، ونستقي الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء، فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعل كذلك.

وشاور أصحابه في غزوة أحد، ونزل على رأيهم وخرج بهم لمنازلة قريش قرب جبل أحد، قال البخاري رحمه الله في صحيحه: وشاور النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه يوم أُحد في المقام والخروج، فرأوا له الخروج.

وشاور عليه الصلاة والسلام عموم الجيش في رد سبي هوزان، وشاور أصحابه في أُسارى بدر، فأشار الصديق عليه بفدائهم، وأشار عليه الفاروق بقتلهم، وأخذ برأي الصديق، قال ابن قدامة المقدسي في المغني: وقد شاور النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في أُسارى بدر، وفي مصالحة الكفار يوم الخندق، وفي لقاء الكفار يوم بدر.

ومشاوراته صلى الله عليه وسلم لأصحابه أظهر من أن تسرد، وكذلك مشاورة أبي بكر وعمر وغيرهم من الخلفاء أكثر من أن يسعها هذا المقام، والله الهادي إلى سواء السبيل.

فصل: أما أهل المشورة فاعلم أنهم أهل الدين والعلم والأمانة، ووجهاء الناس، وعرفاء القوم وأعيانهم، والنقباء وأهل الدربة والتجربة، وكل صاحب فنٍ في فنه.

قال البخاري رحمه الله: وكانت الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها، وقال سفيان الثوري: ليكن أهل مشورتك أهل التقوى والأمانة، ومن يخشى الله تعالى.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله في الأم: ولا ينبغي للحاكم أن يشاور جاهلاً لأنه لا معنى لمشاورته، ولا عالماً غير أمين فإنه ربما أضل من يشاوره، ولكنه يشاور من جمع العلم والأمانة وفى المشاورة رضا الخصم والحجة عليه.

تنبيه: ولا يمنع من المشورة حداثة السن، ونضرة الشباب فقد كان مجلس عمر غاصاً بالعلماء والقراء كهولاً كانوا أو شباناً وربما استشارهم كما قال الزهري، وكان يقول رضي الله عنه: لا يمنع أحدكم حداثة سنه أن يشير برأيه، فإن الرأي ليس على حداثة السن ولا على قدمه، ولكن أمر يضعه الله حيث يشاء.

وقال الطرطوشي: ولم يزل العقلاء على اختلاف مذاهبهم يطلبون صواب الرأي من كل أحد حتى الأمة الوكعاء.

وقال البخاري رحمه الله: وكان القراء أصحاب مشورة عمر كهولاً كانوا أو شباناً، وكان وَقَّافا عند كتاب الله عز وجل.

فائدة: ومما ينبغي أن يعلمه كل مجاهد كما قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ: أن من استشار واحداً أو اثنين في أمره فقد استشارهم، كما صرحت به سنته وهديه، ففي بعض الأمر استشار أم سلمة، ولم يستشر غيرها، وفي مصالحة المشركين استشار السعدين فقط، ولما أراد أن يرجع من الطائف استشار نوفل بن معاوية الديلمي، وهذا باب واسع.

ويفهم من هذا النقل أن لصاحب الأمر حرية انتقاء من شاء من بين خاصته فيخصه بما أراد من أمر المشورة، دون الرجوع إلى الكل في كل حالة، وكذلك يظهر من فعل النبي صلى الله عليه وسلم أن استشارة أصحاب الشأن هو الأولى في المشاورة، وكذلك مشاورة كل صاحب فن في فنه، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

قال الشيخ عبد اللطيف رحمه الله: وربما فعل صلى الله عليه وسلم أشياء ولم يستشر فيها أحداً، وقد أرسل بعض السرايا وكتب لهم كتاباً: إذا بلغتم كذا وكذا فانظروا كتابي واعملوا به. ولم يطلع عليه غيره، ولم يشاورهم فيه.

التذكرة الثالثة عشر في قوله تعالى: { فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا }.

اعلم أيها النافر إلى الجهاد ترجو رضى ربك أن ردَّ الأمر المتنازع فيه إلى الله ورسوله من لوازم الإيمان، ومن مقتضيات التوحيد، وهو علامة الإيمان، وضدُّه الكفر والنفاق والضلال. قال ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين: جعل هذا الرد — أي رد المتنازع فيه – من مُوجبات الإيمان ولوازمه، فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه.

ولقد أمر الله عباده في أكثر من موضع في كتابه الكريم برد المتنازع فيه إلى كتابه والى نفس الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته والى سنته بعد وفاته، وليس لأحد من المسلمين العدول عن ذلك ما وجد إلى ذلك سبيلا.

قال تعالى: { وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إلى الله }، وقال عز من قائل: { فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله وَالرَّسُولِ }.

قال ابن كثير رحمه الله: قال مجاهد وغير واحد من السلف: أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله، وهذا أمرٌ من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى: { وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إلى الله }، فما حكم به كتاب الله وسنة رسوله وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال تعالى: { إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ } أي: ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم{ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ }، فدل على أن من لم يتحاكم في مجال النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك، فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر.

فعلامة الإيمان ردّ المتنازع فيه إلى حكم الله وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم، وخلاف ذلك فهو الضلال في الدنيا والآخرة.

والأمر برد المتنازع فيه إلى الكتاب والسنة دليل على أن الكتاب والسنة يشتملان على حكم كل شيء، كما قال ابن القيم في إعلام الموقعين: كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين

دقه وجله، جليه وخفيه، ولو لم يكن في كتاب الله ورسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه ولم يكن كافياً لم يأمر بالرد إليه، إذ من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع.

فصل: وأما رد الأمر المتنازع فيه فيكون لكتاب الله ولسنة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ولمن يعتقد فيه الصلاح من أهل العلم ممن يفتيه بشرع الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وممن آتاهم الله القدرة على استنباط الأحكام الشرعية من مضانها، وآتاهم فهماً صحيحاً للكتاب والسنة. وكما قال علي بن أبي طالب: ما عندنا إلا ما في كتاب الله تعالى أو ما في هذه الصحيفة، أو فهمٌ أُتيه رجلٌ مسلم.

قال القرطبي: أمر الله تعالى برد المتنازع فيه إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وليس لغير العلماء معرفة كيفية الرد إلى الكتاب والسنة، ويدل هذا على صحة كون سؤال العلماء واجباً وامتثال فتواهم لازماً.

وها هنا مثالان من السيرة أسوقهما لك لتتبين كيف كان الجيل الأول يتعامل مع ما اختلف فيه وتنوزع:

الأول: عن عبد الله بن حنين، أن ابن عباس، والمسور بن مخرمة اختلفا بالأبواء فقال ابن عباس: يغسل المحرم رأسه.

وقال المسور: لا يغسل المحرم رأسه، قال: فأرسلني ابن عباس إلى أبي أيوب الأنصاري، فوجدته يغتسل بين القرنين، وهو يستر بثوب، فسلمت عليه، فقال: من هذا ؟ فقلت: أنا عبد الله بن حنين، أرسلني إليك ابن عباس يسألك: كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغتسل، وهو محرم؟ قال: فوضع أبو أيوب يده على الثوب فطأطأه حتى بدا لي رأسه ثم قال: الإنسان يصب عليه الماء: أصبب، فصب على رأسه، ثم حرك رأسه بيده، فأقبل بهما، وأدبر فقال: هكذا رأيته صلى الله عليه وسلم يفعل.

الثاني: عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: رأيت سعد بن أبي وقاص يمسح على خفيه بالعراق حين يتوضأ فأنكرت ذلك عليه قال: فلما اجتمعنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال

لي: سل أباك عما أنكرت علي من مسح الخفين قال: فذكرت ذلك له فقال: إذا حدثك سعد بشيء فلا ترد عليه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمسح على الخفين.

نعم هذه سيرة رجال خير القرون في ما اختلف فيه، ردّ المتنازع فيه إلى أهل العلم والمعرفة بالكتاب والسنة ليستنبطوا الحكم منهما، ومن ثم التسليم والانقياد، والأخذ والقبول، فرحمهم الله من جيل أبى الله إلا أن يكونوا سادة في كل شيء. وإنه لحريٌ بكل مجاهد أن يتأسى بهم، ويستن بسنتهم، ويقتفي أثرهم قولاً وعملاً، ففي ذلك الخير والفلاح، والسداد والرشاد.

فصل: وأحق الناس بامتثال أمر الله وأمر رسوله هم المجاهدون، الذين نفروا في سبيل ربهم ابتغاء ردّ الناس إلى دينهم، وتحكيم شرعه القويم فيهم، والقضاء على الدساتير الجاهلية التي وضعها أولياء الشيطان، لتكون الحاكم المسيطر على حكم الله، فخروج المجاهدين للجهاد في سبيل الله إنما هو لرد الحقوق التي اغتصبها المتألهون من البشر، وردها إلى صاحبها عز وجل ليسود حكمه الذي ارتضاه لعباده الموحدين.

وعليه فالواجب على كل مجاهد في حال النزاع والخصومة، أن يكون سباقاً لتحكيم شرع الله، وأن يبادر إلى أهل العلم لفضِّ ما اختلف فيه، وللفصل في المتنازع عليه، ليأخذ كل ذي حق حقه.

واعلم أيها الراجي عفو ربك أن ردّ الخصومات والأُمور المتنازع فيها إلى الله ورسوله جديرٌ ولا شك بحسم مادة الخلاف بين المجاهدين، وقطع دابر الفرقة بين الإخوة العاملين، وسببٌ موصلٌ ولا ريب للقضاء على الضغينة والشحناء بين العاملين لنصرة دين الله القويم.

ولا شك أن الشريعة الغراء تسع كل الخصومات، وفيها الحلول لكل النزاعات، وإنما يتوقف الأمر على المتنازعين، فمن أراد الحق لا ريب أنه سيصيبه، ويهتدي إليه، ومن أراد غير ذلك، فمن أضل ممن اتبع هواه بغير علم.؟!.

وليكن حال كل متنازع كما قال الشافعي رحمه الله: ما ناظرت أحداً إلا قلت اللهم أجرِ الحق على قلبه ولسانه، فإن كان الحق معي اتبعني، وإن كان الحق معه اتبعته.

فصل: ومما يجب أن يُعلم في هذا الباب أن طاعة العلماء واجبة، بل هي أفرض على المسلم من طاعة الآباء والأمهات كما قال ابن القيم، بل ذهب كثير من أهل العلم إلى أن المقصود بأولي الأمر في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ }، أنهم العلماء والفقهاء، قاله جابر بن عبد الله، وابن عبّاس رضي الله عنهم – في رواية – ومجاهد وعطاء والحسن البصري وأبو العالية، وهو قول لأحمد، واختاره الإمام مالك، وبه قال ابن القيم.

فإذا تبين حكم الشريعة في أمر قد نوزع فيه، فليس لأحد كان من كان أن يرد أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، وعليه الإذعان له، والتقيد به، والعمل بمقتضاه، وهذا من شروط الإيمان ولوازم التوحيد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: أمر الله عز وجل عند التنازع بالرد إلى الله والى الرسول، إذ المعصوم لا يقول إلا حقاً، ومن علم أنه قال الحق في موارد النزاع وجب اتباعه كما لو ذكر آيةً من كتاب الله تعالى، أو حديثاً ثابتاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصد به قطع النزاع.

فإذا تبين لك أيها المجاهد في سبيل الله ذلك فالزم غرز ما علمت، واستمسك بما قد بان لك وكن خيرَ خلف لخير سلف، فما حاز الأوائل ما حازوا إلا بتمسكهم والتزامهم نهج سيد المرسلين وإمام الموحدين صلى الله عليه وسلم، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

التذكرة الرابعة عشر في: فضل من يموت مهاجراً في سبيل الله.

قال سبحانه وتعالى في محكم التنزيل: { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ الله ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ الله رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ الله لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ الله لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ }.

بشرى كريمة من رب كريم لأهل طاعته الذين خرجوا ينصرون دينه، ويمكنون لشريعته، ويعلون رايته، رغبةً في رضاه، وطمعاً في جزيل ثوابه، فقد تكفل سبحانه وتعالى بالرزق الحسن لهم والمدخل الكريم الطيب الذي يرضونه، وبشرهم أن القتل في ساح الوغى أو الموت حتف الأنف سواءٌ في ميزانه سبحانه وتعالى أو قريبٌ من السواء في الفضل والكرامة والمنزلة.

قال شيخ المفسرين ابن جرير رحمه الله: يقول تعالى ذكره: والذين فارقوا أوطانهم وعشائرهم فتركوا ذلك في رضا الله وطاعته وجهاد أعدائه ثم قتلوا أو ماتوا وهم كذلك، ليرزقنهم الله يوم القيامة في جناته رزقاً حسنا، يعني بالحسن: الكريم وإنما يعني بالرزق الحسن: الثواب الجزيل: وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ يقول: وإن الله لهو خير من بسط فضله على أهل طاعته وأكرمهم.

وقال القرطبي رحمه الله: أفرد ذكر المهاجرين الذين ماتوا وقتلوا تفضيلاً لهم وتشريفاً على سائر الموتى، وسبب نزول هذه الآية أنه لما مات بالمدينة عثمان بن مظعون وأبو سلمة بن عبد الأسد قال بعض الناس: من قتل في سبيل الله أفضل ممن مات حتف أنفه، فنزلت هذه الآية مسوية بينهم، وأن الله يرزق جميعهم رزقا حسنا.

فصل: وقد اختلف أهل العلم في المساواة بين المقتول في سبيل الله والميت في سبيل الله، وإن كان ظاهر الشريعة يدل على أن المقتول أفضل كما قال القرطبي رحمه الله.

فقد ذهبت طائفةٌ منهم أن المقتول والميت في سبيل الله على درجة واحدة من الفضل والمنزلة، ولكن للمقتول مزية ما أصابه في ذات الله.

وقالت طائفةٌ أُخرى هم سواء واحتجوا بقوله تعالى: ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله، وبحديث أم حرام فإنها صرعت عن دابتها فماتت ولم تقتل فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: أنت من الأولين، وبقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث عبد الله ابن عتيك: من خرج من بيته مهاجراً في سبيل الله فخر عن دابته فمات، أو لدغته حية فمات، أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله، ومن مات قعصاً فقد استوجب المآب.

واحتج من قال: إن للمقتول زيادة فضل بما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل: أي الجهاد أفضل ؟ قال: من أهريق دمه وعقر جواده.

وإذا كان من أهريق دمه وعقر جواده أفضل الشهداء علم أنه من لم يكن بتلك الصفة مفضول.

قال الشيخ الفقيه عبد الله عزام رحمه الله في "الجهاد فقه واجتهاد": إذا كان خروجكم في سبيل الله، فنومكم ونبهكم أجر كله، الطعام أجر واللعب أجر والمزاح أجر والنوم أجر، كلها أجر ما دمت خارجا في سبيل الله، وإذا مت الآن فأنت شهيد حيثما مت، مت بالإسهال، مت بالمرض، مت بالتدريب الرياضي، قفزت من مكان عال وجئت على رأسك ومت ففي سبيل الله، أطلقت رصاصة من أخيك فأصابت منك مقتلا فأنت شهيد، أطلقت رصاصة خطأ على نفسك وقتلت فأنت شهيد، في الحديث الصحيح: من وضع رجله في الركاب فاصلاً فوقصته دابته فمات– وقصته: رمته– أو لدغته هامة– يعني أفعى– أو عقرب فمات أو مات بأي حتف مات– مات بأي موت– فهو شهيد وإن له الجنة. والآن لا فرق بعد أن خرجت في سبيل الله.. مت حيثما مت.. الموت والقتل بالنسبة لك سواء.. الأجر واحد والشهادة هي الشهادة..اهـ

ولقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم لا يبالون على أي وجه يلقون الله عز وجل ما داموا قد خرجوا جهاداً في سبيل الله، فسواء قتلوا في سبيل الله، أو ماتوا حتف أنفهم، فالنتيجة عندهم واحدة هي رضوان الله، والرزق الحسن، والمدخل الكريم الطيب الذي يرضونه، فقد ذكر ابن كثير في تفسيره وكذا القرطبي أن الصحابي الجليل فضالة بن عبيد الأنصاري حضر في البحر مع جنازتين، أحدهما أصيب بمنجنيق والآخر توفي، فجلس فضالة بن عبيد عند قبر المتوفى، فقيل له: تركت الشهيد فلم تجلس عنده.؟ فقال: ما أبالي من أي حفرتيهما بعثتُ إن الله يقول: { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ الله ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ الله رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ الله لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلا يَرْضَوْنَهُ } فما تبتغي أيها العبد إذا أدخلت مدخلاً ترضاه ورزقت رزقاً حسناً، والله ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت.

فأبشر أيها المهاجر إلى الله، ومت كيفما مت، مت على فراشك، مت بحادث سير، مت بمرض، مت على أي وجه فقد تكفل الله لك بالرزق الحسن، والمدخل الطيب الذي ترضاه ما دامت النية صالحة، والطوية صادقة.{ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ الله أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ الله وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ }.

التذكرة الخامسة عشر في قوله صلى الله عليه وسلم: { بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ}.

اعلم أيها الراجي عفو ربك أن الأمة في هذا الزمان تعيش غربتها الثانية، التي أخبر عنها النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، بل هي في أشد غربتها فهذا ابن القيم يقول عن زمانه: بل الإسلام الحق الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عليه هو اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره، وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة فالإسلام الحقيقي غريب جداً وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس.

فقد بدأ الإسلام غريباً مطارداً محارباً لا يجد أتباعه الأمن ولا الآمان، يتخطفهم المعاندون من كل حدب وصوب، لا يجدون معيناً على الحق ولا نصيرا.

قال السيوطي رحمه الله: بدأ الإسلام غريبا أي في آحاد من الناس وقلة، ثم انتشر وظهر وسيعود كما بدأ أي وسيلحقه النقص والاختلال حتى لا يبقى إلا في آحاد وقلة أيضا كما بدأ.

وها قد دار الزمان دورته وغدا الإسلام وأهله كما بدأ أول مرة غريباً بين الناس، مطارداً من قبل مناوئيه، محارباً من أرباب الجاهلية وسدنتها، متهماً ممن يظنون أنهم على الجادة السوية، قد ازدراه الناس، وجفاه أصحابه ومالوا عنه، وهجره أتباعه واستبدلوا شرعته، وعابه المبغضون وانتهكوا حرمته، واستخف بأحكامه السواد الأعظم فلم يعودوا يبالون، وبقيت قلة قليلة متمسكة بهدي نبيها من يعصيها ويعاديها أكثر ممن يطيعها ويواليها، ومن يخذلها أكثر ممن ينصرها، قد جفاها القريب، وخاصمها البعيد، ورمتها الدنيا عن قوس واحدة حتى غدا حالها كحال الأوائل من الصحب الكرام، وما ضرها ذلك وما ساءها إن شاء الله فهذا دأب أصحاب الدعوات.

قال ابن القيم رحمه الله: وأهل هذه الغربة، هم أهل الله حقا فإنهم لم يأووا إلى غير الله، ولم ينتسبوا إلى غير رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به، وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم، فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم، بقوا في مكانهم، فيقال لهم: " ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون: فارقنا الناس، ونحن أحوج إليهم منا اليوم وإنا ننتظر ربنا الذي

كنا نعبده" فهذه الغربة لا وحشة على صاحبها بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس، وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا، فوليه الله ورسوله والذين آمنوا، وان عاداه أكثر الناس وجفوه.

فصل: أما ماهية هؤلاء الغرباء الذين أخبر عنهم النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، فقد أفصحت عنها الأحاديث النبوية الكريمة، وأشارت إليها في مواضع عدة، فهم النزاع من القبائل . وهم الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنة النبي صلى الله عليه وسلم . وهم ناس صالحون قليل في ناس كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم . وهم الفرارون بدينهم، يجتمعون إلى عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة .

فهؤلاء الغرباء تظهر صفاتهم، وتتجلى عظمتهم، ويعلو سناهم، وتسمو فعالهم، يوم أن ينتكس الناس، وينحدرون إلى الأسفل، ويسود الشر وتنتكس الفطرة، ويقل الصلاح فلا تكاد ترى معيناً على الحق يدلك الطريق، وتندرس معالم السنة فلا تكاد تبصر من يأخذ بيدك إلى الصواب الذي أمر به الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم.

فصل: وأشد الناس غربة في هذا الزمان هم المجاهدون الذين تبرؤا من ذواتهم، وهجروا أوطانهم، وفارقوا أحبابهم، وتركوا لذاتهم، وعَلَوا على الجاهلية ووحلها، فلم يداهنوا طاغوتاً، ولم يعطوا الدنية في دينهم لكافر حقود، ولم يميلوا مع أصحاب الأهواء، ولم يركنوا إلى أهل الابتداع، بل استمسكوا بسنة نبيهم واقتفوا أثره وساروا على نهج أصحابه، فلم يبدلوا ولم يغيروا، حاديهم في الطريق الطويل الموصل إلى الغاية المرجوة قوله تعالى: { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) فَآَتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآَخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }.

فلا يروعنك أيها المجاهد في سبيل الله كثرة المخالفين، ولا قلة المناصرين، ولا يهدَّن من عزيمتك سواد المعرضين، وندرة المتبعين، وكن كما قال الحسن البصري رحمه الله: فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لَقوا ربهم، فكونوا كذلك.

ولا يحزنك أيها النافر للجهاد تبغي رضوان الله هذه الغربة، ولا يسوؤك ذلك بل يجب أن ترفع رأسك عالياً وتبتهج فرحاً بهذا الاصطفاء، وتمضي إلى الله مطمئن البال، ماضي العزيمة، مستبشراً بما أنت مقبل عليه، فأنت ممن بشرهم رسول الرحمة صلى الله عليه وسلم بقوله فطوبى لهم. قال شيخ الإسلام رحمه الله: ولا يقتضي هذا أنه إذا صار غريباً أن المتمسك به يكون في شر بل هو أسعد الناس كما قال في تمام الحديث: "فطوبى للغرباء"، و "طوبى" من الطيب، قال تعالى: {طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ}، فإنه يكون من جنس السابقين الأولين الذين اتبعوه لما كان غريباً وهم أسعد الناس، وأما في الآخرة فهم أعلى الناس درجة بعد الأنبياء عليهم السلام.

ولا توحشك ظلمة الدرب، وكثرة المتساقطين على جانبيه، وليكن دليلك في الطريق، ومعين زادك الذي تتزود به في مسيرك قوله صلى الله عليه وسلم: إن من ورائكم أيام الصبر للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم. قالوا: يا نبي الله ! أو منهم ؟ قال: بل منكم.

هذه منزلتك أيها المجاهد عند الله، وهذا هو الثواب الذي ينتظرك عندما تلقاه، فلا تلتفت للوراء وامض فإنك على الحق، واستعن بالله ولا تعجز، ودع عنك الذي يقولون، فما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين، وليكن حالك في مواجهة هذه الغربة العاتية كما قال ابن القيم رحمه الله: فإذا أراد المؤمن الذي قد رزقه الله بصيرةً في دينه وفقهاً في سنة رسوله وفهماً في كتابه وأراه ما الناس فيه من الأهواء والبدع والضلالات، وتنكّبهم عن الصراط المستقيم الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط فليوطن نفسه على قدح الجهال وأهل البدع فيه وطعنهم عليه، وإزرائهم به، وتنفير الناس عنه، وتحذيرهم منه، كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه صلى الله عليه وسلم، فأما إن دعاهم إلى ذلك، وقدح في ما هم عليه، فهنالك تقوم قيامتهم، ويبغون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، ويجلبون عيه بخيل كبيرهم ورجله.

التذكرة السادسة عشر في: مدارة مع الناس.

اعلم أيها الناصح لنفسك أن مداراة الناس حكمة لا غنى عنها، وهي أصل الألفة بين المؤمنين، وسبب موصل لاستمالة قلوب المسلمين، وهي جوهر العقل، ولعظيم منزلتها فقد بوب لها البخاري في صحيحه فقال: "باب المداراة مع الناس" وساق حديث عائشة رضي الله عنها: أنه

استأذن على النبي صلى الله عليه و سلم رجل فقال: ائذنوا له فبئس ابن العشيرة أو بئس أخو العشيرة، فلما دخل ألان له الكلام فقلت له يا رسول الله قلت ما قلت ثم ألنت له في القول ؟ فقال: أي عائشة إن شر الناس منزلة عند الله من تركه أو وَدَعَهُ الناس اتقاء فحشه.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح وهذا الحديث هو أصل في المداراة، وفيه أيضاً مداراة من يُتقى فحشه كما قال النووي في شرحه لصحيح مسلم ، وفيه أيضاً كما قال القرطبي رحمه الله: جواز غيبة المعلن بالفسق أو الفحش ونحو ذلك من الجور في الحكم والدعاء إلى البدعة، مع جواز مداراتهم اتقاء شرهم ما لم يُؤد ذلك إلى المداهنة في دين الله تعالى.

والمداراة كما عرفها ابن بطال: من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم في القول وذلك من أقوى أسباب الأُلفة.

وقال فيها الحافظ ابن حجر: والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله وترك الإغلاظ عليه حتى لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك.

واعلم أن المداراة مندوب إليها وقد تكون مستحبة كما ذكر القرطبي، وهي محمودة في الدين، محثوث عليها ما لم تؤد إلى ثلم دين.

فصل: ولقد غلط كثير من الناس في حقيقة المداراة، وظنوا أنها المداهنة المنهي عنها، والأمر ليس كذلك فالمداهنة من الدهان وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه، وفسرها العلماء بأنه معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه، أو هي بذل الدين لصلاح الدنيا.

أما المداراة فهي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك، أو هي بذل الدنيا لصلاح دين أو دنيا بنحو رفق بجاهل في تعليم وبفاسق في نهي عن منكر.

وتنبه إلى أن المدارة لا تقوم على الكذب وإنما هي تلطف في القول ولين، وتبسم في الوجه وبش، وتركٌ للشدة والغلظة وقبيح القول والفعل.

فصل: ولقد كان المصطفى صلى الله عليه وسلم يداري الناس حتى بلغ في ذلك النهاية التي لا ترتقى، فقد دارى جفاة الأعراب والمنافقين المؤذين له وللمؤمنين، وغيرهم ممن يرجى تألفه واستمالة قلبه. قال المناوي رحمه الله: وبلغ من مداراته أنه وجد قتيلاً من أصحابه بين اليهود فوداه بمائة ناقة من عنده وإن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد يتقوون به، وكان من مداراته أنه لا يذم طعاماً ولا ينهر خادماً ولا يضرب امرأة.

وحديث عائشة السابق ذكره لا شك أصل في المداراة، كما قال الحافظ رحمه الله، وكان هذا كذلك هو دأب أصحابه وأتباعه رضي الله عنهم، فقد ذُكر عن الصحابي الجليل أبي الدرداء قوله: إنا لنكشر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم، قال ابن الجوزي: وقول أبي الدرداء هذا ليس فيه موافقة على محرم ولا في كلام، وإنما فيه طلاقة الوجه خاصة للمصلحة.

وقال الثوري: قال ابن عباس: ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان وكذا رواه العوفي عن ابن عباس: إنما التقية باللسان وكذا قال أبو العالية وأبو الشعثاء والضحاك والربيع بن أنس.

فصل: وأولى الناس في القيام بهذه السنة هم المجاهدون، الذين يعرض لهم في طريق الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله ما يعرض، فالقيام بهذه السنة لا شك جالب للخير، دافع للشر، وبه تأليف قلوب الناس واستمالتهم للحق الذي يحملونه بين جنباتهم، وتحبيبهم في ما هداهم الله إليه في زمن عزَّ فيه من يقتفي سنة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم قولاً وعملاً، والله ولي التوفيق.

هذا ويجب على النافر في سبيل الله، أن يفرق بين مداهنة أعداء الله والرضى بكفرهم وإقرارهم على ما هم فيه من الكفر والضلال، وبين مداراتهم إن احتاج إلى ذلك، رغبةً في اتقاء شرهم، ودفعاً لأذاهم، ولا شك أنه قد يُحتاج إلى مثل هذه المداراة في أحوال عدة وخاصة في أثناء السفر والحركة والتنقل فليتفطن لذلك، قال الألوسي رحمه الله: وعدَّ قوم من باب التقية مداراةَ الكفار والفسقة والظلمة وإلانةَ الكلام لهم، والتبسمَ في وجوههم، والانبساطَ معهم وإعطاءَهم لكف أذاهم، وقطع ألسنتهم، وصيانة العرض منهم، ولا يعد ذلك من باب الموالاة المنهي عنها، بل هي سنة وأمر مشروع.

وقال الشيخ أبو محمد المقدسي فك الله أسره في" الرسالة الثلاثينية"، وذلك في سياق حديثه عن من كَفَّر المسلمين بمجرد مداراتهم لأعداء الله: فلقد رأيت منهم أقواماً شنّعوا وبدّعوا بل

وكفروا مخالفيهم في أشياء ليست هي في دين الله من الكفر، بل بعضها مشروع من جنس المداراة الممدوحة لم تستوعبه عقولهم الضعيفة... فكفروا من جالس الكفار أو زاورهم ودخل عليهم أو بشّ في وجوههم أو عاملهم بشيء من اللين والطلاقة. ومن باب أولى عندهم من صافحهم أو مازحهم وضاحكهم وداهنهم، والحق أنه لا يحل التسوية بين هذا كله، ولا يجوز التكفير به وحده.

فمنه ما هو مشروع كالمجالسة والمزاورة والدخول على الكفار لأجل دعوتهم واللين في خطابهم وجدالهم بالتي هي أحسن، ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد قدمنا لك من صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم عاد غلاماً يهودياً مريضاً ودعاه إلى الإسلام فأسلم، فيجوز إذن للمسلم أن يعود الكافر في مرضه وأن يحسن إليه رجاء إسلامه..

وقال فك الله أسره: ومما ينكرونه وقد يكفر بعضهم به، مما تقدم أشياء لا تصل إلى حد التحريم، ما لم يكن في شيء منها إقرار على منكر أو حرام، كمصافحة الكفار والطلاقة لهم والبشاشة ونحوها، مما لا ينتهض الدليل لتحريمه وإن كنا نكرهه لغير حاجة دعوة أو تألف للدين ونحوه.. فلقد بلغ ببعض المتهورين أن كفروا بتعنتهم مخالفيهم ممن يصافحون عساكر الشرك والقانون أو غيرهم من الكفار، فشطوا بذلك عن جادة الحق وغلوا، ومنهم من اكتفى في ذلك بالتبديع أو الاتهام بالمداهنة والركون، مع أنهم لا يعرفون دليلاً واحداً يمنع من ذلك. ونحن وإن كنا نكره مصافحتهم، ولا نتعاطاها، إظهاراً لدعوتنا وإبداء لبراءتنا من الشرك وأنصاره، وقد سئل الإمام أحمد عن مصافحة أهل الذمة فكرهه، فغيرهم من الكفار المحاربين أولى على هذا عنده بالكراهة، ولكننا مع هذا لا نقول بتحريمها لعدم النص، بل نعدها فقط ذريعة قد توصل إلى الألفة، ومعلوم في قواعد الفقه: " أن ما منع سداً للذريعة، أبيح للمصلحة"، وقد تقدم.. ولذلك فلا نمنع من المصافحة لمصلحة تألف أو دعوة أو لدرء مفسدة ونحوها بحسب ما يقدره المسلم في مقامه.اهـ

فليتفطن الذكي الناصح لنفسه لهذا، ولا يشطط عن جادة الحق والصواب، فيقع فيما لا يحمد عقباه، وليكن له في سيرة الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أُسوة حسنة تقتفى ويعمل بها، فالمداراة سنة مندوب إليها بضوابطها الشرعية، والله الموفق لكل خير وهو خير الحافظين.

التذكرة السابعة عشر في: أدب الخلاف بين المجاهدين.

اعلم علمني الله وإياك أن هناك آداباً شرعية يجب أن تراعى في حال نشوب نزاع أو خلاف على أمر ما بين حملة هذا الدين، وعلى المجاهد أن يتمثلها حتى تصبح جزءًا لا يتجزأ منه، فهو أولى الناس بها، خاصةً إذا تذكرنا أنه يحمل في وجدانه منهجاً ربانياً يسعى إلى تطبيقه واقعاً عملياً في دنيا البشر.

ومع أن الخلاف والنزاع شر كما قال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، إلا أنه لا يخلوا تجمع من تجمعات المسلمين من وجود آثار له.

ولقد بيَّنا في ما سبق كيف يكون رد الأمر المتنازع فيه، وذكرنا أنه يرد ابتداءً إلى كتاب الله، ثم إلى سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم إلى أهل العلم المشهود لهم بالفضل والإحسان والقدرة على استنباط الأحكام الشرعية من مضانها، وسآتي في هذه التذكرة وأُنبه على الآداب التي يجب أن تسود بين المتنازعين في حال نشوب خلاف، وإن كنا نطمع بفضل الله ومنته أن يجنب المسلمين كل مسببات الخلاف، فهو كما ذكرت سابقاً شر، وما يتناقله الكثيرون، وينسبونه إلى النبي صلى الله عليه وسلم: أن اختلاف أمتي رحمة، إن هو إلا حديث موضوع مكذوب على النبي صلى الله عليه وسلم، قال فيه الألباني: موضوع لا سند له، وقال الحافظ العراقي فيه: مرسل ضعيف، وقال عنه السبكي: ليس بمعروف عند المحدثين، ولم أقف له على سند صحيح ولا ضعيف ولا موضوع.

ولا شك أن المسائل التي أتحدث عنها في هذا المقام، إنما هي المسائل الاجتهادية، والتي يستساغ فيه الخلاف، وغالباً ما تكون وجهات نظر، أو أساليب عمل تختلف من نفر إلى آخر، كل حسب بيئته ومدرسته التي نهل منها وتتلمذ على يدي منظريها وفقهائها، فليتفطن إلى ذلك.

فصل: الآداب التي يجب أن يتحلى بها المسلم عامة والمجاهد خاصة في حال نشوب الخلاف:

أولاً: التجرد لله و عدم التعصب للرأي: قال الشافعي رحمه الله: وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم على أن لا ينسب إلي حرف منه: وقال رحمه الله تعالى: ما ناظرت أحداً قط على الغلبة ووددت إذا ناظرت أحداً أن يظهر الحق على يديه، وقال: ما كلمت أحداً قط إلا وددت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله وحفظ.

وعن أبي يوسف رحمه الله تعالى قال: يا قوم أريدوا بعلمكم الله فإني لم أجلس مجلسا قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم، ولم أجلس مجلسا قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أفتضح.

ثانياً: اللين في القول: { وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا }، قال القرطبي رحمه الله: وهذا كله حضٌّ على مكارم الأخلاق، فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس لينا ووجهه منبسطا طلقا مع البر والفاجر، والسني والمبتدع، من غير مداهنة، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضي مذهبه، لأن الله تعالى قال لموسى وهارون: " فقولا له قولا لينا "، فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى باللين معه.

وقال طلحة بن عمر: قلت لعطاء إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة، وأنا رجل فيَّ حدة فأقول لهم بعض القول الغليظ، فقال: لا تفعل ! يقول الله تعالى: " وقولوا للناس حسنا".

ثالثاً: حسن الظن وحمل الكلام على أحسن وجه: قال المهلب: أوجب الله تعالى أن يكون ظن المؤمن بالمؤمن حسنًا أبدًا إذ يقول: لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا، فإذا جعل الله سوء الظن بالمؤمنين إفكاً مبينًا فقد ألزم أن يكون حسن الظن بهم صدقًا بينًا والله الموفق.

قال سعيد بن المسيب: كتب إلي بعض إخواني من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شراً وأنت تجد له في الخير محملا.

رابعاً: عدم رفع الصوت في حال نشوب الخلاف: قال تعالى: { وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ }، قال القرطبي في تفسيره: أي انقص منه، أي لا تتكلف رفع الصوت وخذ منه ما تحتاج إليه، فإن الجهر بأكثر من الحاجة تكلف يؤذي والمراد بذلك كله التواضع، وقد قال عمر لمؤذن تكلف رفع الأذان بأكثر من طاقته: لقد خشيت أن ينشق مريطاؤك! والمؤذن هو أبو محذورة سمرة بن معير، والمريطاء: ما بين السرة إلى العانة.

قال شيخنا عطية الله أكرمه الله: ولا شك أن رفع الصوت بلا موجبٍ مذمومٌ، ومن أدب المناظرة والنقاش والتحاور والمجادلة بالحسنى أن يخفض الإنسان صوته ولا يرفعه إلا بقدر ما يحتاج إليه لإسماع مناظِره.

وهو أنه أدبٌ معروف تعرفه العقول السليمة والفطر المستقيمة وتدل له آداب الشرع عامة، ولأن ضده وهو "رفع الصوت بلا موجب" يؤدي إلى فسادٍ وشحناء ويوقع في قلب المناظر من المعاني ما هو مفسِدٌ، ولأن رفع الصوت بلا موجبٍ ولا مرجّحٍ صالحٍ مذمومٌ مطلقاً لقوله تعالى: {واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير} ونحوها مما في معناها من القرآن والحديث.اهـ

خامساً: إقرار بعضنا لبعض في الاختلاف السائغ أو المعتبر سواء كان ذلك في اختلاف التنوع أو التضاد: قال تعالى: { مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ }، روى الطبري في تفسيره عن مجاهد وقتادة في سبب نزول هذه الآية: أن المسلمين اختلفوا في قطع نخل بني النضير فقطع قوم وأمسك آخرون فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه، وتحليل من قطعه من الإثم، وإنما قطعه وتركه بإذنه.

قال شيخ الإسلام: اختلاف التنوع كل واحد من المختلفين مصيب فيه بلا تردد، لكن الذم واقع على من بغى على الآخر فيه، وقد دل القرآن على حمد كل واحدة من الطائفتين في مثل هذا إذا لم يحصل من إحداهما بغي كما في قوله: ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله، وقد كان الصحابة في حصار بني النضير اختلفوا في قطع الأشجار والنخيل، فقطع قوم وترك آخرون، وكما في قوله: وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما، فخص سليمان بالفهم وأثنى عليهما بالعلم والحكم.

ومن أمثلة اختلاف التنوع كما قال شيخ الإسلام: القراءات التي اختلف فيها الصحابة حتى زجرهم رسول الله صلى الله عليه و سلم عن الاختلاف وقال كلاكما محسن، ومثله اختلاف الأنواع في صفة الأذان والإقامة والاستفتاح، والتشهدات وصلاة الخوف وتكبيرات العيد وتكبيرات الجنازة إلى غير ذلك مما شرع جميعه وإن كان قد يقال إن بعض أنواعه أفضل.

فصل: مما يجب أن يعلم علم اليقين، ويدرك كل الإدراك، أن السلف رضوان الله عليهم ما فتئوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية كما قال شيخ الإسلام، ومع هذا لم يرد عن أحدهم، أن حمل على صاحبه، أو نال منه، أو أبغض بعضهم بعضاً، حاش لله وكلا، بل كانت سيرتهم فيما بينهم، سيرة محبة وأُلفة، ومودة ورحمة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: كانوا يتناظرون في المسائل العلمية والعملية مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين، ولو كان كلما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة.

وذكر ابن القيم في مدارج السالكين، أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه خالف عمر الفاروق في مائة مسألة، ومع هذا لم نر منهما رضي الله عنهما سوى الألفة والمحبة والأخوة الصادقة، وثناء بعضهم على بعض، فهذا عمر الفاروق يقول عن صاحبه: كنيف ملئ علماً آثرت به أهل القادسية.

وعن زيد بن وهب قال: إني لجالس مع عمر بن الخطاب، إذ جاء ابن مسعود، فكاد الجلوس يوارونه من قصره، فضحك عمر حين رآه، فجعل عمر يكلمه، ويتهلل وجهه، ويضاحكه، وهو قائم عليه، ثم ولى، فأتبعه عمر بصره حتى توارى.

وعن زيد بن وهب قال: أتينا ابن مسعود فذكر عمر فبكى حتى ابتل الحصى من دموعه وقال: إن عمر كان حصنا حصينا للإسلام يدخلون فيه ولا يخرجون منه، فلما مات عمر انثلم الحصن فالناس يخرجون من الإسلام.

وقال يونس الصدفي: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة ثم افترقنا ولقيته فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة.

قال الذهبي: هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام وفقه نفسه، فما زال النظراء يختلفون.

فتأمل هذه السيرة العطرة، التي استقت من الدوحة النبوية الشريفة هذا الخير الفواح، وامض على خطاها، واقتفِ أثرها، ففيها خيرا الدنيا والآخرة.

التذكرة الثامنة عشر في: المثبطين عن الجهاد في ساح الجهاد والصادين عن سبيله.

منذ الزمن الأول لهذا الدين ما فتئ أصحاب الفتنة والتشويش، ممن أخذوا على عاتقهم الدس بين المسلمين، والوقيعة بين المجاهدين، والعمل على تشتيت صفهم، والنيل من أعراضهم، ما فتئ هذا الصنف من البشر، يرمي عباد الله بشتى التهم، ويسلقهم بأبشع العبارات، بقصد تحطيم أي تجمع خيري لهم، وبث جذور الكراهية بين صفوفهم، وذلك لما تحمله قلوبهم من مرض، ولما تختزنه نفوسهم من حقد، ولما تكنه صدورهم من حسد وبغض لحملة هذا الدين.

وهذا النفر من القوم الصاد عن سبيل الله جاء القرآن الكريم بالتحذير منه، وبيان حقيقته، والتحذير من أثره خاصة في ميدان الجهاد، وساح القتال، قال تعالى: { لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالا وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ }

قال ابن كثير رحمه الله: { لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالا } أي: لأنهم جبناء مخذولون، { وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ } أي: ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة، { وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ } أي: مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي هذا إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير.

ونحن إذ نتكلم على هذا الصنف المذموم إنما نتكلم لبيان حقيقته، وليحذر منه المجاهدون، فلا تخلو ساحة جهاد من هذا الصنف المثبط، الذي طالما بث سمومه وأفكاره التي تقطر خبثاً في ساحات الجهاد للتثبيط، وبث روح الكراهية خاصة بين الأمراء والمأمورين، وذلك عن طريق بث الإشاعات وإذكاء نار القومية البغيضة، والضرب على وترها، ونشر الأقاويل، وإظهار العيوب، والترويج للزلات التي لا يخلو منها إنسان، وتعظيمها في عيون القادم الجديد للجهاد في سبيل الله، حتى ينفر من الجهاد والمجاهدين، وفاعل ذلك لا شك من أظلم الناس، فالصد عن سبيل الله، من أعظم الذنوب قال ابن حزم رحمه الله: ولا إثم بعد الكفر أعظم من إثم من نهى عن جهاد الكفار وأمر بإسلام حريم المسلمين إليهم.

وليعلم هذا النفر أن الله عز وجل يقول:{ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ}.

فعلى المجاهد القادم لنصرة دين الله أن يتنبه لهذه الشرذمة، ويحذر منها أيما حذر، ويترفع عن الترّهات التي يروج لها أعداء الجهاد، قال الشيخ الفقيه عبد الله عزام رحمه الله: انتبهوا يا إخوة، أولا انتبهوا للقيل والقال، لأن المرجفين يكثرون كلما اشتدت المعركة، والله عز وجل قال: لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم، هناك ناس طيبون بينكم هؤلاء الذين تخاف عليهم، أما هم.. خلاص هؤلاء الناس فسدت قلوبهم فأرادوا أن يفسدوا قلوب الناس، على من يفسدونهم.؟ يفسدون قلوب الناس على رب العالمين، يفسدون قلوب الناس على دين الله، يفسدون قلوب الناس حتى لا يطبق شرع الله، وإلا من المستفيد من عودة الشباب من أرض المعركة، من أرض الشرف، أرض البناء، أرض الرجولة أرض الطهر إلى حيث المصائب والمفاسد من كل مكان.اهـ

فصل: ولا يقتصر الأمر على المثبطين الموجودين بين الصفوف، ولكن الخطر أيضاً يأتي من أولئك الذين ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا أبواق سوء على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وخنجر طعن بيد أعداء هذه الأمة يطعنون به خاصرتها، سواء قصدوا ذلك أم لم يقصدوه، فهؤلاء القوم لا يقل خطرهم عن المتغلغلين داخل الصف، بل ربما كان خطرهم أشد فتكاً على الراغبين بنصرة هذا الدين، فمنابرهم، وإعلامهم، وقنواتهم ما فتئت تصد عن سبيل الله، وتثبط عن نصرة دين الله، ولكم أثنت الناس عن الجهاد في سبيل الله بشبهاتها التي تلقي بها بين العامة من الناس، فليحذر قارئ هذه الكلمات من مزاعم المبطلين، ونداءات المخذلين، ودعايات المرجفين، سواء المقروءة منها أو المسموعة، وليزن ما يقرأ وما يسمع بميزان الشرع، فالحق أحق أن يتبع، والرجال يعرفون بالحق، لا الحق يعرف بالرجال.

قال الشيخ أبو محمد المقدسي فك الله أسره في كتاب "وقفات مع ثمرات الجهاد": وإن الطواغيت في الكيد للدعاة والمجاهدين والسعي في الإضرار بهم ليسوا فقط جندهم وجلاديهم وعساكرهم ومخابراتهم ومباحثهم، بل أيضا من أنصارهم وأعوانهم علماء السوء الذين يحسدون الدعاة والمجاهدين على ما آتاهم الله من فضله من عزة ورفعة رفعهم الله بها ببركة رفعهم لراية توحيده، وخفض أولئك الذين أخلدوا إلى الأرض بتخلّيهم عنها وانحيازهم إلى عسكر السلطان، وقد رأى الناس كيف يُصدر أمثال هؤلاء في شاشات الفضائيات وتسخّر لهم صفحات الجرائد السلطانية، وتبذل لهم كافة الإمكانيات والامتيازات كي يشنوا غاراتهم على الدعاة والمجاهدين بشبه فاسدة ساقطة

مستهلكة قد اجتلناها بفضل الله في كتاباتنا في سالف الأزمان، ويرموهم بألقاب شنيعة يكرهها أهل الإسلام كالخوارج والفئة الضالة ونحوها من الأوصاف التي هم وأسيادهم أولى والله بها كما فصَّلنا في غير هذا الموضع.اهـ

فتنبه لما يُكاد لك، وتفطن لما يلقى لك من شبهات بين يدي الطريق، واعرف الحق تعرف أصحابه، ولا يغرنك الأسماء وعظيم وقعها في النفوس، فالطواغيت ومن دار في فلكهم لم يألوا جهداً في تلميع الصور، وإغداق الأموال دون حساب لصدك عن الطريق السوي الموصل إلى رضوان الله، ولإعاقتك عن مواصلة السير في طريق الخير، فتنبه لما يراد لك.

التذكرة التاسعة عشر في: التثبت والتبين وعدم نشر الشائعات ورد الأمر الى أهله.

إن مما لا شك فيه أنه يَعرض للمجاهد في ساحات الوغى، وميادين القتال من أصناف الشائعات، وفنون الأراجيف الشيء الكثير، وهذا واقع لا محالة في كل تجمع وهو مشاهد بالتجربة، ولهذا وذاك وحتى لا يختلط الحابل بالنابل، وتعم الفوضى، وتسود الفتنة، وتتقطع الأواصر، فقد أرشدنا رب العزة جل جلاله إلى الطريقة المثلى في التعامل مع ما يستجد من أمر لم يحط المرءُ بخباياه، ولم يوقف على كنه حقيقته، ولم يعلم سره وفحواه، ففي الآية السابق ذكرها نجد الأدب الذي يجب أن يسود، ونلمح الخلق الذي يجب أن يتمثله الناصح لنفسه، الحريص على نصرة هذا الدين، الراغب في قطع دابر الفتنة قبل أن تعم ويستفحل شرها.

إن الأدب الذي يجب أن يتحلى به المجاهد في مثل هذه الحالات، هو رد الأمر إلى أولي الأمر، إلى أهل العلم، إلى القادرين على استنباط الأحكام من مظانها، إلى ذاك النفر الذي أعطاه الله زمام القيادة، وحبل المعرفة.

قال تعالى: { وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا }.

إن متمعن النظر في هذه الآية الكريمة يدرك أن العتاب الرباني الذي جاء إنما جاء تأديباً لنفوس الذين ضعفوا، وزجراً لغيرهم، حتى لا يقعوا بمثل هذا الشراك الذي يزينه الشيطان، لتسود الفتن، وتعلوا الأراجيف، وينهار الصف، ويتفرق الجمع، وتتمكن البغضاء من النفوس، فلا يعد يرى المرء سوى ما يزينه الشيطان له.

قال الشيخ السعدي رحمه الله: هذا تأديب من الله لعباده، عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة، والمصالح العامة، ما يتعلق بالأمن، وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم، أن يتثبتوا، ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول، وإلى أولي الأمر منهم: أهل الرأي، والعلم والنصح، والعقل، والرزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها، فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين، وسروراً لهم، وتحرزاً من أعدائهم، فعلوا ذلك، وإن رأوا ما فيه مصلحة، أو فيه مصلحة، ولكن مضرته تزيد على مصلحته، لم يذيعوه، ولهذا قال: لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ، أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة، وعلومهم الرشيدة. وفي هذا دليل لقاعدة أدبية: وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور، ينبغي أن يولى من هو أهل لذلك، ويجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ، وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها. والأمر بالتأمل قبل الكلام، والنظر فيه: هل هو مصلحة، فَيقدِم عليه الإنسان؟ أم لا فيحجم عنه..؟.

فصل: واعلم أن التثبت كما قال الإمام ابن حبان: لو كان للعقل أبوان لكان أحدهما الصبر والآخر التثبت، وهو كما قال الطبري رحمه الله: وخصَّ الله بذلك القوم الذين يوقنون، لأنهم أهل التثبت في الأمور، والطالبون معرفة حقائق الأشياء على يقين وصحة.

وأما من يكثر من الحديث دون تمعن، ولا بحث، ولا نظر في العواقب، ويتبع القيل والقال، ولا يألوا جهداً في نشر الكلام هنا وهناك، فهذا أقرب إلى الحمق والبله كما قال ابن حبان أبو حاتم البستي رحمه الله في روضة العقلاء من علامات الحمق التي يجب للعاقل تفقدها ممن خفي عليه أمره: سرعة الجواب، وترك التثبت، والإفراط في الضحك، وكثرة الالتفات، والوقيعة في الأخيار، والاختلاط بالأشرار.

والتثبت مما يخطر في البال، وما تتناقله الألسن وترمي به هنا وهناك، يكون بسؤال أصحاب الشأن، ومراجعة أهل الاختصاص، وهذا ولا شك عنوان العقلاء، وشيمة أولي الألباب، وصفة أهل النهى والأحلام.

هذا وإن الفهم الذي يجب أن يسود بين أوساط أبناء الطائفة المجاهدة قبل الخوض في حديث ما وترداد ما يبث هنا، أو يصدح به هناك، هو التثبت مما يصل إليك من أقوال، والاحتياط فيما يروى من أخبار، وإمعان النظر فيما يصلك من أنباء، فرب كلمة من سخط الله تتكلم بها لا تلقي لها بالاً تهوي بها في جهنم والعياذ بالله، فتنبه لذلك يرعاك الله.

وقد ذم النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ذاك النفر الذي يلقي بالحديث جزافا من غير سند ولا تثبّت فقال: بئس مطية الرجل زعموا.

قال الخطابي رحمه الله في المعالم: وإنما يقال زعموا في حديث لا سند له ولا ثبت فيه، وإنما هو شيء حكي عن الألسن على سبيل البلاغ، فذم النبي صلى الله عليه و سلم من الحديث ما كان هذا سبيله، وأمر بالتثبت فيه والتوثق لما يحكيه من ذلك، فلا يروونه حتى يكون معزياً إلى ثبت ومروياً عن ثقة.

وثبت في الصحيحين عن المغيرة بن شعبة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن قيل وقال أي: الذي يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تَثَبُّت، ولا تَدبُّر، ولا تبَيُّن.

وقال ابن الجوزي رحمه الله في "صيد الخاطر"، مرغباً في التثبت وحاثاً على إمعان النظر فيما يطرأ من مسائل: ما اعتمد أحد أمراً إذا هم بشيء مثل التثبت، فإنه متى عمل بواقعة من غير تأمل للعواقب كان الغالب عليه الندم، ولهذا أمر الإنسان بالمشاورة لأن الإنسان بالتثبت يفتكر فتعرض على نفسه الأحوال وكأنه شاور... إلى أن قال: فالله الله، التثبت التثبت في كل الأمور والنظر في عواقبها خصوصاً الغضب المثير للخصومة...اهـ

فائدة: والواجب على المسلم أن لا يردد كل ما يسمع، ويترك القيل والقال، وكثرة السؤال، فقد صح عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم أنه قال: كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع.

قال النووي رحمه الله: معنى الحديث والآثار التي في الباب ففيها الزجر عن التحديث بكل ما سمع الإنسان، فإنه يسمع في العادة الصدق والكذب، فإذا حدث بكل ما سمع فقد كذب لإخباره بما لم يكن، وقد تقدم أن مذهب أهل الحق أن الكذب: الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو ولا يشترط فيه التعمد لكن التعمد شرط في كونه إثماً والله أعلم.

وإن كان الإنسان ولا بد قائلاً فليتثبت مما يقول، ولا ينقل إلا خيراً، ولا ينقل إلا ما يعقل إن كان هناك مصلحة في دين أو في دنيا، فهذا عمر الفاروق يوصي أصحابه قائلاً: أما بعد فإني قائل لكم مقالة قد قدِّر لي أن أقولها لا أدري لعلها بين يدي أجلي فمن عقلها ووعاها فليحدث بها حيث انتهت به راحلته ومن خشي أن لا يعقلها فلا أحل لأحد أن يكذب عليَّ.

فصل: وأعظم ما يكون ضرراً على الجهاد والمجاهدين هي تلك الأباطيل التي تنال من أعراض النافرين الى الجهاد وخاصة الأمراء منهم، بقصد تحطيم القيادات، وإيجاد هوة سحيقة بين الأمراء والمأمورين، فتنموا في النفوس الضغينة والبغضاء، ويتعاظم شررها حتى لا يكاد ينجو منها أحد، وهذا ولا شك ضرره شديدٌ على الجماعة المجاهدة، فلينتبه لذلك، وليأخذ كل مجاهد حذره من أولئك النفر، الذين ليس لهم شغلٌ سوى النيل من قادة الجهاد، وتشويه سمعتهم، وسواء كان فاعل هذا الفعل المشؤوم من داخل الصف أو من خارجه، ممن يرتع في أحضان الطواغيت وهو آمنٌ سالم مرضي عنه، واعلم أن الواجب في مثل هذه الحالة كما قال ابن كثير رحمه الله: إذا ذكر ما لا يليق من القول في شأن الخيرة فأولى ينبغي الظن بهم خيرا، وألا يشعر نفسه سوى ذلك، ثم إن عَلِق بنفسه شيء من ذلك – وسوسةً أو خيالاً – فلا ينبغي أن يتكلم به.

وإذا ما عرض لنافر في سبيل الله من ذلك شيء، فليبادر إلى أميره بالسؤال والاستفسار قاطعاً بذلك وساوس شياطين الإنس والله المستعان.

قال الشيخ الفقيه عبد الله عزام: أصلح نفسك، واحفظ لسانك، وأصلح ما بينك وبين ربك، وليس الحق هو الذي تراه أنت بنفسك، هنالك علم لا بد أن تسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، وفي المعركة تكثر– كما قلنا – الأراجيف: "وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به" لماذا فلان يعمل كذا..؟ ولماذا فلان يصرف كذا..؟ "ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه

الذين يستنبطونه منهم"، علمنا الله عز وجل كيف نقاوم الأراجيف في الحرب، أن نرجع للمسؤولين نسألهم ما هي القصة الفلانية ؟ فأصلحوا ما بينكم وبين الله حتى تحافظوا على ثوابكم.اه

فصل: ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم من أكثر الناس تثبتاً وتحرياً للصواب، فهذا الصديق رضي الله عنه يتثبت من المغيرة بن شعبة رضي الله عنه في ميراث الجدة، لما أخبره بقضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك ويقول له: هل معك غيرك، وهذا كما قال الإمام أبو الوليد الباجي شارح الموطأ على معنى التثبت وطلب تقوية غلبة الظن لا على معنى رد حديثه، لأن المغيرة من فضلاء الصحابة وفقهائهم فلا يرد حديث مثله.. إلى أن قال: فلما قال محمد بن مسلمة مثل ما قال المغيرة اتضح الأمر عنده رضي الله عنه ومن ثم أنفذه.

ومن ذلك أيضا ما رواه هشام عن أبيه عن المغيرة بن شعبة أن عمر استشارهم في إملاص المرأة يعنى: السقط، فقال له المغيرة: قضى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرة فقال له عمر: إن كنت صادقاً فائتِ أحداً يعلم ذلك قال: فشهد محمد بن مسلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى به.

ومن ذلك ما ثبت عن عبيد الله بن عمير قال: إن أبا موسى الأشعري استأذن على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلم يأذن له وكأنه كان مشغولاً، فرجع أبو موسى ففرغ عمر فقال: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس..؟ ائذنوا له، فانطلق إلى مجلس الأنصار فسألهم فقالوا: لا يشهد لك على هذا إلا أصغرنا: أبو سعيد الخدري، فذهب بأبي سعيد الخدري فقال عمر: أخفي علي من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ألهاني الصفق بالأسواق، يعني الخرج إلى تجارة، فقال عمر لأبي موسى: إني لم أتهمك، ولكن الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد، وفي رواية أخرى: أما إني لم أتهمك، ولكن خشيت أن يتقول الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا ريبَ أن أبا موسى رضي الله عنه ثقة مأمون عند عمر وعند جميع المسلمين وهو أجل من أن يُظَنّ به جَرْحٌ، ولكن التشريع وسن السنن يقتضي أن يقوم عمر بمثل ما قام به، لينتبه ويحتاط من حوله ممن لم يرسخ الإسلام في قلوبهم لحداثة عهدهم به، وأن يقبل أبو موسى وغيره من الصحابة معاملة أبي بكر وعمر للحرص على أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليتحرى من يجيء من التابعين وتابعي التابعين ومن يأتي بعدهم من العلماء.

والله وحده المسؤول أن يرزقنا حسن التثبت، وأخذ الاحتياط في كل ما يقال، ورد الأمر إلى أهل الاستنباط، أهل العلم والسداد، حتى لا تكون فتنة، وتمضي القافلة بيسر وأمان إلى شاطئ السلام.

التذكرة العشرون في: حتمية الابتلاء والامتحان لأهل الحق وأن لا جنة بغير ذلك.

إن مما يجب أن يوطن المجاهد نفسه عليه ويعتاد، وقد ارتضى لنفسه طريق الهجرة والجهاد، الصبر على مشقة هذا الدرب الذي سلكه، وتحمل الابتلاء والامتحان المصاحب له في رحلته الطويلة لإقامة خلافة الله في الأرض، فالابتلاء والمحن سنن ربانية لا تتغير، ونواميس كونية لا تتبدل، هكذا أراد وقدر مبدع هذا الكون وبارئه لحاملي الرسائل السماوية، ومبلغي الأمانة الربانية، فهو طريق واحد لابد أن يعبر من خلاله كل مؤمن حمل دعوة، أو كُلف بتبليغ رسالة، أو أراد أن يصنع مجداً لأُمته، أو ينشر مبدأ أو ينهض بأُمة.

ولقد أصاب جيل الإسلام الأول من المحن والأرزاء ما أصاب، ونزل فيهم من الآيات ما نزل، وقد اشتدت بهم عواصف المحن، ونالت منهم جراحات الأعداء، وحاصرتهم أمواج الكفر، تثبيتاً لهم وتصبيراً، ومواساةً لهم وتسليةً، وتعليماً وإرشاداً لمن يأتي بعدهم، ليتأسوا بهم ويقتفوا أثرهم بالصبر والمصابرة، ففي غزوة الخندق نزل قوله تعالى: { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ }.

قال شيخ المفسرين الإمام الطبري: أم حسبتم أنكم أيها المؤمنون بالله ورسله تدخلون الجنة، ولم يصبكم مثل ما أصاب من قبلكم من أتباع الأنبياء والرسل من الشدائد والمحن والاختبار، فتُبتلوا بما ابتُلوا واختبروا به من"البأساء"- وهو شدة الحاجة والفاقة "والضراء" وهي العلل والأوصاب " ولم تزلزلوا زلزالهم" يعني: ولم يصبهم من أعدائهم من الخوف والرعب شدة وجهدٌ حتى يستبطئ القوم نصر الله إياهم، فيقولون: متى الله ناصرنا.؟ ثم أخبرهم الله أن نصره منهم قريبٌ، وأنه مُعليهم على عدوِّهم، ومظهرهم عليه، فنجَّز لهم ما وعدهم، وأعلى كلمتهم، وأطفأ نار حرب الذين كفروا.

وفي غزوة أحد نزل قوله تعالى: { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ }. قال القرطبي رحمه الله: أحسبتم يا من انهزم يوم أحد أن تدخلوا الجنة كما دخل الذين قتلوا وصبروا على ألم الجراح والقتل من غير أن تسلكوا طريقهم وتصبروا صبرهم لا، حتى "يعلم الله الذين جاهدوا منكم"، أي علم شهادة حتى يقع عليه الجزاء.

وقال سبحانه وتعالى في موطن آخر مشيراً فيه إلى حقيقة طريق الدعوة والجهاد: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}.

قال الطبري رحمه الله: هذا إخبار من الله أتباعَ رسوله صلى الله عليه وسلم، أنه مبتليهم وممتحنهم بشدائد من الأمور، ليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، كما ابتلاهم فامتحنهم بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وكما امتحن أصفياءَه قَبلهم.

وعن ابن عباس في قوله تعالى: "ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع"، ونحو هذا، قال: أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دارُ بلاء، وأنه مبتليهم فيها، وأمرَهم بالصبر وبَشّرهم فقال:"وبشر الصابرين"، ثم أخبرهم أنه فعل هكذا بأنبيائه وصفوته، لتطيب أنفسهم فقال: "مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا".

وفي معنى هذه الآيات في القرآن الكريم كثير، والمقصود مما سبق ذكره أن الابتلاء والامتحان حاصل لا شك لكل مؤمن، بل هو ملازم له في كل موطن قال صلى الله عليه وسلم: مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميله، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد.

قال النووي رحمه الله: قال العلماء معنى الحديث أن المؤمن كثير الآلام في بدنه أو أهله أو ماله، وذلك مكفر لسيئاته ورافع لدرجاته، وأما الكافر فقليلها وإن وقع به شيء لم يكفر شيئاً من سيئاته بل يأتي بها يوم القيامة كاملة.

فلا بد من الابتلاء، ولا بد من المحنة، ولا بد من التكاليف، ومن لم يذق طعم الابتلاء في الدنيا، ومن لم يعايشه ويأخذ نصيبه منه في هذه الحياة، ويكابد مشاقه، ويتجرع غصصه فالذي ينتظره عظيم، والحساب لا شك عسير.

قال ابن القيم رحمه الله: فالناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين إما أن يقول أحدهم: آمنت أو لا يؤمن بل يستمر على السيئات والكفر، ولابد من امتحان هذا وهذا، فأما من قال: آمنت فلا بد أن يمتحنه الرب ويبتليه ليتبين: هل هو صادق في قوله آمنت أو كاذب، فإن كان كاذباً رجع على عقبيه وفر من الامتحان كما يفر من عذاب الله، وإن كان صادقاً ثبت على قوله ولم يزده الابتلاء والامتحان إلا إيماناً على إيمانه قال تعالى: ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما. وأما من لم يؤمن فإنه يمتحن في الآخرة بالعذاب، ويفتن به وهي أعظم المحنتين هذا إن سلم من امتحانه بعذاب الدنيا ومصائبها وعقوبتها التي أوقعها الله بمن لم يتبع رسله وعصاهم، فلابد من المحنة في هذه الدار، وفي البرزخ، وفي القيامة لكل أحد، ولكن المؤمن أخف محنة وأسهل بلية، فإن الله يدفع عنه بالإيمان، ويحمل عنه به، ويرزقه من الصبر والثبات والرضى والتسليم ما يهون به عليه محنته.

فصل: لقد شاء الله عز وجل واقتضت حكمته، أن يبتلي عباده تارة بالسراء وأخرى بالضراء، لتتميز الصفوف، وتظهر حقائق النفوس، فتحت محك الاختبار ووطأة الابتلاء والامتحان، تفصح الأعمال عن لسان الحال، وتتكلم المواقف وتظهر الحقائق، وتتبين طبيعة معادن الرجال، فيظهر المنتفع، ويَبين المنافق، ويُعلم مدعي الإيمان، ويتميز الخبيث من الطيب كما قال تعالى: { مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ }. قال الأستاذ المعلم سيد قطب رحمه الله في ظلاله القيم: ولقد شاءت حكمة الله وبره بالمؤمنين أن يميزهم من المنافقين، الذين اندسوا في الصفوف تحت تأثير ملابسات شتى ليست من حب الإسلام في شيء. فابتلاهم الله هذا الابتلاء – في أحد بسبب من تصرفاتهم وتصوراتهم ليميز الخبيث من الطيب عن هذا الطريق: ما كان الله ليذر المؤمنين الآية.. ويقطع النص القرآني بأنه ليس من شأن الله – سبحانه – وليس من مقتضى ألوهيته وليس من فعل سنته أن يدع الصف المسلم مختلطاً غير مميز، يتوارى المنافقون فيه وراء دعوى الإيمان ومظهر الإسلام بينما قلوبهم خاوية من بشاشة الإيمان ومن روح الإسلام.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: لكن بما اقتضته حكمته ومضت به سنته من الابتلاء والامتحان، الذي يخلص الله به أهل الصدق والإيمان من أهل النفاق والبهتان، إذ قد دل كتابه على أنه لابد من الفتنة لكل من الداعي إلى الإيمان، والعقوبة لذوي السيئات والطغيان، قال الله تعالى: ألم

أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين. أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون .

فصل: واعلم أن الابتلاء عادة ما يكون على قدر الإيمان، فكلما زاد المؤمن في إيمانه عظم ابتلاؤه، وزيد له في المحنة، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب (وفي رواية: قدر) دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة.

قال الحافظ: الأمثل أفعل من المثالة والجمع أماثل وهم الفضلاء، وقال ابن الملك: أي الأشرف فالأشرف، والأعلى فالأعلى رتبة ومنزلة يعني: من هو أقرب إلى الله بلاؤه أشد ليكون ثوابه أكثر.

ولا شك أن المجاهدين هم أكثر الناس ابتلاءً، حيث أنهم يتربعون على قمة سنام هذا الدين، وطاعتهم الخاصة التي يتقربون بها إلى الله من أشق العبادات على النفس البشرية، وهذا ولا ريب – ولا نزكي أحداً على الله – مجلبةٌ للابتلاء، ومظنةٌ للتكاليف، فحري بكل نافر إلى الله يبغي نصرة دينه أن يتفطن لذلك، ويُعَود نفسه على تحمل المشاق، فعلى هذا الطريق قد يتعرض المجاهد لفقد بعضٍ من أطرافه، وقد ينال منه أعداء هذا الدين فيقع أسيراً بين أيديهم، وقد ينال منه الجوع والعطش والبرد، وتتقطع به السبل حتى يقرب من اليأس، فالطريق طويل عسر شاق ولابد لمن يسعى لإقامة دين الله في الأرض أن يوطن نفسه على ذلك، ويستحلي مرارة هذا الطريق الدامي قال الشيخ المجاهد عبد الله عزام: قضت إرادة الله عز وجل أن هذا الدين لا يبنى إلا من خلال جهود البشر، والمجتمعات لا تشاد إلا من جماجمهم وأجسادهم، وبقدر الجهود التي تصب على طريق هذا الدين، وعلى مقدار الآلام التي تتجرع على جادته، وبموازاة الغصص التي تبتلع أثناء السير على طريقه تكون النتيجة بجانب الصف المؤمن وحزب الله المفلح، ودين الله عز وجل لا يمكن أن ينتصر بخوارق من السماء، فلابد من جهود البشر ومن الابتلاء، ولو أعفى الله عز وجل أحداً من ضرائب التضحيات لأعفى منها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام... دين الله ينتصر بقدر ما يقدم له البشر من جهود، وبقدر ما تراق على طريقه من دماء، وبقدر ما تتساقط على جانبيها من أشلاء.اهـ

فصل: ولا يظهر صدق الإيمان إلا في مواطن الجهاد، إلا في مواطن مناجزة الطاغوت، إلا في مواطن الصدع بكلمة الحق في وجوه الأرباب البشرية، ففي هذه المواطن تظهر حقيقة الإيمان، وتظهر علامات الصدق مع الله قال شيخ الإسلام رحمه الله: أنكر سبحانه على من يظن أن أهل السيئات يفوتون الطالب، وأن مدعي الإيمان يتركون بلا فتنة تميز بين الصادق والكاذب، وأخبر في كتابه أن الصدق في الإيمان لا يكون إلا بالجهاد في سبيله فقال تعالى: قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا إلى قوله إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون.

فلا يعرف صدق الإنسان من كذبه من خلال حفظ الكتب والمتون والحواشي كما قال الشيخ عبد الله عزام، بل لابد من محنة، لابد من الابتلاء، لابد من التضحية، لابد من جهاد... حتى تصبح النفس قادرة على تحمل مسؤولية هذا الدين.

فصل: وأما ما يَعرض للمجاهدين في سبيل الله في بعض الأحايين، من ظهور عدوهم، وعلو شوكته، ورجحان كفته، وقهره للفئة المؤمنة، فإنما ذلك لحكم جليلة لا يعلمها على التفصيل إلا العلي القدير، ومن هذه الحكم كما قال ابن القيم: استخراج عبوديتهم وذلهم لله وانكسارهم له، وافتقارهم إليه وسؤاله نصرهم على أعدائهم ولو كانوا دائما منصورين قاهرين غالبين لبطروا وأشروا، ولو كانوا دائما مقهورين مغلوبين منصوراً عليهم عدوهم لما قامت للدين قائمة ولا كانت للحق دولة، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن صرفهم بين غلبهم تارة وكونهم مغلوبين تارة، فإذا غلبوا تضرعوا إلى ربهم، وأنابوا إليه، وخضعوا له، وانكسروا له، وتابوا إليه، وإذا غلبوا أقاموا دينه وشعائره، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وجاهدوا عدوه، ونصروا أولياءه.

ومنها: أنهم لو كانوا دائما منصورين غالبين قاهرين لدخل معهم من ليس قصده الدين ومتابعة الرسول، فإنه إنما ينضاف إلى من له الغلبة والعزة، ولو كانوا مقهورين مغلوبين دائما لم يدخل معهم أحد، فاقتضت الحكمة الإلهية أن كانت لهم الدولة تارة، وعليهم تارة فيتميز بذلك بين من يريد الله ورسوله، ومن ليس له مراد إلا الدنيا والجاه.

ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء، وفي حال العافية والبلاء، وفي حال إدالتهم والإدالة عليهم، فلله سبحانه على العباد في كلتا الحالين عبودية بمقتضى

تلك الحال لا تحصل إلا بها، ولا يستقيم القلب بدونها كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد، والجوع والعطش، والتعب والنصب وأضدادها، فتلك المحن والبلايا شرط في حصول الكمال الإنساني، والاستقامة المطلوبة منه ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع.

ومنها: أن امتحانهم بإدالة عدوهم عليهم يمحصهم ويخلصهم ويهذبهم كما قال تعالى في حكمة إدالة الكفار على المؤمنين يوم أحد: ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله إلى قوله وسيجزي الله الشاكرين.

فذكر سبحانه أنواعاً من الحكم، التي لأجلها أديل عليهم الكفار بعد أن ثبتهم وقواهم وبشرهم بأنهم الأعلون بما أعطوا من الإيمان، وسلاهم بأنهم وإن مسهم القرح في طاعته وطاعة رسوله، فقد مس أعداءهم القرح في عداوته وعداوة رسوله، ثم أخبرهم أنه سبحانه بحكمته يجعل الأيام دولاً بين الناس، فيصيب كُلاً منهم نصيبه منها كالأرزاق والآجال، ثم أخبرهم أنه فعل ذلك ليعلم المؤمنين منهم، وهو سبحانه بكل شيء عليم قبل كونهم وبعد كونهم، ولكنه أراد أن يعلمهم موجودين مشاهدين فيعلم إيمانهم واقعاً، ثم أخبر أنه يحب أن يتخذ منهم شهداء فإن الشهادة درجة عالية عنده، ومنزلة رفيعة لا تنال إلا بالقتل في سبيله، فلولا إدالة العدو عليهم لم تحصل درجة الشهادة التي هي من أحب الأشياء إليه وأنفعها للعبد، ثم أخبر سبحانه أنه يريد تمحيص المؤمنين أي تخليصهم من ذنوبهم بالتوبة والرجوع إليه، واستغفاره من الذنوب التي أديل بها عليهم العدو، وأنه مع ذلك يريد أن يمحق الكافرين ببغيهم وطغيانهم وعدوانهم إذا انتصروا، ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم دخول الجنة بغير جهاد، ولا صبر، وأن حكمته تأبى ذلك، فلا يدخلونها إلا بالجهاد والصبر، ولو كانوا دائما منصورين غالبين لما جاهدهم أحد، ولما ابتلوا بما يصبرون عليه من أذى أعدائهم.

فهذه بعض من تلك الحكم العظيمة النفع، الجليلة القدر، العزيزة الشأن، التي من أجلها يبتلي الله عباده المؤمنين، ساقها العلامة ابن القيم رحمه الله، وما علينا إلا التسليم لأمر الله، وما خفي عن أذهان البشر، وغاب عن الأفكار، لا شك كان أعظم وأجل.

فائدة: ومن الجدير ذكره في هذا المقام أن يدرك أصحاب الدعوات، أن التمكين للمؤمنين في الأرض لابد أن يسبقه ابتلاء ومحن، وهذا مصداق قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا

لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ }، وقد سئل الإمام الشافعي رحمه الله أيما أفضل، أن يُمكَّن العبد أَم يبتلى؟ قال: لا يُمكَّن حتى يبتلى.

وفي نفس المعنى يقول الشيخ عبد الله عزام رحمه الله: إن نصر الله لا يتنزل إلا بعد طول البلاء وشدة المحنة، {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب.}، فالذين ينتظرون أن يتنزل النصر عليهم وراء مكاتبهم، وهم جالسون على مقاعدهم، هؤلاء لا يدركون سنة الله في المجتمعات ولا قانونه في الدعوات.

إن الأفغانيين قد قدموا حتى الآن بين مليون إلى أكثر من مليون ومائتي ألف شهيد، ولم يصلوا إلى نصرة دين الله بعد، ولم يتمكنوا من إقامة شرعه في الحياة.اهـ

وعلى المجاهد في سبيل الله أن يوطن نفسه على احتساب أجره عند الله في كل صغيرة وكبيرة، حتى لا يفوته الأجر والثواب، فالجهاد بابٌ عظيم من أبواب الخير، ومظنةٌ عظيمةٌ من مظان جلب الحسنات.

والاحتساب جديرٌ أن يخفف عن صاحبه كل ما يجد في هذا الطريق من آلام ومحن وابتلاء، فاستشعاره لا شك جالبٌ للسعادة، رافعٌ للمعنويات، مبهجٌ للنفس، نسأل الله العلي العظيم أن يرزقنا وقارئ هذه الورقات حقيقته.

التذكرة الحادية والعشرون في قول الإمام علي رضي الله عنه: حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله..؟!

إن من الأمور التي يجب أن يدرك كنه أمرها كل داعية إلى الله، أن مخاطبة الناس بما يعقلون كراهة عدم الفهم والإحاطة أمرٌ مطلوب شرعاً، ومقصدٌ محمود من مقاصد الشريعة، وهو أصلٌ مهم في فقه البلاغ والدعوة، بل هو عمل العقلاء، وديدن الفقهاء، وشيم الأذكياء، ولعظيم شأن هذا المقصد، وجليل قدره فقد بوب له البخاري في صحيحه فقال: باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن

يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه، ثم ساق حديث عائشة رضي الله عنها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عائشة لولا قومك حديث عهدهم – قال ابن الزبير: بكفر — لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين، باب يدخل الناس، وباب يخرجون.

قال صاحب الفتح رحمه الله: ويستفاد منه ترك المصلحة لأمن الوقوع في المفسدة، ومنه ترك المنكر خشية الوقوع في أنكر منه.

وقال المهلب: فيه أنه قد يترك شيئًا من الأمر بالمعروف إذا خشي منه أن يكون سبباً لفتنة قوم ينكرونه ويسرعون إلى خلافه واستبشاعه.

وبوب البخاري رحمه الله باب آخر في نفس المعنى فقال: باب من خصَّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا، ثم أورد قول علي رضي الله عنه: حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله..؟!

قال صاحب الفتح رحمه الله: فيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة.

ومثله ما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال: ما أنت بمحدث قوما حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة.

قال الشاطبي رحمه الله: ليس كل ما يعلم مما هو حق يطلب نشره إن كان من علم الشريعة ومما يفيد علماً بالأحكام، بل ذلك ينقسم: فمنه ما هو مطلوب النشر، وهو غالب علم الشريعة، ومنه ما لا يطلب نشره بإطلاق، أو لا يطلب نشره بالنسبة إلى حال أو وقت أو شخص.

وعليه فمخاطبة الناس بما تدركه عقولهم، وتستوعبه أفهامهم، وتعقله قلوبهم، أمرٌ مطلوبٌ شرعاً، ولا شك في ذلك، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى حرمة تحديث الناس بما لا يعقلون، مهابة أن يقعوا في الفتنة، ومخافة إنزال الكلام على غير وجهه المطلوب، أو تحميله ما لا يحتمل، قال ابن عقيل رحمه الله: يحرم إلقاء علم لا يحتمله السامع، لاحتمال أن يفتنه . وقال ابن الجوزي: ولا ينبغي أن يملي ما لا يحتمله عقول العوام.

فصل: إن مقتضى الواقع قد يفرض على الداعية نوعاً معيناً من الخطاب، قد تقتضيه مصلحة الدعوة، وتفرضه أفهام الناس، ونظرتهم للواقع، والتأثيرات التي تحيط بهم، فما قد يقال في

موطن معين، قد لا يقال في موطن آخر، وما يصرح به في مقام ما، قد لا يصرح به في مقام آخر، وربما يكتفي الداعية بالتلميح والإشارة دون التصريح المباشر، حسب ما تقتضيه طبيعة الحال، وأفهام الرجال، فقد روى البخاري في صحيحه عن أنس أنه قال ذكر لي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ: من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، قال: ألا أُبشر الناس، قال: لا إني أخاف أن يتكلوا.

قال ابن بطال في شرح البخاري، قال المهلب رحمه الله : فيه أنه يجب أن يُخَصَّ بالعلم قوم لما فيهم من الضبط وصحة الفهم، ولا يبذل المعنى اللطيف لمن لا يستأهله من الطلبة ومن يخاف عليه الترخص والاتكال لقصير فهمه، كما فعل صلى الله عليه وسلم.

ومما يجب أن يعلم في هذا الباب، أن مخاطبة الناس يجب أن تكون بلغة سهلة سلسة، يسهل على المخَاطَب فهمها واستيعابها، بعيداً عن التحديث بالشواذ من الكلام، والمستغربات من القول، ويجب أن يراعى في مخاطبة الناس الفروقات المذهبية في الفروع، فذلك أجلب للقبول، وأدعى للامتثال، وأسرع للموافقة والأخذ.

ومما ينبغي أيضاً في معلم الناس الخير، أن يتفطن لحال السائل، فإن رأى منه عدم القدرة على الاستيعاب، وربما حمل الكلام على غير وجهه، أعرض عن إجابته كما قال ابن القيم رحمه الله: إن كان عقل السائل لا يحتمل الجواب عما سأل عنه، وخاف المسؤول أن يكون فتنة له أمسك عن جوابه. ونحوه قال النووي رحمه الله في المجموع. والغزالي في إحياء علوم الدين.

فصل: وهذه جملة مختارة من هدي السلف رحمهم الله، في كيفية تحديث الناس، ومخاطبتهم بما يعقلون، حتى لا يكذب الله ورسوله، وتتم مصلحتهم في الدنيا والآخرة.

فقد روى مسلم في صحيحه عن قزعة قال: أتيت أبا سعيد الخدري وهو مكثور عنده، أي: عنده ناس كثيرون، فلما تفرق الناس عنه قلت: أسألك عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما لك من ذلك خير، فأعاد عليه فأجابه. وذكر الحديث.

قال النووي رحمه الله: معناه أنك لا تستطيع الإتيان بمثلها لطولها وكمال خشوعها، وإن تكلفت ذلك شق عليك ولم تحصله فتكون قد علمت السنة وتركتها.

وروى الحاكم في تاريخه بإسناده عن أبي قدامة عن النضر بن شميل قال: سئل الخليل عن مسألة فأبطأ بالجواب فيها قال: فقلت ما في هذه المسألة كل هذا النظر قال: فرغت من المسألة وجوابها ولكني أُريد أن أُجيبك جواباً يكون أسرع إلى فهمك قال أبو قدامة: فحدثت بها أبا عبيدة فَسُرَّ به.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنه لمن سأله عن قوله تعالى: الله الذي خلق سبع سموات.. الآية، فقال ما يؤمنك أني لو أخبرتك بتفسيرها لكفرت وكفرك تكذيبك بها، وقال لمن سأله عن قوله تعالى: تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.. هو يوم أخبر الله به، الله أعلم به، ومثل هذا كثير عن السلف.

والله وحده المسؤول أن يوفقنا ويوفق عباده المجاهدين لمخاطبة الناس بما يعقلون، والإسرار لهم بما يستوعبون، وتحديثهم بما يفهمون، فهذه الخصلة الحميدة قد أجمع عليها الخلف والسلف كما قال الشيخ الفقيه عبد الله عزام رحمه الله.

التذكرة الثانية والعشرون في قوله صلى الله عليه وسلم: الدين النصيحة، قلنا لمن يا رسول الله قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

اعلم أيها النافر إلى الله تبغي نصرة دينه، وترنو ببصرك نحو التمكين لشريعته، أن بذل النصح للمسلمين هو من آكد الواجبات، وأعظم القربات التي يتقرب بها العبد إلى ربه، وهي مما ينبغي أن تكون خلقاً لكل مسلم تلازمه في حله وترحاله.

وهي – أي بذل النصيحة– من خلق الأنبياء والمرسلين، ومن شيمة الصالحين، وديدن الصادقين قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: { أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ }، وقال على لسان صالح عليه السلام: { فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ } وفي مثل هذا كثير في كتاب الله، ولمكانتها العظيمة في الإسلام ومنزلتها الجليلة، فقد وصفها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بأنها الدين، فقال: الدين النصيحة.. أي: عماد الدين وقوامه النصيحة كما قال السيوطي رحمه الله، وقال النووي رحمه الله: هذا حديث عظيم الشأن وعليه مدار الإسلام... وأما ما قاله جماعات من العلماء أنه أحد أرباع الإسلام أي أحد الأحاديث الأربعة التي تجمع أمور الإسلام فليس كما قالوه بل المدار على هذا وحده.

ومعنى النصيحة كما قال الخطابي: كلمة جامعةٌ معناها حيازة الحظ للمنصوح له وليس في كلام العرب كلمة مفردة يستوفي بها العبارة غير معناها، كما أنه ليس في كلامهم كلمةً أجمع لخير الدنيا والآخرة من لفظ الصلاح، وأخذها من نصح الرجل ثوبه خاطه شبه فعل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح له بما يسنده من خلل الثوب، وقيل من نصحت العسل إذا صفيته من الشمع شبه به تخليص القول من الغش.

فصل: والنصيحة لكتاب الله تكون كما قال أهل العلم، بتعلمه وتعليمه، وتفهمه وإقامة حدوده، والعمل بما جاء فيه، والنصيحة لرسوله صلى الله عليه وسلم تكون بتعظيمه وتعظيم سنته وتعلمها وتعليمها وإحيائها بين الناس، والاقتداء بأقواله وأفعاله، والنصيحة للأئمة المسلمين تكون بإعانتهم على ما حمَّلهم الله من أمانة، وطاعتهم في غير المعصية، وتنبيههم عند الغفلة، وسد خلتهم عند الهفوة، وجمع الكلمة عليهم، ورد القلوب النافرة إليهم، ودفعهم عن الظلم بالتي هي أحسن، والنصيحة للمسلمين تكون بإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم، وإعانتهم عليها، وستر عوراتهم، وسد خلاتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع لهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص والشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم، وتخولهم بالموعظة الحسنة، وترك غشهم وحسدهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير، ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه، والذب عن أموالهم وأعراضهم، وغير ذلك من أحوالهم بالقول والفعل.

وقد اختلف أهل العلم في حكم النصيحة فمنهم من ذهب على أنها فرض عين على كل مسلم كما قال ابن حزم رحمه الله في رسالة الجامع، وكذلك المالكية قالوا بوجوبها كما نقل ذلك

القاضي عياض رحمه الله في الشفا، ومنهم من قال أنها فرض كفاية كابن بطال المالكي رحمه الله ذكر ذلك في شرحه لصحيح البخاري، والله أعلم.

فصل: واعلم أيها الناصح لنفسك وللمسلمين، أن للنصيحة هيئةً وآداباً يجب أن يتحلى بها الناصح حتى يحظى بالقبول، ويلقى الإيجاب، فجرعة النصيحة كما قال ابن الأزرق المالكي رحمه الله مُرَّةٌ ولا يقبلها إلا أُولو العزم ومن تلك الآداب:

أن تقصد وجه الله عز وجل فيما أنت مقدم عليه من واجب، فلا يكون لنفسك حظ فيما تقول، ولا مصلحة دنيوية ترنو ببصرك إليها.

ومنها أيضاً: أن يتفقد أخاه بالنصيحة سراً، فلا يكلمه بحضرة الناس، ولا يصرخ به على الملأ، قال الإمام الشافعي رحمه الله: من نصح أخاه بين الناس فقد شانه، ومن نصح أخاه فيما بينه وبينه فقد ستره وزانه.

وقال الحافظ ابن رجب: وكان السلف إذا أرادوا نصيحة أحد وعظوه سراً حتى قال بعضهم من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما وبخه، وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: المؤمن يستر وينصح والفاجر يهتك ويعير.

ومنها: التلطف في النصح، واللين في القول، وخفض الجناح بالحديث دون استعلاء وفخر، قال الإمام ابن حزم رحمه الله: إذا نصحت ففي الخلاء وبكلام لين، ولا تسند سب من تحدثه إلى غيرك فتكون نماماً، فإن خشنت كلامك في النصيحة فذلك إغراء وتنفير. وقد قال تعالى: "فقولا له قولاً ليناً"، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تنفر ".

ومنها كذلك: أن لا تكون النصيحة على شرط القبول والإيجاب قال الإمام ابن حزم رحمه الله: ولا تنصح على شرط القبول منك، فإن تعديت هذه الوجوه، فأنت ظالم لا ناصح، وطالب طاعة لا مؤدي حق ديانة وأخوة، وليس هذا حكم العقل ولا حكم الصداقة، ولكن حكم الأمير مع رعيته والسيد مع عبيده.

ومنها: أن يكون عالماً بما ينصح به محيطاً بأسراره، مطلعاً على حكم الشرع فيما هو مقدم عليه من أمر النصيحة، قال شيخ الإسلام رحمه الله: والقيام بالواجبات من الدعوة الواجبة وغيرها

يحتاج إلى شروط يقام بها كما جاء في الحديث: ينبغي لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن يكون فقيهاً فيما يأمر به فقيهاً فيما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به حليماً فيما ينهى عنه. فالفقه قبل الأمر ليعرف المعروف وينكر المنكر، والرفق عند الأمر ليسلك أقرب الطرق إلى تحصيل المقصود، والحلم بعد الأمر ليصبر على أذى المأمور المنهي فإنه كثيراً ما يحصل له الأذى بذلك.

فائدة: ولا يشترط في الناصح أن يكون أكثر علماً من المشفق عليه بالنصيحة، ولا أعظم جاهاً ومنزلةً من الباذل له النصح، ولا أتم عدالةً وأعظم ديناً من المنصوح: قال الشيخ القدوة عبيد الله إسحاق العلثي، في مقدمة رسالة مناصحة لأخيه الإمام عبد الرحمن بن الجوزي: لو كان لا ينكر من قل علمه على من كثر علمه إذاً لتعطل الأمر بالمعروف، وصرنا كبني إسرائيل حيث قال تعالى: "كَانُوْا لاَ يَتَنَاهُوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ "، بل ينكر المفضول على الفاضل وينكر الفاجر على الولي.

ولا يقتصر الأمر على ما ذكرنا، بل على الفساق أن ينهى بعضهم بعضاً عن الفسق كما قال القرطبي رحمه الله: قال حذاق أهل العلم: وليس من شرط الناهي أن يكون سليماً عن المعصية بل ينهى العصاة بعضهم بعضا.

وقال بعض الأصوليين: فرض على الذين يتعاطون الكؤوس أن ينهى بعضهم بعضاً واستدلوا بهذه الآية، قالوا: لأن قوله: "كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه " يقتضي اشتراكهم في الفعل وذمهم على ترك التناهي.

ولا يمنعنك من إسداء النصيحة الرغبة في نيل الوجاهة، أو الحفاوة والتقدير، أو الرضى وعلو المنزلة ممن ترجو نصحه إن كان صاحب جاه وسلطة، ولا يحولن بينك وبين إسداء النصيحة قرب المنصوح منك، ورغبتك في الإبقاء على وده ومحبته، وطمعك في المحافظة على حبه وصداقته، بل إن عنوان محبتك له هو نصحه وإرشاده للخير، وتجنيبه الزلل، فهذا من أدنى حقوق صحبته، وأقل ما توجبه الأخوة بينكم فتنبه لذلك يرعاك الله.

واعلم أن الإعراض عن بذل النصيحة والمبادرة بالنصح معناه هلاك الجميع كما قال شيخنا أسامة بن لادن تقبله الله وأعلى منزلته في عليين في إحدى رسائله: فلا يستقيم أمر الدين إلا بالنصح

وإلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحمّل كل المخاطر في سبيل هذا الدين، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر. هذا كله حتى يستقيم الدين.

وحال هؤلاء الذين يعرّضون أنفسهم للمخاطر من أجل أن يستقيم الدين كحال أناس في سفينة، يسير بها قائدها إلى هاوية سحيقة في مجرى نهر، فهذا يريد أن ينصح القائد وهؤلاء من خوفهم يقولون له، "إذا نصحته سيقتلك لا تنصحه!"، فالحاصل أن الجميع سيذهبون إلى تلك الهاوية.

فصل: ولقد كان عظماء هذه الأمة في القديم والحديث أكثر الناس حرصاً على طلب النصيحة، وكانوا يفرحون بها أيما فرح فهذا الفاروق رضي الله عنه يقول: لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها.

وعن الحسن قال: قال رجل لعمر رضي الله عنه: اتق الله يا أمير المؤمنين، فوالله ما الأمر كما قلت، قال: فأقبلوا على الرجل فقالوا: لا تألت — لا تنتقص – أمير المؤمنين، فلما رآهم أقبلوا على الرجل قال: دعوهم فلا خير فيهم إذا لم يقولوها لنا، ولا خير فينا إذا لم تقل لنا.

وعن سفيان بن عيينة قال: قال عمر بن الخطاب: أحب الناس إلي من رفع إلي عيوبي.

وقال ميمون بن مهران: قال لي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: قل لي في وجهي ما أكرهه، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكرهه.

فهذه سيرة خير الناس بين يديك، فيها عبرةٌ وعظةٌ فتأملها لعل الله ينفعك بها، وإياك والاستنكاف عن قبول النصيحة، أو التكبر عليها، فهذا ما لا تحمد عقباه، والله الهادي إلى سواء السبيل.

التذكرة الثالثة والعشرون في: قتل القيادات وكيفية التعامل مع الحدث.

إن مما يجب أن يرسخ في قلب كل مجاهد في سبيل الله ويصبح جبلةً ملازمةً له، وخلقاً يتخلق به أين ما حل وارتحل، أن دين الله عز وجل ليس مرتبطاً بالأشخاص، وليس قائماً على الهيئات مهما علا شأنها، وذاع صيتها، بل هو دينٌ قائمٌ بذاته منصورٌ لا محال، لا ينتكس بموت داعية، ولا يشوبه الوهن باستشهاد قائد، قد تكفل الله عز وجل بنصره والتمكين له قال تعالى: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (8) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ }.

ولقد وعظنا عز وجل في كتابه الكريم وبيَّن لنا حقيقة العمل لهذا الدين، وأن هذا الدين ليس مرتبطاً بشخص، حتى لو كان ذاك الشخص هو أكرم الخلق أجمعين سيدنا الكريم على الله محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وسلم فقال منبهاً ومذكراً ومرشداً: { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ الله شَيْئًا وَسَيَجْزِي الله الشَّاكِرِينَ }. قال الشيخ السعدي رحمه الله في تفسيره: قوله تعالى: { وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل } أي: ليس ببدع من الرسل، بل هو من جنس الرسل الذين قبله، وظيفتهم تبليغ رسالات ربهم وتنفيذ أوامره، ليسوا بمخلدين، وليس بقاؤهم شرطاً في امتثال أوامر الله، بل الواجب على الأمم عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال، ولهذا قال: { أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم } بترك ما جاءكم من إيمان أو جهاد، أو غير ذلك. { ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا } إنما يضر نفسه، وإلا فالله تعالى غني عنه، وسيقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين، فلما وبخ تعالى من انقلب على عقبيه، مدح من ثبت مع رسوله، وامتثل أمر ربه، فقال: { وسيجزي الله الشاكرين }، والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال.

ثم بيَّن رحمه الله الحال التي ينبغي أن يكون عليها كل صاحب دعوة، والصفة التي يجب أن يتصف فيها كل مبلغ رسالة، ومؤدي أمانة ربانية فقال رحمه الله: وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه فقدُ رئيس ولو عظم، وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه، إذا فقد أحدهم قام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله، والجهاد عنه، بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس، فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم.

فصل: إن الحال التي يجب أن يكون عليها المجاهد في حال فقد قائد أو ذي شأن مطاع، أن يتحلى بالصبر والسكينة والوقار، وأن يحمد الله عز وجل، ويسأله الصبر والسلوان، والعوض في المصيبة، وأن يخلف الله المجاهدين والمسلمين خيراً مما أُخذ منهم، ولا ينبغي له أن يظهر بمظهر الجازع المغضب، ولا يصدر منه ما لا يليق وخاصة إن كان من أصحاب الأمر والنهي، أو ممن يشار إليه بالبنان، بل الواجب عليه أن يُصَبِّر إخوانه ويذكرهم بالله، ويذكرهم بالمصاب الجلل وهو وفاة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وليكن رابط الجأش، قوي العزيمة، نافذ البصر، وليكن له في الصديق أبي بكر خير قدوة وأحسن أُسوة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ولهذا لما مات النبي صلى الله عليه و سلم ونزلت بالمسلمين أعظم نازلة نزلت بهم حتى أوهنت العقول، وطيشت الألباب واضطربوا اضطراب الأرشية في الطوي البعيدة القعر، فهذا ينكر موته، وهذا قد أقعد، وهذا قد دهش فلا يعرف من يمر عليه ومن يسلم عليه، وهؤلاء يضجون بالبكاء وقد وقعوا في نسخة القيامة وكأنها قيامة صغرى مأخوذة من القيامة الكبرى، وأكثر البوادي قد ارتدوا عن الدين، وذلت كماته، فقام الصديق رضي الله عنه بقلب ثابت وفؤاد شجاع، فلم يجزع ولم ينكل قد جمع له بين الصبر واليقين، فأخبرهم بموت النبي صلى الله عليه و سلم، وأن الله اختار له ما عنده وقال لهم: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت: وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين. فكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية حتى تلاها الصديق، فلا تجد أحداً إلا وهو يتلوها، ثم خطبهم فثبتهم وشجعهم، قال أنس خطبنا أبو بكر رضي الله عنه وكنا كالثعالب فما زال يشجعنا حتى صرنا كالأسود.

نعم بمثل هؤلاء الرجال تثبت القلوب، وترتفع الهمم، وتدب الحياة في الأوصال، وتصنع الأمجاد، ويدرك كل موحد أن لهذا الدين رباً يحميه، وأن هذه الأمة أمة خير ولود، وأن لهذا الدين رجالاً لا يعلمهم إلا الله قد صنعهم على عينه سبحانه وتعالى، فلا يدُبَّن اليأس في قلب أحدكم إن فقد قائد، أو ذهب مجاهد، أو اختارت يد المنون داعيةً موحداً، وما أجمل قول الشاعر: إذا سيدٌ منَّا خلاَ قامَ سيدٌ... قؤولٌ لما قالَ الكرامُ فَعُولُ

ولتكن الدماء التي بذلها هذا الداعية أو ذاك القائد ناراً تؤجج دواخلك فتحرق بها أعداء الله، ووقوداً دافعاً لنصرة هذا الدين، ونوراً تهتدي به لتدرك ما وصل إليه من سبق، وهذا هو عنوان

الحب الحقيقي إن كنت جاداً في حبك وإخلاصك لأولي الفضل، وتأمل ذلك في فعل الصحابة رضوان الله عليهم بعد وفاة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم تجد مصداق ما سررنا إليك، والله الموفق لكل خير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فصل: وعلى طول هذا الطريق الطويل الدامي قد يصيب بعض رموز الدعوة والجهاد الوهن والضعف، ويغشاهم حب الدنيا وكراهية الموت، ويجلل طالعهم حب العاجلة، فينتكسون ويرتدون على أدبارهم، وينفضون أيديهم من الدعوة والجهاد، بعد أن كانوا أعلاماً لها ورموزا، ويغدوا الواحد فيهم في صف العدوة المناوئة للجهاد والمجاهدين، نسأل الله العفو والعافية لنا ولإخواننا، قد يقع ما ذكرنا وقد وقع ولا حول ولا قوة إلا بالله، فعلى المجاهد في هذه الحالة أن يضع نصب عينيه قوله تعالى: { اتَّبِعُوا مَا أُنزلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ }. قال شيخ الإسلام رحمه الله: أمر باتباع ما أنزل ونهى عما يضاد ذلك وهو اتباع أولياء من دونه، فمن لم يتبع أحدهما اتبع الآخر، ولهذا قال: ويتبع غير سبيل المؤمنين. قال العلماء: من لم يكن متبعا سبيلهم كان متبعا غير سبيلهم فاستدلوا بذلك على أن اتباع سبيلهم واجب فليس لأحد أن يخرج عما أجمعوا عليه.

فإذا عرض للمجاهد شيءٌ فليعرضه على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ففيهما الهدي المبين، وليوطن نفسه على عدم الاتكاء على الأشخاص، ولا يعلق مصيره بأحد فالموالاة والمحبة تكون بقدر الإيمان، وليكن شعاره في هذا الطريق الطويل، الرجال يعرفون بالحق لا الحق يعرف بالرجال، والله الهادي والموفق إلى سواء السبيل.

التذكرة الرابعة والعشرون في: فضل الخدمة في سبيل الله.

اعلم أيها الراجي عفو ربك أن مقام الخدمة عزيز، ومنزلته عظيمة جليلة الشأن والقدر، وخدمة الإخوان أمر مشروع مرغبٌ فيه للعارف بتخليص النية من شوائب النفس بخلاف غيره كما قال بعض أهل العلم.

ولمكانتها الجليلة في هذا الدين فقد بوب لها البخاري في صحيحه فقال: باب فضل الخدمة في الغزو، ثم ساق ثلاثة أحاديث في هذا الباب.

قال العيني صاحب عمدة القاري شرح صحيح البخاري معلقاً على هذا الباب: أي هذا باب في بيان فضل الخدمة للغازي في الغزاة سواء كانت من صغير لكبير، أو من كبير لصغير، أو لمن يساويه، وفي هذا الباب ثلاثة أحاديث كلها عن أنس، ففي الأول خدمة الكبير للصغير، وفي الثاني خدمة الصغير للكبير، وفي الثالث توجد الخدمة لمن يساويه.

الحديث الأول: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: صحبت جرير بن عبد الله فكان يخدمني، وهو أكبر من أنس، قال جرير: إني رأيت الأنصار يصنعون شيئاً لا أجد أحداً منهم إلا أكرمته.

والثاني: عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب بن حنطب أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: خرجت مع رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى خيبر أخدمه فلما قدم النبي صلى الله عليه و سلم راجعاً وبدا له أحد قال: هذا جبل يحبنا ونحبه. ثم أشار بيده إلى المدينة قال: اللهم إني أحرم ما بين لابتيها كتحريم إبراهيم مكة اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا.

قال العيني صاحب عمدة القاري: فيه جواز خدمة الصغير للكبير لشرف في نفسه أو في قومه أو لعلمه أو لصلاحه ونحو ذلك.

وأما الثالث: فعن مورق العجلي عن أنس رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم أكثرنا ظلاً الذي يستظل بكسائه، وأما الذين صاموا فلم يعملوا شيئا وأما الذين أفطروا فبعثوا الركاب، وامتهنوا وعالجوا فقال النبي صلى الله عليه و سلم: ذهب المفطرون اليوم بالأجر.

قال ابن بطال رحمه الله في شرحه لصحيح البخاري: قال أبو عبد الله بن أبي صفرة: فيه أن أجر الخدمة في الغزو أعظم من أجر الصيام، إذا كان المفطر أقوى على الجهاد وطلب العلم وسائر الأعمال الفاضلة من معونة ضعيف أو حمل ما بالمسلمين إلى حمله حاجة.

وفيه: أن التعاون في الجهاد والتفاضل في الخدمة، من حل وترحال، واجب على جميع المجاهدين.

وفيه: جواز خدمة الكبير للصغير إذا رعى له شرفاً في قومه، أو في نفسه، أو نجابةً في علم، أو دين أو شبهه، وأما في الغزو فالخادم المحتسب أفضل أجرًا من المخدوم الحسيب.

فصل: وخدمة الإخوان دليل التواضع، وعنوان الذلة للمؤمنين، وشيمة الشهداء، وديدن الصالحين الأنقياء، ولقد رأيت أن كثيراً من الشهداء الذين اصطفاهم الله، وشرفني بصحبتهم كانوا يتميزون بكثرة خدمتهم لإخوانهم، وتفانيهم في ذلك أيما تفاني، وفي هذا المعنى يقول الشيخ عبد الله عزام رحمه الله: ولقد كتب الله لي أن أشارك في مسيرة الأنصار الذين جاءوا لنصرة هذا الجهاد المبارك الذي أنقذ الله به الأمة الإسلامية وهزها من سباتها، وشرفني أن أتعرف على أفذاذ هذه الأمة الذين وفدوا ليقدموا أرواحهم ابتغاء مرضاة الله وطلباً للجنة، هؤلاء أسميهم عشاق الحور وشهدت مصارع العشاق، مصارع "عشاق الحور"، فوجدت من خلال ملاحظاتي أن ربنا يختار الذين كنا نظنهم على خير في هذه الدنيا، ولقد رأيت أن الشهداء تجمعهم صفات تكاد تكون مشتركة، على رأسها: الكلام القليل والعمل الكثير، وحسن الظن بالمسلمين، والتسابق لخدمتهم، فترى أن عمله هو الذي يعلمنا أكثر من قوله، وكما قال عمر للصحابة – وهو يتحدث أن الله ولاه عليهم وليس بخيرهم قال: ولست معلمكم إلا بالعمل فسأدع عملي هو الذي يعلمكم أكثر من قولي.اهـ

فصل: ولقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم أشد الناس حرصاً على خدمة من يصحبونهم، بل كان بعضهم يشترط على من يصحبه في السفر أن تكون الخدمة عليه.

فقد ذكر صاحب المعرفة والتاريخ الإمام الحافظ أبو يوسف يعقوب الفسوي أن بلال بن سعد الإمام الرباني الواعظ قال: إن عامر بن عبد قيس كان إذا قفل غازياً يتوسم الرفاق فإذا رأى رفقة توافقه قال: يا هؤلاء إني أريد أن أصحبكم على أن تعطوني من أنفسكم ثلاث خلال، فيقولون : ما هن ؟ قال: أكون لكم خادماً لا ينازعني أحد منكم الخدمة، وأكون مؤذناً لا ينازعني أحد منكم الآذان، وأنفق عليكم بقدر طاقتي، فإذا قالوا نعم انضم إليهم، فإن نازعه أحد منهم شيئاً من ذلك رحل عنهم إلى غيرهم.

وذكر صاحب الرسالة القشيرية الإمام القشيري رحمه الله في باب الصحبة: أن إبراهيم بن الأدهم كان إذا صحبه أحد شارطه على ثلاثة أشياء: أن تكون الخدمة والآذان له، وأن تكون يده في جميع ما يفتح الله عليهم من الدنيا كَيدِهم.اهـ

فتسابق يا باغي الخير في خدمة إخوانك، وجد المسير في ذلك، وابذل الجهد، وألن الجانب، وتعرض لمواطن التواضع والذلة للمؤمنين، وكن كما كان الذين سبقوا إلى الله، واقتفي أثر سنتهم، تنعم في الدارين بإذن مولاك مولاهم.

التذكرة الخامسة والعشرون في: وجوب أخذ الحذر من العدو واستكمال أسباب ذلك.

إن التحرز من العدو بأخذ الحذر منه إنما هو سنة ربانية، ومقصد مطلوب من مقاصد الشريعة الغراء، وسنة من سنن التمكين والنصر، وهو عمل الأنبياء والرسل وأتباعهم، قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: {وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا..}، وقال في شأن مؤمن آل فرعون: {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ..}، وقال جل في علاه في شأن أصحاب الكهف: { وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا.}، وقال سبحانه وتعالى آمراً

أصحاب نبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم بأخذ الحيطة والحذر: { وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً }. قال القرطبي رحمه الله في قوله تعالى: "وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم"، هذا وصاة بالحذر وأخذ السلاح لئلا ينال العدو أمله ويدرك فرصته.

وقال سبحانه وتعالى حاثاً المؤمنين على استحضار هذا الجانب المهم لدرء مكر العدو، وإحباط شره، ورد كيده في نحره: {وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ الله أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}، قال الإمام الرازي رحمه الله في تفسيره: " وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ "، والمعنى أنه لما رخص لهم في وضع السلاح حال المطر وحال المرض، أمرهم مرة أخرى بالتيقظ والتحفظ والمبالغة في الحذر، لئلا يجترئ العدو عليهم احتيالاً في الميل عليهم، واستغناماً منهم لوضع المسلمين أسلحتهم، وفيه مسائل: الرابعة منها: دلت الآية على وجوب الحذر عن العدو، فيدل على وجوب الحذر عن جميع المضار المظنونة، وبهذا الطريق كان الإقدام على العلاج بالدواء، والعلاج باليد، والاحتراز عن الوباء، وعن الجلوس تحت الجدار المائل واجباً والله أعلم.

وهذه الآيات وما في معناها في كتاب الله القصد منها هو الحذر والحيطة من مكائد العدو، وأخذ الأسباب، والتيقظ من مباغتة العدو، وعدم الركون إلى الدعة والراحة فالعدو ينتظر الغفلة من المؤمنين حتى ينال منهم بمكره فليعلم ذلك.

فصل: ولقد كان النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أكثر الناس أخذاً بالأسباب، وأشدهم حذراً من العدو وهو الموحى إليه المؤيد بحفظ الله، المعصوم من الناس قال ابن القيم رحمه الله في قوله تعالى: " والله يعصمك من الناس": إن هذا الضمان له من ربه تبارك وتعالى لا يناقض احتراسه من الناس ولا ينافيه، كما أن إخبار الله سبحانه له بأنه يظهر دينه على الدين كله ويعليه لا يناقض أمره بالقتال، وإعداد العدة والقوة ورباط الخيل، والأخذ بالجد والحذر والاحتراس من عدوه، ومحاربته بأنواع الحرب والتورية.

وسيرته صلى الله عليه وسلم شاهدة على ما ذكرنا، فقد كان يتقي طعنات المشركين في أُحد بدرعين، واختفى في الغار بصحبة الصديق ثلاثة أيام طمعاً في الإفلات من المشركين، ولم يكن يريد غزوة إلا ورّى بغيرها، وكان يرسل السرية ويكتب لها كتاباً يدلها فيه على وجهتها، ويأمرها بفتحه بعد أيام حفاظاً على السرية، وطمعاً في عدم تسرب الأخبار إلى العدو.

وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: الحرب خدعة، قال صاحب الفتح الحافظ ابن حجر رحمه الله: وفيه التحريض على أخذ الحذر في الحرب، والندب إلى خداع الكفار، وأن من لم يتيقظ لذلك لم يأمن أن ينعكس الأمر عليه، قال النووي: واتفقوا على جواز خداع الكفار كيفما أمكن، إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يجوز، قال ابن العربي: الخداع في الحرب يقع بالتعريض وبالكمين ونحو ذلك.

وفي الحديث الإشارة إلى استعمال الرأي في الحرب، بل الاحتياج إليه آكد من الشجاعة، وكذا وقع الاقتصار على ما يشير إليه بهذا الحديث، وهو كقوله: الحج عرفة، قال ابن المنير معنى الحرب خدعة: أي الحرب الجيدة لصاحبها الكاملة في مقصودها إنما هي المخادعة لا المواجهة، وذلك لخطر المواجهة وحصول الظفر مع المخادعة بغير خطر، ذكر الواقدي أن أول ما قال النبي صلى الله عليه وسلم "الحرب خدعة " في غزوة الخندق.

قال شيخنا أبو المنذر سالم الطرابلسي المالكي تقبله الله: قال علماؤنا: إذا أتى العدو بحيلة وجب على المسلمين أن يقابلوها بحيلة مثلها.اهـ

وعليه فالمجاهد في سبيل الله مطالب بأخذ جميع الأسباب المتوفرة والممكنة للحيلولة دون تمكن العدو منه، والحذر كل الحذر من العدو أمرٌ مشروعٌ مرغبٌ فيه، وإن استحضار هذا الجانب المهم في العمل لهو كفيل بإذن الله بتحقيق الغايات، وحفظ الرجال، والظهور على العدو، ورد كيده في نحره، والخلاص من شروره، ودرء فساده وبطشه، والمؤمن كيس فطن، ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين فتنبه لذلك يرعاك الله.

فصل: واعلم يرحمك الله أن تعاطي الأسباب وأخذ الحذر لا يتنافى بتاتاً مع الشجاعة والإقدام بل هي مكملة لها، ولقد كان الرسول الكريم أشجع الخلق ولا ريب، ومع ذلك فقد كان أكثر الناس أخذاً وتعاطياً للأسباب كما ظهر لك فيما سبق من سيرته، وكان صحابته من بعده أشجع الناس، ولم يعهد عنهم أنهم تركوا الأخذ بالأسباب، وقد بوب البخاري في صحيحه فقال: باب الكذب في الحرب، وساق قصة قتل كعب بن الأشرف اليهودي، قال صاحب الفتح رحمه الله معلقاً: وفي الحديث جواز الكلام الذي يحتاج إليه في الحرب ولو لم يقصد قائله حقيقته.

ومن ذلك أيضاً أن الأخذ بالأسباب المشروعة لا يتنافى مع التوكل على الله، وحسن الالتجاء إليه سبحانه وتعالى وقصده، فقد روى ابن حبان في صحيحه عن عمرو بن أمية الضمرى قال: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم أرسل ناقتي وأتوكل، قال: اعقلها وتوكل.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: اعلم أن تحقيق التوكل لا ينافي السعي في الأسباب التي قدر الله سبحانه وتعالى المقدورات بها، وجرت سنته في خلقه بذلك، فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له، والتوكل بالقلب عليه إيمان به، قال الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم. وقال تعالى: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل. وقال: فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله.

وقال سهل التستري من طعن في الحركة يعني في السعي والكسب فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان، فالتوكل حال النبي صلى الله عليه وآله وسلم والكسب سنته فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته.

والأخذ بالأسباب جزءٌ لا يتجزأ من هذا الدين، والسعي في تحصيل ما يعين المرء على الانتصار لدينه والتمكين لشريعة الله وذلك بقدر الاستطاعة لا شك من أوجب الواجبات، وإلا غلب الكفر، وانتشر وقهر وساد.

قال شيخنا أبو الوليد الأنصاري في مقالة له بعنوان " الغاية من الحياة: بين معاول الهدم وعوامل البناء ": وأن نعلم أن الأخذ بالأسباب العلمية والعملية واستيفاء المقدور عليه منها من أعظم الجهاد في سبيل الله، إذ الجهاد في سبيل الله لا يتم إلا بها، وما لا يتم الشيء إلا به فحكمه حكمه، وفي الأخذ بها عزة الإسلام وأن يكون ظاهراً غالباً منصوراً، وذلة الكفر وأن يكون مقهوراً مدحوراً.

ولو أن النصر يُجْلَب مع ترك الأخذ بالأسباب، لكان أولى الناس به رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أوذي في سبيل الله، وأُخرج من أحب البلاد إلى الله، وكان يبعث السرايا والعيون والطلائع، وخرج بنفسه للغزو في نحو سبع وعشرين غزوة، واختفى في الغار، وظاهر بين درعين يوم أحد، وأمر بحفر الخندق يوم الخندق... وغير ذلك.اهـ

التذكرة السادسة والعشرون في قوله تعالى: {وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا}.

إن من أعظم آفات اللسان التي حذر منها الشارع الكريم، وذمها أيما ذم، وأمر باجتنابها، وعدَّها من كبائر الذنوب، وعظائم المنكرات آفة الغيبة وهي كما ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح: قال الراغب: هي أن يذكر الإنسان عيب غيره من غير مُحوج إلى ذكر ذلك، وقال الغزالي: حدُّ الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، وقال ابن الأثير في النهاية: الغيبة أن تذكر الإنسان في غيبته بسوء وإن كان فيه، وقال النووي في الأذكار تبعاً للغزالي: ذكر المرء بما يكرهه سواء كان ذلك في بدن الشخص أو دينه أو دنياه أو نفسه أو خلقه أو خُلُقه أو ماله أو ولده أو زوجه أو خادمه أو ثوبه أو حركته أو طلاقته أو عبوسته أو غير ذلك مما يتعلق به، سواء ذكرته باللفظ أو بالإشارة والرمز.

ولقد كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم كما قال الغزالي رحمه الله يتلاقون بالبشر ولا يغتابون عند الغَيبة، ويرون ذلك أفضل الأعمال، ويرون خلافه عادة المنافقين، ولعظيم منكرها فقد

شبه العلي القدير في كتابه الكريم المغتاب بآكل لحم أخيه ميتاً فقال: {وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}.

قال الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره للمؤمنين أيحبّ أحدكم أيها القوم أن يأكل لحم أخيه بعد مماته ميتا، فإن لم تحبوا ذلك وكرهتموه، لأن الله حرّم ذلك عليكم، فكذلك لا تحبوا أن تغتابوه في حياته، فاكرهوا غيبته حيا، كما كرهتم لحمه ميتا، فإن الله حرّم غيبته حيا، كما حرم أكل لحمه ميتا.

وقال ابن عباس: إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر، وكذا الغيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس.

وقال قتادة: كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حياً، واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة لان عادة العرب بذلك جارية.

أما الآثار في مقت الغيبة وإعلان الحرب عليها فهي بمكان لا تكاد تحصى، وقد عدَّ منها الإمام الشوكاني في رسالته "تحريم الغيبة" ستة وخمسون حديثاً ساقها لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وهذا طرفٌ منها.

الحديث الأول: عن أبي بكرة في ذكر خطبة حجة الوداع يوم النحر ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا.

الحديث الثاني: عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ فقال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته.

الحديث الثالث: عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ههنا، التقوى ههنا، ويشير إلى صدره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وعرضه وماله.

الحديث الرابع: عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قتال المسلم كفر، وسبابه فسوق.

والأحاديث في هذا الباب كثيرة كما سبق ذكره، وفي هذا المقدار كفاية بل في واحد منها لمن له هداية والله ولي التوفيق.

فصل: ولقد أجمعت الأمة على تحريم الغيبة، وأن فاعلها لا شك هو مرتكب لكبيرة، واستثنى أهل العلم من ذلك بعض الحالات، جوزوا فيها الغيبة للمصلحة، وهذه الحالات كما ذكرها النووي رحمه الله هي:

أولاً: التظلم، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية أو له قدرة على إنصافه من ظالمه، فيذكر أن فلانا ظلمني، وفعل بي كذا، وأخذ لي كذا ، ونحو ذلك.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا فازجره عنه، ونحو ذلك، ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حراما.

الثالث: الاستفتاء، بأن يقول للمفتي: ظلمني، أبي أو أخي، أو فلان بكذا، فهل له ذلك، أم لا ؟ وما طريقي في الخلاص منه وتحصيل حقي ودفع الظلم عني ؟ ونحو ذلك.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوه: منها جرح المجروحين من الرواة للحديث والشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين، بل واجب للحاجة، ومنها ما استشارك إنسان في مصاهرته، أو مشاركته، أو إيداعه، أو الإيداع عنده، أو معاملته بغير ذلك، وجب عليك أن تذكر له ما تعلمه منه على جهة النصيحة.

الخامس: أن يكون مجاهراً بفسقه أو بدعته، كالمجاهر بشرب الخمر، أو مصادرة الناس، وأخذ المكس، وجباية الأموال ظلماً، وتولي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهر به، ويحرم ذكره بغيره من العيوب، إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما ذكرناه.

السادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفا بلقب: كالأعمش، والأعرج، والأصم، والأعمى، والأحول، والأفطس، وغيرهم، جاز تعريفه بذلك بنية التعريف، ويحرم إطلاقه على جهة التنقص ولو أمكن التعريف بغيره كان أولى.

فهذه ستة أسباب ذكرها العلماء مما تباح بها الغيبة على ما ذكرناه. وممن نص عليها هكذا الإمام أبو حامد الغزالي في " الإحياء " وآخرون من العلماء، ودلائلها ظاهرة من الأحاديث الصحيحة المشهورة، وأكثر هذه الأسباب مجمع على جواز الغيبة بها.

فصل: وليس المغتاب وحده مرتكباً للإثم بل الساكت المستمع الراضي بما يقال شريك المغتاب في الإثم، والواجب على المستمع في هذه الحال أن ينهى المغتاب عن فعله، وينكر عليه، ويرد عن عرض أخيه، فإن عجز عن ذلك، أو لم يقبل منه قام من المجلس وإلا فهو مشارك في الإثم.

قال الله تعالى: { وَإذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ } وقال تعالى: { والَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ}، وقال تعالى:{ إنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً }، وقال تعالى:{ وَإذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ في آياتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غَيْرِهِ، وإمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَومِ الظَّالِمِينَ}.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من رد عن عرض أخيه، رد الله عن وجهه النار يوم القيامة.

وقال صلى الله عليه وسلم: ما من امرئ يخذل امرأً مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في مواطن يحب نصرته.

قال صاحب الزواجر ابن حجر الهيتمي : قال الأذرعي: وأما السكوت على الغيبة – رضاً بها – مع القدرة على دفعها فيشبه أن يكون حكمه حكمها، نعم لو لم يمكنه دفعها فيلزمه عند التمكن مفارقة المغتاب، وتبعه الزركشي فقال: والأشبه أن السكوت على الغيبة مع القدرة على دفعها كبيرة.اهـ

وقال النووي رحمه الله: اعلم أن الغيبة كما يحرم على المغتاب ذكرها، يحرم على السامع استماعها وإقرارها، فيجب على من سمع إنسانا يبتدئ بغيبة محرمة أن ينهاه إن لم يخف ضرراً ظاهراً، فإن خافه وجب عليه الإنكار بقلبه ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقته، فإن قدر على الإنكار بلسانه، أو على قطع الغيبة بكلام آخر، لزمه ذلك، فإن لم يفعل عصى.

فصل: اعلم علمني الله وإياك أن الولوغ في أعراض أهل التقوى والصلاح عامةً، والمجاهدين خاصةً أقبح وأنكر من الولوغ في عرض مجهول الحال لما يترتب على ذلك من مفاسد، فالقدح في العلماء الربانيين والمجاهدين المخلصين لدينهم الحاملين همَّ أمتهم، وغيبتهم وثلب أعراضهم يعني تنفير الناس من الخير الذي تختزنه صدورهم، ومعناه صدّ الناس عن متابعتهم واقتفاء آثارهم والنهل من معينهم، فليحذر كل من تسول له نفسه أن يجعل من هؤلاء النفر فاكهة لمجلسه، يتناوله تارة بالهمز، وأخرى باللمز، ولا يعني هذا العصمة لأحد، ومن رأى ما يكره من أخيه المسلم فليتعاهده بالنصيحة مع مراعاة آدابها.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: ولذلك تغلظت الغيبة بحسب حال المؤمن فكلما كان أعظم إيماناً كان اغتيابه أشد.

وقال النووي رحمه الله: اعلم أنه ينبغي لمن سمع غيبة مسلم أن يردها ويزجر قائلها، فإن لم ينزجر بالكلام زجره بيده، فإن لم يستطع باليد ولا باللسان، فارق ذلك المجلس، فإن سمع غيبة شيخه أو غيره ممن له عليه حق، أو كان من أهل الفضل والصلاح، كان الاعتناء بما ذكرناه أكثر.

فصل: أما كفارة الغيبة والتوبة منها فقد اختلف أهل العلم في ذلك، فمنهم من أوجب على المغتاب أن يتحلل ممن قد اغتابه ذكر ذلك الإمام النووي في الأذكار والغزالي في إحياء علوم الدين وغيرهم، والأكثرون كما صرح بذلك شيخ الإسلام على أنه يكفي المغتاب الاستغفار لمن اغتابه، والدعاء له وذكر محاسنه قال ابن القيم رحمه الله: يُذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أن: كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته تقول: اللهم اغفر لنا وله. ذكره البيهقي في الدعوات الكبير وقال: في إسناده ضعف. وهذه المسألة فيها قولان للعلماء هما روايتان عن الإمام أحمد، وهما: هل يكفي في التوبة من الغيبة الاستغفار للمغتاب.؟ أم لا بد من إعلامه وتحليله.؟ والصحيح أنه لا يحتاج إلى إعلامه، بل يكفيه الاستغفار وذكره بمحاسن ما فيه في المواطن التي اغتابه فيها، وهذا اختيار شيخ

الإسلام ابن تيمية وغيره. والذين قالوا: لا بد من إعلامه جعلوا الغيبة كالحقوق المالية، والفرق بينهم ظاهر، فإن الحقوق المالية ينتفع المظلوم بعود نظير مظلمته إليه، فإن شاء أخذها وإن شاء تصدق بها، وأما في الغيبة فلا يمكن ذلك، ولا يحصل له بإعلامه إلا عكس مقصود الشارع صلى الله عليه وسلم، فإنه يوغر صدره ويؤذيه إذا سمع ما رُمي به، ولعله يهيج عداوته ولا يصفو له أبداً، وما كان هذا سبيله فإن الشارع الحكيم لا يبيحه و يجوزه فضلاً أن يوجبه ويأمر به !! ومدار الشريعة على تعطيل المفاسد وتقليلها، لا على تحصيلها وتكميلها. والله تعالى أعلم.

وأما إن بلغت الغيبة الرجل جاءه واستحله وأظهر الندم على فعله، ذكر ذلك شيخ الإسلام رحمه الله في الفتاوى، و ابن قدامة المقدسي في مختصر منهاج القاصدين وغيرهم من أهل العلم والله الموفق.

فائدة: ولعظيم وزر الغيبة وكثرة ما تحبط من الأجر كف جماعة من العلماء عن اغتياب جميع الناس كما قال ابن بطال رحمه الله، وقد روى عن ابن المبارك أنه قال: لو كنت مغتاباً أحدًا لاغتبت والديَّ، لأنهما أحق الناس بحسناتي. وقال رجل لبعض السلف: إنك قلت فيّ قال: أنت إذاً أكرم علي من نفسي؟! وقيل للحسن البصري: إن فلاناً اغتابك، فبعث إليه طبقاً من الطرفّ، وقال: بلغني أنك أهديت إلي حسناتك فأردت أن أكافئك بها.

تنبيه: وتعاطي الغيبة لا شك كفيلٌ بتهديم المجتمع الجهادي، وإذكاء نار التباغض والشحناء بين المجاهدين، ونشر الشر والخصومات، وكم قامت خصومة بسبب الغيبة والولوغ في الأعراض، فليحذر النافر إلى الله من ذلك، وليتق الله في لسانه، وليعلم أنه لبنة في المجتمع الجهادي فلا يؤتى الجهاد من قِبله، وعليه إذا ما سمع من يرمي المجاهدين، ويغتابهم ويطعن في أعراضهم أن يذب عنهم، ولا يسمح لأحد أن يلغ في أعراضهم، وينتهك حرماتهم.

قال الشيخ المجاهد عبد الله عزام رحمه الله: ثامناً: أن تحفظ أذنك من اللغو: "والذين هم عن اللغو معرضون". لا يجوز لك استماع الغيبة عن إخوانك المجاهدين، ويجب عليك إذا جلست في مجلس يُغتاب فيه إخوانك المجاهدون أن ترد عليهم، على الذين يتكلمون، وإلا فأنت شريك معهم في الإثم: "إنكم إذا مثلهم وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم". وقد جيء لعمر بن عبد العزيز برجل

صائم مع قوم سكارى، قالوا هؤلاء وجدناهم يسمرون وهذا صائم جالس معهم، فقال: اجلدوه معهم ثمانين " إنكم إذا مثلهم"، فلا تستمعوا القيل والقال، وأكثروا من بقائكم في أرض الجبهات، ولا تبقوا في بيشاور إلا للضرورة، إلا من أجل اتصالك بأهلك، تغيير ثيابك، الاستحمام، ثم العودة إلى أرض القتال، فهناك أرض تجمع فيها الحسنات، وهنا محرقة الحسنات والثواب.اهـ

التذكرة السابعة والعشرون في قوله تعالى: { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ}.

اعلم أيها الواقف بين يدي الله أن للصلاة واجبات ولوازم، ومن هذه اللوازم الخشوع الذي هو المقصود الأسمى من الصلاة، وهو ثمرة الإيمان ونتيجة اليقين، وموجب الفلاح وسر النجاح، والخشوع في أصل اللغة: الانخفاض والذل والسكون قاله ابن القيم، وقال الطبري رحمه الله في قوله تعالى: {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ} يقول تعالى ذكره: الذين هم في صلاتهم إذا قاموا فيها خاشعون، وخشوعهم فيها تذللهم لله فيها بطاعته، وقيامهم فيها بما أمرهم بالقيام به فيها. وقيل إنها نزلت من أجل أن القوم كانوا يرفعون أبصارهم فيها إلى السماء قبل نزولها، فنُهُوا بهذه الآية عن ذلك.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: والخشوع يتضمن معنيين أحدهما التواضع والذل، والثاني السكون والطمأنينة وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة، فخشوع القلب يتضمن عبوديته لله وطمأنينته أيضاً ولهذا كان الخشوع في الصلاة يتضمن هذا وهذا التواضع والسكون، وعن ابن عباس في قوله: الذين هم في صلاتهم خاشعون، قال: مخبتون أذلاء وعن الحسن وقتادة: خائفون، وعن مقاتل: متواضعون وعن علي الخشوع في القلب وأن تلين للمرء المسلم كنفك ولا تلتفت يميناً ولا شمالاً، وقال مجاهد: غض البصر وخفض الجناح.

وقد اختلف الناس في الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها.؟ على قولين: كما قال الشوكاني في فتح القدير فقيل هو من فرائض الصلاة، وقيل هو من فضائلها، ثم قال رحمه الله: وادعى عبد الواحد بن زيد إجماع العلماء على أنه ليس للعبد إلا ما عقل من صلاته، حكاه النيسابوري في تفسيره. قال: ومما يدل على صحة هذا القول قوله تعالى: { أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرءان }،

والتدبر لا يتصور بدون الوقوف على المعنى، وكذا قوله: { أَقِمِ الصلاة لِذِكْرِي }، والغفلة تضاد الذكر، ولهذا قال: { وَلاَ تَكُنْ مِّنَ الغافلين } وقوله: { حتى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ }.اهـ

وقال القرطبي رحمه الله بعد أن ذكر الاختلاف: والصحيح الأول، ومحله القلب، وهو أول عمل يرفع من الناس، قاله عبادة بن الصامت، رواه الترمذي من حديث جبير بن نفير عن أبي الدرداء، وقال: هذا حديث حسن غريب.

وعليه فالواجب على الواقف بين يدي الله أن يتدبر ما يقرأ فيلزم قلبه وجوارحه السكينة والخشوع، فإنه ليس له من الصلاة إلا ما يعقل منها، ويستشعر عظمة من يقف بين يديه فهو يقف بين يدي ملك الملوك، ولو قدر له أن يقف بين يدي ملك من ملوك الدنيا لأبدى من الخشوع بين يديه، والمهابة له ما الله به عليم، فكيف بمن يملك الملوك جبار السموات والأرض، اللهم غفرا.

فصل: واعلم أن الخشوع ليس كما يظن البعض خشوع المنكبين ونحالة الجسد، وانكسار العينين أمام الناس، وطأطأة الرقبة، وإنما محله القلب، وثمرته لا شك تظهر على الجوارح بالأعمال، قال سفيان الثوري سألت الأعمش عن الخشوع فقال يا ثوري: أنت تريد أن تكون إماماً للناس ولا تعرف الخشوع! سألت إبراهيم النخعي عن الخشوع فقال: أعيمش ! تريد أن تكون إماماً للناس ولا تعرف الخشوع! ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطؤ الرأس! لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنيء في الحق سواء، وتخشع لله في كل فرض أفترض عليك.

ونظر عمر بن الخطاب إلى شاب قد نكس رأسه فقال يا هذا! ارفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب.

وقال علي بن أبي طالب: الخشوع في القلب، وأن تلين كفيك للمرء المسلم وألا تلتفت في صلاتك. فهذا هو الخشوع المحمود والمطلوب من العبد فتدبره يرعاك الله تفلح بإذن الله.

وهذه مواقف بعض من عرف الله من السلف رضوان الله عليهم، فخشوه حق خشيته نسوقها طمعاً في تدبر معانيها، ورغبةً في اقتفاء أثر سيرتهم الخالدة، وفقنا الله وإياكم للاقتداء بهم.

قال صاحب الإحياء الإمام الغزالي رحمه الله: كان الربيع يقول ما دخلت في صلاة قط فأهمني فيها إلا ما أقول وما يقال لي.

وكان عامر بن عبد الله من خاشعي المصلين وكان إذا صلى ربما ضربت ابنته بالدف وتحدث النساء بما يردن في البيت ولم يكن يسمع ذلك ولا يعقله، وقيل له ذات يوم هل تحدثك نفسك في الصلاة بشيء.؟ قال: نعم بوقوفي بين يدي الله عز و جل، ومنصرفي إحدى الدارين، قيل: فهل تجد شيئاً مما نجد من أمور الدنيا فقال: لأن تختلف الأسنة في أحب إلي من أن أجد في صلاتي ما تجدون وكان يقول: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً.

وقد كان مسلم بن يسار منهم وقد نقلنا أنه لم يشعر بسقوط اسطوانة في المسجد وهو في الصلاة. وتآكل طرف من أطراف بعضهم واحتيج فيه إلى القطع فلم يمكن منه فقيل إنه في الصلاة لا يحس بما يجري عليه فقطع وهو في الصلاة.

قال ابن العربي المالكي في أحكام القرآن: قال ابن المنكدر لعروة: لو رأيت قيام ابن الزبير يعني أخاه عبد الله في الصلاة لقلت: غصن تصفقه الرياح، وحجارة المنجنيق تقع هاهنا، ورضف عن يمينه وعن يساره وهو قائم يصلي. وقال مجاهد: كان ابن الزبير إذا قام يصلي كأنه عود من الخشوع.اهـ

التذكرة الثامنة والعشرون في : حفظ اللسان وفضل الصمت.

اعلم أيها الباحث عن نجاته أن حفظ اللسان عن اللغو، وإمساكه عما لا يسوغ في الشرع، هو عنوان النجاة، ومِلاك الأمر كله، وعلامة صادقة من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر، وهو رأس الخير كله، بل هو كما قال الغزالي سببٌ من أسباب دخول الجنة، وقد تطابقت الملل وتضافرت النحل على مدح حفظ اللسان... لإيراثه جميل المعاشرة ومليح المعاملة كما قال المناوي رحمه الله.

وقد وقعت الإشارة في القرآن الكريم إلى معنى حفظ اللسان في مواطن كثيرة كقوله تعالى:{ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ }، قال ابن كثير رحمه الله: {مَا يَلْفِظُ } أي: ابن آدم { مِنْ قَوْلٍ } أي: ما يتكلم بكلمة { إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } أي: إلا ولها من يراقبها معتد لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: { وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ }.

ولعظيم منزلة حفظ اللسان في هذا الدين، وأنه ملاك الأمر كله وسبب النجاة، فقد بوب البخاري رحمه الله له فقال: باب حفظ اللسان، وساق في ذلك خمسة أحاديث، وهذا طرفٌ منها.

قال النبي صلى الله عليه و سلم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت.

وقال عليه الصلاة والسلام: من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة.

وعنه صلى الله عليه و سلم قال: إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفع الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم.

قال الإمام النووي رحمه الله: قوله صلى الله عليه و سلم: إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار. معناه لا يتدبرها ويفكر في قبحها، ولا يخاف ما يترتب عليها، وهذه كالكلمة عند السلطان وغيره من الولاة، وكالكلمة تقذف، أو معناه كالكلمة التي يترتب عليها إضرار مسلم ونحو ذلك، وهذا كله حث على حفظ اللسان كما قال صلى الله عليه و سلم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت. وينبغي لمن أراد النطق بكلمة أو كلام أن يتدبره في نفسه قبل نطقه فإن ظهرت مصلحته تكلم وإلا أمسك.

وقال ابن بطال رحمه الله في شرحه لصحيح البخاري: ما أحق من علم أن عليه حفظةً موكلين به، يحصون عليه سقط كلامه وعثرات لسانه، أن يحزنه ويقل كلامه فيما لا يعنيه، وما أحراه بالسعي في أن لا يرتفع عنه ما يطول عليه ندمه من قول الزور والخوض في الباطل، وأن يجاهد نفسه في ذلك ويستعين بالله ويستعيذ من شر لسانه، وقوله: صلى الله عليه وسلم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت. يعني من كان يؤمن بالله واليوم الآخر الإيمان التام فإنه ستبعثه قوة إيمانه على محاسبة نفسه في الدنيا والصمت عما يعود عليه ندامةً يوم القيامة.

فصل: ومما ينبغي أن يعلم ويوضع في حسبان كل ذي لب، أن للمكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا لما ظهر له فيه مصلحة كما قال النووي رحمه الله، ومتى استوى الكلام- والكلام للنووي - وتركه في المصلحة، فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، بل هذا كثير أو غالب في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء، قال عليه الصلاة والسلام: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت.

قال النووي: فهذا الحديث المتفق على صحته نصٌ صريحٌ في أنه لا ينبغي أن يتكلم إلا إذا كان الكلام خيراً، وهو الذي ظهرت له مصلحته، ومتى شك في ظهور المصلحة فلا يتكلم، وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: إذا أراد الكلام فعليه أن يفكر قبل كلامه، فإن ظهرت المصلحة تكلم، وإن شك لم يتكلم حتى تظهر.

وقال الفقيه المحدث أحمد زروق المالكي رحمه الله في النصيحة الكافية: قال العلماء رضي الله عنهم: وإذا استوى الكلام والصمت في المصلحة فالمقدم الصمت.اهـ

وقال صاحب الآداب الشرعية ابن مفلح المقدسي الحنبلي رحمه الله: روى الخلال عن عطاء قال: كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله أن نقرأه أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك بما لا بد لك منه.

فاربأ بنفسك أيها الفطن عن اللغو في الكلام، وتنبه لما يخرج من فيك، ولا ترخي للسانك العنان، ولا تلقي له الزمام، وألجمه لجماً عن اللغو وانظر في مصلحة خاصتك حتى لا تفسد عليك شأنك وطوبى لمن ملك لسانه.

وأولى الناس بحفظ ألسنتهم هم المجاهدون في سبيل الله، حيث أكرمهم الله بهذه العبادة عبادة الجهاد، وحباهم بهذه الشعيرة دون غيرهم، فمن تمام شكر هذه النعمة حفظ اللسان عن اللغو وكثرة المزاح والغيبة والنميمة والجدال والمراء إلى غير ذلك مما يستقبح قوله وينهى عنه، والاشتغال بذكر الله عمن سواه، والالتفات إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة، جنبنا الله معاصيه واستعملنا فيما يرضيه إنه جواد كريم.

فصل: ولقد كان السلف رضوان الله عليهم أحرص الناس على عدم بسط ألسنتهم في الحديث، وحفظ ألسنتهم عن اللغو، وأدركوا أنه من كثر كلامه كثر خطأه، ومن كثر خطؤه، كثر ملامه قال الشاعر:

ولن يهلك الإنسان إلا إذا أتى   من الأمر ما لم يرضه نصحاؤه

وأقلل إذا ما قلت قولاً فإنه   إذا قل قول المرء قل خطاؤه

وهذه جملة يسيرة من الآثار الحميدة مروية عن أفاضلهم رحمهم الله في حفظهم لألسنتهم: قال النووي في الأذكار: بلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي اجتمعا، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب. ؟ فقال: هي أكثر من أن تحصى، والذي أحصيته ثمانية آلاف عيب، فوجدت خصلة إن استعملتها سترت العيوب كلها.. قال: ما هي.؟ قال: حفظ اللسان !!.

وقال رحمه الله: روينا عن أبي علي الفضيل بن عياض رضي الله عنه قال: من عد كلامه من عمله قل كلامه فيما لا يعنيه، وقال الإمام الشافعي رحمه الله لصاحبه الربيع : يا ربيع لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها.

وقال رحمه الله: روينا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما من شيء أحق بطول السجن من اللسان، وقال غيره: مثل اللسان مثل السبع إن لم توثقه عدا عليك.

وقال صاحب الطبقات الكبرى ابن سعد: قيل للربيع بن خثيم: يا أبا يزيد ألا تذم الناس.؟ فقال الربيع: والله ما أنا عن نفسي براض فأذم الناس، إن الناس خافوا الله على ذنوب الناس وأمّنوه على ذنوبهم.

وقال الغزالي رحمه الله: قال محمد بن واسع لمالك بن دينار: يا أبا يحيى حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم. وقال يونس بن عبيد: ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله.

فائدة: روى الخلال رحمه الله عن عبد الله بن المبارك قال: عجبت من اتفاق الملوك الأربعة كلهم على كلمة، قال كسرى: إذا قلت ندمت وإذا لم أقل لم أندم، وقال قيصر: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت، وقال ملك الهند: عجبت لمن تكلم بكلمة إن هي رُفعت تلك الكلمة ضرته، وإن هي لم ترفع لم تنفعه، وقال ملك الصين: إن تكلمت بكلمة ملكتني وإن لم أتكلم بها ملكتها.

فصل: أما الصمت وفضله فحدث عن ذلك الكثير فهو عنوان السلامة، وزين العالم وستر للجاهل، وهو مفتاح الورع، وأصل العقل، ولو لم يكن فيه سوى الإمساك عن الغيبة لكان غنيمة

موفورة كما بعض أهل العلم، والسكوت في وقته صفة الرجال كما أن النطق في موضعه من أشرف الخصال كما قال الخلال.

أما عن فضل الصمت ومنزلته في هذا الدين القويم فقد وردت في ذلك عدة أحاديث كما قال الحافظ في الفتح، منها حديث سفيان بن عبد الله الثقفي، "قلت يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي.؟ قال: هذا، وأخذ بلسانه ". أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح.

ومنها حديث: " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده". ولأحمد وصححه ابن حبان من حديث البراء: "وكف لسانك إلا من خير. وعن عقبة بن عامر قلت يا رسول الله ما النجاة.؟ قال: أمسك عليك لسانك". الحديث أخرجه الترمذي وحسنه، وفي حديث معاذ مرفوعاً " ألا أُخبرك بملاك الأمر كله، كف هذا، وأشار إلى لسانه. قلت يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به.؟ قال: وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم". أخرجه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه من طريق أبي وائل عن معاذ مطولاً، وأخرجه أحمد أيضاً من وجه آخر عن معاذ، وزاد الطبراني في رواية مختصرة " ثم إنك لن تزال سالماً ما سكت، فإذا تكلمت كتب عليك أو لك".

قال الإمام الحافظ ابن حبان حاضاً على حفظ اللسان والتزين بطول الصمت: والواجب على العاقل أن يكون حسن السمت طويل الصمت، فإن ذلك من أخلاق الأنبياء كما أن سوء السمت وترك الصمت من شيم الأشقياء، والعاقل لا يطول أمله لأن من قوى أمله ضعف عمله ومن أتاه أجله لم ينفعه أمله.

وقال رحمه الله: والصمت يكسب المحبة والوقار، ومن حفظ لسانه أراح نفسه، والرجوع من الصمت أحسن من الرجوع عن الكلام، والصمت منام العقل والمنطق يقظته.

واعلم أن الاستعانة على الصمت وحفظ اللسان تكون بأشياء منها كما قال الفقيه المحدث أحمد زروق المالكي رحمه الله في النصيحة الكافية: شغله بالذكر الدائم، والخلوة عن الخلق، وقلة المطعم.اهـ

وبهذا القدر من الحديث عن حفظ اللسان وفضيلة الصمت كفاية، واللبيب تكفيه الإشارة، والله وحده المسؤول أن يوفقنا لحفظ ألسنتنا، والنظر في عاقبة أمرنا.

التذكرة التاسعة والعشرون في قوله صلى الله عليه وسلم: لا ضرر ولا ضرار.

اعلم أيها النافر تبغي نصرة هذا الدين وإحياء سنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، أن الشريعة كما قال ابن القيم رحمه الله: مبناها وأساسها على الحِكَم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة، وإن أُدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله صلى الله عليه وسلم أتم دلالة وأصدقها، وهي نوره الذي به أبصر المبصرون، وهداه الذي به اهتدى المهتدون، وشفاؤه التام الذي به داء كل عليل، وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل.

ولما كانت الشريعة كذلك، فقد نهى الشارع الكريم عن إدخال الضرر على المسلم، ومنع أيما منع من الاعتداء على حق من حقوقه، ولا يجوز إدخال الضرر على مسلم إلا إذا تعدى حداً من حدود الله، فإنه يعاقب بقدر جريمته كما قال الحافظ ابن رجب رحمه الله في جامع العلوم والحكم.

قال صلى الله عليه وسلم: لا ضرر ولا ضرار. وإن كان هذا الحديث فيه مقال، إلا أنه جاء من طرق يقوي بعضها بعضاً، وله شواهد فينهض إلى درجة الحسن لغيره ويصلح للاستدلال به، كما قال أهل العلم، وقد ذكره الألباني في السلسلة الصحيحة وقال عنه: حديث صحيح.

قال الشيخ أبو يحي الليبي حفظه الله: وقد أصبح هذا الحديث قاعدة من القواعد التي يقوم عليها الفقه، قال صاحب المراقي: قد أسس الفقه على رفع الضرر.اهـ

ومعنى الحديث كما قال القرطبي: قال بعض العلماء: الضرر: الذي لك به منفعة وعلى جارك فيه مضرة.

والضرار: الذي ليس لك فيه منفعة وعلى جارك فيه المضرة، وقد قيل: هما بمعنى واحد، تكلم بهما جميعا على جهة التأكيد.

وقال الحافظ ابن رجب رحمه الله أيضاً في معناه: قيل الضرر: أن يدخل على غيره ضرراً بما ينتفع هو به، والضرار: أن يدخل على غيره ضرراً بلا منفعة له به، كمن منع ما لا يضره ويتضرر به

الممنوع، ورجح هذا القول طائفة منهم: ابن عبد البر وابن الصلاح، وقيل الضرر: أن يضر به من لا يضره، والضرار: أن يضر بمن قد أضر به على وجه غير جائز، وبكل حال فالنبي صلى الله عليه وسلم إنما نفى الضرر والضرار بغير حق.

وعليه فالواجب على المسلم أن يفطن لذلك، ويسعى جاداً الى عدم إدخال الضرر بكافة صوره وأشكاله على أخيه المسلم، بل الواجب عليه دفع الأذى والظلم عن أخيه متى قدر على ذلك.

فصل: ولما كانت ساحات الجهاد -كما هو الحال في كثير من ميادينه- تحوي بين جنباتها عصائب متعددة، وكتائب مختلفة، وليس كذلك فحسب، بل ربما كان هناك أفراد يأتمرون بأمر أنفسهم وهذا حاصل، كان لا بد والأمر كذلك، أن يدرك الجميع، أن شرعنا الحنيف لا يجيز لأحد أن يجلب الضرر على إخوانه، ولا أن يكون سبباً في إلحاق الأذى بمن يشاركه مسير الجهاد، وطريق التضحيات، بل الواجب على الجميع أن يراعي المصلحة العامة لأهل الجهاد، حيث لا ضرر ولا ضرار، وأن يتعاونوا على البر والتقوى، وأن يفوتوا مصالحهم الشخصية، طمعاً في تحقيق المصلحة العامة للجهاد والمجاهدين، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ويجب أن يعلم كل مجاهد نافر لخدمة دينه أن الضرر الخاص يُتحمل لدفع الضرر العام، وهذه قاعدة عظيمة من قواعد الدين، قال الشاطبي رحمه الله في الموافقات وذلك في معرض حديثه عن جلب المصلحة ودفع المفسدة: فيمنع الجالب أو الدافع مما همَّ به لأن المصالح العامة مقدمة على المصالح الخاصة، بدليل النهي عن تلقي السلع وعن بيع الحاضر للبادي، واتفاق السلف على تضمين الصناع مع أن الأصل فيهم الأمانة.

ومن صور ذلك الضرر الذي قد يلحق بعموم المجاهدين سوء عاقبته، في حال قيام فرد أو جماعة معينة به دون النظر في عاقبة أمر الآخرين، الحركة في مواطن يمنع فيها الحركة، والاتصال من أماكن يمنع فيها الاتصال، والقيام بعمليات يمنع فيها العمل العسكري لمصلحة المجاهدين عامة، إلى غير ذلك من صور وأشكال يعود الضرر عند القيام بها على مجموع المجاهدين والله أعلم.

وعلى كل حال على المجاهد في سبيل الله أن يتقي الله في جميع شأنه، وينظر دائما لمصلحة المسلمين، ويترفع عن ذاته، ويسمو عن تحقيق مكاسبه الشخصية رغبةً وطمعاً في الحفاظ على المصلحة العامة للمجاهدين، ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، والله ولي التوفيق.

التذكرة الثلاثون في قوله تعالى: { وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }.

إن من مكارم الأخلاق ومحاسنها، وعلامة النبلاء وشيمهم، وخصال المتقين، كظم الغيظ والعفو عن من أساء، والتجاوز عمن ظلم وأذى، والعفو مندوب إليه موعود بالثواب فاعله كما قال الجصاص في أحكام القرآن، ولقد أثنى العلي القدير في كتابه الكريم على من اتصف بصفات الخير من كظم الغيظ والعفو والإحسان فقال سبحانه وتعالى عن صفات المتقين:{ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }، قال السعدي رحمه الله: { والكاظمين الغيظ } أي: إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم -وهو امتلاء قلوبهم من الحنق، الموجب للانتقام بالقول والفعل- هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم. { والعافين عن الناس } يدخل في العفو عن الناس، العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل، والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة، وتخلى عن الأخلاق الرذيلة، وممن تاجر مع الله، وعفا عن عباد الله رحمة بهم، وإحسانا إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه، ويكون أجره على ربه الكريم، لا على العبد الفقير، كما قال تعالى: { فمن عفا وأصلح فأجره على الله }. ثم ذكر حالة أعم من غيرها، وأحسن وأعلى وأجل، وهي الإحسان، فقال تعالى: { والله يحب المحسنين }. ومن ذلك أيضاً في كتاب الله: { وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ }، وعزائم الأمور كما قال أبو بكر الطرطوشي رحمه الله في سراج الملوك: من صفات المصطفين من الرسل عليهم السلام، وقوله تعالى: { خُذِ الْعَفوَ وَأْمُر بِالعُرْفِ وَأَعْرِض عَنِ الجَاهِلِيَن}، قال القرطبي رحمه الله: هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات.

فقوله: "خذ العفو" دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين ودخل في قوله: " وأمر بالعرف" صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار. وفي قوله: " وأعرض عن الجاهلين" الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: والأحاديث والآثار في استحباب العفو عن الظالم وأن أجره بذلك أعظم كثيرة جداً وهذا من العلم المستقر في فطر الآدميين، وقد قال تعالى لنبيه: خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين. فأمره أن يأخذ بالعفو في أخلاق الناس.

وقال أيضاً رحمه الله: ومن أعمال أهل الجنة أن تصل من قطعك، وتعطى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، فإن الله أعد الجنة للمتقين، الذين ينفقون أموالهم في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين.

وأحوج الناس إلى التحلي بخلق كظم الغيظ، والعفو عمن أساء، هم المجاهدون في سبيل الله، حيث يعرض لهم في طريقهم الطويل، أصناف من الناس شتى، ذوي أُصول مختلفة، وعادات متنوعة، وأخلاق متباينة، فحريٌ بكل مجاهد أن يدرأ السيئة بالحسنة، ولا يقابل السيئة بمثلها، ويدفع بالتي هي أحسن، ويروض نفسه على ذلك، ويأزها أزاً على التحلي بمحاسن الأخلاق، ومكارم الصفات، وهذا ولا شك يحتاج إلى مجاهدة النفس، ومغالبتها بالصبر وكظم الغيظ، واحتساب الأذى في سبيل الله، وليعلم كل مسلم أن كظم الغيظ يتبعه العفو عمن أساء، وأعظم من هذا وذاك أن تتبعه كما قال الشيخ أبو يحيى الليبي بالدعاء لمن أساء لك بظهر الغيب فهذه قمة الأخلاق الحسنة، التي يجب أن يتحلى بها المسلم أينما حلَّ وحيثما ارتحل، والله الهادي إلى أحسن الأخلاق.

قال الشيخ أبو قتادة الفلسطيني فك الله أسره في مقال له بعنوان: " التي هي أحسن " وذلك في معرض حديثه عن قوله تعالى: "إن الشيطان ينزع بينهم": ولما كان أمر النفس والهوى حاضراً في المعصية ومع الشيطان كان أمر الكلمة الحسنة شديداً على النفس، لأنها تحتاج إلى التواضع وخفض الجناح وذهاب حظوظ المرء، فنفس المرء تميل وتهوى الانتصار على الغير، والكلمة الحسنة لا بد فيها من قطع حظوظ النفس والهوى لما فيها من خفض الجناح وكسر تطلّع النفس من الانتصار والغلبة، وفي الآية دليل على أن الكلمة الحسنة هي مفتاح الخير بين الإخوان، وبها تجتمع القلوب وتأتلف فلا بدّ من تحرّيها والجهد في إصابتها ليقطع على الشيطان مراده.اهـ

فائدة: قال شيخ الإسلام رحمه الله: فالكاظم للغيظ والعافي عن الناس قد أحسن إلى نفسه والى الناس، فإن ذلك عمل حسنة مع نفسه ومع الناس، ومن أحسن إلى الناس فإلى نفسه كما يروى عن بعض السلف أنه قال ما أحسنت إلى أحد وما أسأت إلى أحد وإنما أحسنت إلى نفسي وأسأت

إلى نفسي قال تعالى: إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها. وقال تعالى: من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها.

فصل: ولقد تفانى السلف الصالح في كظم الغيظ، والعفو عن الناس، والإحسان إليهم، ومن ذلك ما رواه البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن رجلاً استأذن على عمر رضي الله عنه، فأذن له، فقال له: يا ابن الخطاب، والله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر رضي الله عنه، حتى همَّ أن يوقع به. فقال الحر بن قيس: يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل قال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: { خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين } وإن هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر رضي الله عنه حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل.

ومن ذلك ما ذكره ابن عساكر رحمه الله في تاريخ دمشق، أن جارية لعلي بن الحسين جعلت تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة، فسقط الإبريق من يد الجارية على وجهه فشجه فرفع علي بن الحسين رأسه إليها فقالت الجارية: إن الله عز وجل يقول: " والكاظمين الغيظ" فقال: لها قد كظمت غيظي قالت: " والعافين عن الناس "، قال: قد عفا الله عنك، قالت:" والله يحب المحسنين " قال: فاذهبي فأنت حرة.

وقال ابن المبارك رحمه الله: كنت عند المنصور جالساً فأمر بقتل رجل، فقلت: يا أمير المؤمنين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا كان يوم القيامة نادى مناد بين يدي الله عز وجل من كانت له يد عند الله فليتقدم، فلا يتقدم إلا من عفا عن ذنب. فأمر بإطلاقه.

فصل: وضد كظم الغيظ السرعة إلى الغضب وهو مفتاح كل شر، وهو عدو العقل، وهو كما قال أحد الحكماء من أطاعه فقد حرم السلامة.

والغضب كما قال ابن قدامة المقدسي في مختصر منهاج القاصدين: شعلة من النار، وأن الإنسان ينزع فيه عند الغضب عرق إلى الشيطان اللعين، حيث قال: " خلقتني من نار وخلقته من طين"، فإن شأن الطين السكون والوقار، وشأن النار التلظي والاشتعال، والحركة والاضطراب.اهـ

وقد تكاثرت الأحاديث والآثار التي تنهى عن الغضب وتحذر منه، فقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه و سلم أوصني قال: لا تغضب. فردد مراراً، قال: لا تغضب.

قال صاحب الفتح رحمه الله: قال ابن التين: جمع صلى الله عليه وسلم في قوله: لا تغضب، خير الدنيا والآخرة لأن الغضب يؤول إلى التقاطع ومنع الرفق، وربما آل إلى أن يؤذي المغضوب عليه فينتقص ذلك من الدين.

وقال العيني صاحب عمدة القاري: قال البيضاوي: لعله لما رأى أن جميع المفاسد التي تعرض للإنسان إنما هي من شهوته وغضبه، والشهوة مكسورة بالنسبة إلى ما يقتضيه الغضب، فلما سأله الرجل الإرشاد إلى ما يتوسل به إلى التحرز عن القبائح وعن الغضب الذي هو أعظم ضرراً وأكثر وزراً وأنه إذا ملكها كان قهر أقوى أعدائه، أمره بها.

وقال الخطابي: معنى لا تغضب لا تتعرض لأسباب الغضب وللأمور التي تجلب الغضب، إذ نفس الغضب مطبوع في الإنسان، لا يمكن إخراجه من جبلته أو معناه: لا تفعل ما يأمرك به الغضب ويحملك عليه من الأقوال والأفعال.

وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تعدون الرقوب فيكم. ؟ قال: قلنا الذي لا يولد له قال ليس ذاك بالرقوب ولكنه الرجل الذي لم يقدم من ولده شيئا قال: فما تعدون الصرعة فيكم.؟ قال قلنا الذي لا يصرعه الرجال، قال: ليس بذلك ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب.

قال النووي رحمه الله: ومعنى الحديث أنكم تعتقدون أن الرقوب المحزون هو المصاب بموت أولاده وليس هو كذلك شرعاً، بل هو من لم يمت أحد من أولاده في حياته فيحتسبه يكتب له ثواب مصيبته به وثواب صبره عليه، ويكون له فرطاً وسلفاً، وكذلك تعتقدون أن الصرعة الممدوح القوي الفاضل هو القوي الذي لا يصرعه الرجال بل يصرعهم وليس هو كذلك شرعاً، بل هو من يملك نفسه عند الغضب، فهذا هو الفاضل الممدوح الذي قلَّ من يقدر على التخلق بخلقه، ومشاركته في فضيلته بخلاف الأول. والأحاديث في هذا الباب كثيرة وفيما سبق كفاية، لمن كان له هداية.

فصل: وأما حسم مادة الغضب وقطع أسبابه وكسر شوكته، فتكون كما قال الغزالي رحمه الله: بقطع الأسباب المهيجة للغضب وهي: الزهو، والعجب، والمزاح، والهزل، والهزء، والتعيير، والمماراة، والمضادة، والغدر، وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعاً، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب، فلا بد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها، فتميت الزهو بالتواضع، وتميت العجب بمعرفتك بنفسك، وتزيل الفخر بأنك من جنس عبدك، إذ الناس يجمعهم في الانتساب أب واحد، وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر وتفضل عنه إذا عرفت ذلك، وأما الهزل فتزيله بالجد في طلب الفضائل، والأخلاق الحسنة والعلوم الدينية، التي تبلغك إلى سعادة الآخرة، وأما الهزء فتزيله بالتكرم عن إيذاء الناس، وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك، وأما التعيير فالحذر عن القول القبيح، وصيانة النفس عن مُرِّ الجواب، وأما شدة الحرص على مزايا العيش فتزال بالقناعة بقدر الضرورة طلبا لعز الاستغناء وترفعا عن ذل الحاجة.

أما علاج الغضب بعد هيجانه وثورانه فيكون بمعجون العلم والعمل كما قال الغزالي رحمه الله ومن ذلك: التفكر في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال فيرغب في ثوابه، فتمنعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشفي والانتقام وينطفئ عنه غيظه.

ومن ذلك أيضاً: أن يخوف نفسه بعقاب الله وهو أن يقول قدرة الله عليَّ أعظم من قدرتي على هذا الإنسان، فلو أمضيت غضبي عليه لم آمن أن يمضي الله غضبه علي يوم القيامة أحوج ما أكون إلى العفو.

ومنه أيضاً: أن يُحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام، وتَشَمُّر العدو لمقابلته، والسعي في هدم أعراضه والشماتة بمصائبه.

ومن ذلك أيضاً: أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب، ويتفكر في قبح الغضب في نفسه ومشابهة صاحبه للكلب الضاري والسبع العادي، ومشابهة الحليم الهادئ التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء.

أما العمل فيكون بالاستعاذة من الشيطان الرجيم، كما أمر بذلك النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، فإن لم يزل بذلك فعلى الغاضب أن يجلس إن كان قائماً، ويضطجع إن كان جالساً،

كما أمر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فإن لم يزل فليتوضأ الغاضب بالماء البارد أو يغتسل، فإن النار لا يطفئها إلا الماء: فقد قال صلى الله عليه وسلم: إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء فإنما الغضب من النار. وفي رواية: إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ.

فصل: وهذه جملة مختارة من الكلمات الحكيمة في التحذير من الغضب، وذمه، واجتنابه، والانتباه من الوقوع في براثينه، ذكرها ابن الأزرق المالكي رحمه الله في " بدائع السلك في طبائع الملك" قال رحمه الله: أسرع الناس جواباً من لا يغضب. الغضب عدو، والعقل صديق. إذا جاء الغضب، تسلط العطب. من أطاع الغضب، حرم السلامة. أول الغضب جنون، وآخره ندم. إياك والغضب، فإن الغضب على من لا يملك عجز، وعلى من يملك ندم. الغضب يفسد الإيمان، كما يفسد الصبر العسل. الغضب مفتاح كل شر.

رأس الحمق وقائده الغضب. من رضي بالجهل استغنى عن الحلم. من أطاع غضبه في شهوة، قاده إلى النار.اهـ

فتأمل عاقبة الغضب، وسوء مرده، وعظيم فساده، واحرص بعد هذا على اجتنابه، وإياك والانزلاق في مهاوي ضلاله، فهو رأس كل شر، وأساس كل خلق سيء.

التذكرة الحادية والثلاثون في: المحافظة على المال العام للمجاهدين.

اعلم علمني الله وإياك أن المحافظة على أموال المجاهدين فرض واجب على كل مجاهد، وحرمته مثل حرمة المال الخاص، حيث أن هذا المال معد لنوائب المجاهدين، والصرف في ما فيه منفعة لهم، قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ }، قال الجصاص في أحكام القرآن: منع كل أحد أن يأكل مال غيره إلا برضاه . ولا شك أن الأموال العامة قد وجدت لخدمة عموم المجاهدين، وقضاء حوائجهم، وقد عدَّ بعض العلماء التصرف في المال العام كالتصرف في مال اليتيم، بحيث لا يصرفه الولي إلا بما يحقق فيه مصلحة اليتيم، مسترشدين بذلك بقول عمر

رضي الله عنه: إني أنزلت مال الله مني بمنزلة مال اليتيم، فإن استغنيت عففت عنه، وإن افتقرت أكلت بالمعروف.

وهكذا يجب أن يكون كل من استرعاه الله أمانة من أمانات المسلمين، يجب عليه أن لا يتصرف فيها وفق هواه، أو وفق ما تمليه عليه مصلحته الخاصة، وإنما يجب أن ينظر إلى المصلحة العامة، ويعمل بمقتضاها، بحيث يعود النفع على عموم المسلمين، ويجب أن يحافظ عليها محافظته على ماله الخاص، بل أشد محافظة حيث المصلحة هنا متعدية إلى غيره.

وقد ورد في المتصرف في مال الله بغير حق وعيدٌ أليمٌ وزجرٌ شديدٌ، فقد ثبت في صحيح البخاري عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حق، فلهم النار يوم القيامة. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح: أي يتصرفون في مال المسلمين بالباطل، وفيه: أن من أخذ من الغنائم شيئاً بغير قَسْمِ الإمام كان عاصياً، وفيه ردع الولاة أن يأخذوا من المال شيئاً بغير حقه أو يمنعوه من أهله.

وقال الصنعاني رحمه الله في سبل السلام: الحديث دليل على أنه يحرم على من لم يستحق شيئاً من مال الله بألا يكون من المصارف التي عينها الله تعالى أن يأخذه ويتملكه، وأن ذلك من المعاصي الموجبة للنار، وفي قوله: " يتخوّضون " دلالة على أنه يقبح توسعهم منه زيادة على ما يحتاجون، فإن كانوا من ولاة الأموال أبيح لهم قدر ما يحتاجونه لأنفسهم من غير زيادة.

وقال صلى الله عليه وسلم: إن هذا المال خضرةٌ حلوةٌ فمن أصابه بحقه بورك له فيه، ورُبَّ متخوض فيما شاءت نفسه من مال الله و رسوله ليس له يوم القيمة إلا النار.

قال العلامة المباركفوري رحمه الله في تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: أي ربَّ متصرف في مال الله بما لا يرضاه الله أي: يتصرفون في بيت المال، ويستبدون بمال المسلمين بغير قسمة، وقيل هو التخليط في تحصيله من غير وجه كيف أمكن." فيما شاءت نفسه" أي: فيما أحبته والتذت به " ليس له " أي: جزاء " يوم القيامة إلا النار"، أي دخول جهنم، وهو حكم مرتب على الوصف المناسب وهو الخوض في مال الله تعالى.

فصل: ولقد كان السلف رضوان الله عليهم أحرص الناس على بيت مال المسلمين، وأزهدهم فيه، وأعفهم عنه، فهذا الصديق رضي الله عنه يوم أن حضرته الوفاة يقول لعائشة رضي الله عنها كما ذكر ابن شبة النميري: يا بنية إنا ولينا أمر المسلمين فلم نأخذ لهم ديناراً ولا درهماً، ولكنا أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وإنه لم يبق عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير، إلا هذا العبد الحبشي، وهذا البعير الناضح، وجرد هذه القطيفة، فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر، فجاءه الرسول وعنده عبد الرحمن بن عوف فبكى عمر حتى سالت دموعه على الأرض وقال: رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده، ارفعهن يا غلام، فقال عبد الرحمن: سبحان الله يا أمير المؤمنين تسلب عيال أبي بكر عبداً حبشياً، وبعيراً ناضحاً، وجرد قطيفة ثمنها خمسة دراهم، فقال ما تأمر. ؟ قال: آمر بردهن على عياله، قال: خرج أبو بكر عنهن عند الموت وأردهن أنا إلى عياله، لا يكون ذلك والله أبداً الموت أسرع من ذلك.

ولقد كان الفاروق عمر من أشد الناس ورعاً في أموال المسلمين فقد روى صاحب الطبقات الكبرى عن الأحنف: قال: كنا جلوساً بباب عمر فمرت جارية فقالوا سُرية أمير المؤمنين، فقالت: ما هي لأمير المؤمنين بسرية وما تحل له، إنها من مال الله، فقلنا: فماذا يحل له من مال الله.؟ فما هو إلا قدر أن بلغت وجاء الرسول فدعانا فأتيناه فقال: ماذا قلتم.؟ قلنا: لم نقل بأساً، مرت جارية فقلنا هذه سرية أمير المؤمنين، فقالت: ما هي لأمير المؤمنين بسرية وما تحل له، لأنها من مال الله، فقلنا: فماذا يحل له من مال الله.؟ فقال: أنا أخبركم بما أستحل منه، يحل لي حلتان، حلة في الشتاء وحلة في القيظ، وما أحج عليه وأعتمر من الظهر، وقوتي وقوت أهلي كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم، ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبني ما أصابهم.

وهذه رائعة أخرى من روائعه قلما يجود الزمان بمثلها تبين شدة حرصه رضوان الله عليه على بيت مال المسلمين، فقد أرسل إليه واليه على المدينة أن يصرف له شمع فأجابه عمر: لعمري لقد عهدتك يا ابن أم حزم وأنت تخرج من بيتك في الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح، ولعمري لأنت يومئذ خير منك اليوم، ولقد كان في فتائل أهلك ما يغنيك والسلام. وكتب إليه أيضاً وقد طلب قراطيس للكتابة: إذا جاءك كتابي هذا فأدق القلم واجمع الخط، واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة، فإنه لا حاجة للمسلمين في فضل قول أضرّ بيت مالهم.

وهذا الذي ذكرناه إنما هو غيض من فيض، وجزء من كل من آثار القوم المرضي عنهم، نثرنا جواهره بين يديك لتتلمس خطى الراحلين، فيكون لك بذلك عظة وعبرة، وموعظة حسنة، فتتقي الله فيما بين يديك من مال أو متاع قد استرعاك الله إياه فتحفظه، ولا تصرفه إلا فيما فيه مصلحة للمسلمين، والله وحده المسؤول عن التوفيق والسداد.

التذكرة الثانية والثلاثون في قوله صلى الله عليه وسلم: كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.

إن الأمانة العظيمة الملقاة على عاتق كل من حمَّله الله حملاً من أحمال المسلمين، أو ولاَّه شأناً من شؤونهم، لتجعل المرء يقف طويلاً متأملاً هذا العبء الذي أشفقت من حمله السموات والأرض، إن قضية إمارة الناس، والوقوف على مصالحهم لهو والله أمرٌ عظيم القدر، مهيبٌ جليلٌ لا يوفق للقيام بحقه إلا من أراد الله به خيراً، ويسر له أمره وجعل له من ذلك حظا، قال صلى الله عليه وسلم: كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، قال النووي رحمه الله: قال العلماء: الراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه، وما هو تحت نظره، ففيه أن كل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه، والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته.

وقال الحافظ في الفتح: قال الطيبي: في هذا الحديث أن الراعي ليس مطلوباً لذاته وإنما أقيم لحفظ ما استرعاه المالك، فينبغي أن لا يتصرف إلا بما أذن الشارع فيه.

وقال عليه الصلاة والسلام في الحديث المتفق عليه: ما من عبد يسترعيه الله رعية من المسلمين فيموت يوم يموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة.

قال النووي رحمه الله: قال القاضي عياض: معناه بَيِّن في التحذير من غش المسلمين لمن قلده الله تعالى شيئا من أمرهم واسترعاه عليهم، ونصَّبه لمصلحتهم في دينهم أو دنياهم، فإذا خان فيما اؤتمن عليه فلم ينصح فيما قلده، إما بتضييعه تعريفهم ما يلزمهم من دينهم، وأخذهم به، وإما بالقيام بما يتعين عليه من حفظ شرائعهم، والذب عنها لكل متصد لإدخال داخلة فيها، أو تحريف لمعانيها أو إهمال حدودهم، أو تضييع حقوقهم، أو ترك حماية حوزتهم، ومجاهدة عدوهم، أو ترك سيرة

العدل فيهم، فقد غشهم، قال القاضي: وقد نبه صلى الله عليه وسلم على أن ذلك من الكبائر الموبقة المبعدة عن الجنة، والله أعلم.

فهذه النصوص البينة الواضحة وغيرها مما يضيق المقام بسرده، تجعل كل من استرعي شأناً من شؤون المسلمين، يأخذ حذره، ويحتاط كل الحيطة في رعيته، ويسهر كل السهر لهدايتهم طريق الصواب، ويقوم على مصالحهم أتم القيام، ويعمل فيهم بالسوية، وينصح لهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وليعلم أن القيام على شؤون المسلمين بالعدل بينهم من أعظم القربات إلى الله، فليجتهد في ذلك غاية جهده، وليضع نصب عينيه قوله صلى الله عليه وسلم: إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا. رواه مسلم، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

فصل: وليعلم كل من وَلِيَ أمراً من أمر المسلمين أنه مطالب شرعاً أن يولي شؤون المسلمين الأصلح فالأصلح، والأمثل فالأمثل، والأنفع فالأنفع، ويجب أن لا تأخذه خصومة، أو حظ نفس، أو محاباة أحد، أو صلة قرابة، أو مصلحة خاصة مرجوة، أو ما شابه ذلك من تقديم المفضول على الفاضل، إلا إذا ترجح له مصلحة معينة، كما ترجح لمعاوية رضي الله عنه في تولية ابنه يزيد مع وجود الفاضل حرصاً منه رضوان الله عليه على اتفاق كلمة المسلمين.

قال ابن بطال رحمه الله في شرحه لصحيح البخاري: ويجب على الوالي أن لا يولي أحدًا من عصابته، وفى الناس من هو أرضى منه، فقد روى عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهم إن فعلوا ذلك فقد خانوا الله ورسوله، وخانوا جميع المؤمنين.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: فيجب على ولي الأمر أن يولي على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل قال النبي صلى الله عليه و سلم: من وَلِيَ من أمر المسلمين شيئاً فولَّى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله. وفي رواية: من ولَّى رجلاً على عصابة وهو يجد في تلك العصابة من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله وخان المؤمنين. رواه الحاكم في صحيحة. وروى بعضهم أنه من قول عمر: لابن عمر روى ذلك عنه، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من وَلِيَ من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين.

وهذا واجب عليه، فيجب عليه البحث عن المستحقين للولايات من نوابه على الأمصار، من الأمراء الذين هم نواب ذي السلطان والقضاة ونحوهم ومن أمراء الأجناد ومقدمي العساكر الصغار والكبار... إلى أن قال رحمه الله: فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره لأجل قرابة بينهما أو ولاء عتاقة أو صداقة أو مرافقة في بلد أو مذهب أو طريقة أو جنس: كالعربية والفارسية والتركية والرومية، أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة، أو غير ذلك من الأسباب أو لضغن في قلبه على الأحق أو عداوة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ودخل فيما نهي عنه في قوله تعالى: { يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون }.

ويجب أن يدرك الأمراء أنهم محط أنظار الرعية، وهم قدوة لهم في أفعالهم وحركاتهم وسكناتهم فإن تساهوا تساهى غيرهم، وإن قصروا قصر غيرهم، وإن فرطوا فرط غيرهم، فليراقبوا حركاتهم وسكناتهم فهم القدوة لمن سيخلفهم في حمل الراية.

وعلى من استرعاه الله رعية من المسلمين أن لا يشدد عليهم، وأن لا يحمل عماله ما لا يطيقون، ولا يلزمهم بما هو فوق قدرتهم، وأن يأمرهم بالمستطاع حتى يطاع، فإن ذلك أدعى للحفاظ على الراعي والرعية.

قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم: اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به.

وليعلم من ابتلي بالقيام على مصالح المسلمين أن الإمارة كما قال الشيخ القدوة عمر عبد الرحمن فك الله أسره: ليس الحكم غنيمة، وليس الحكم أُمنية يتطلع إليها ليغترف من خيراتها وأموالها، إنما الحكم أمانة ومسؤولية، يُسئل عنها أمام الله، فلو عثرت بغلة، لو عثر حيوان في أقصى الأماكن التي يحكمها؛ لسأله الله عن هذا الحيوان، لِمَ لم تعبد له الطريق.؟اهـ

فائدة: عن أبي عبد الله الحرسي وكان من حرس عمر بن عبد العزيز قال: دخل أبو مسلم الخولاني على معاوية بن أبي سفيان فقال: السلام عليك أيها الأجير فقال الناس: الأمير يا أبا مسلم، ثم قال: السلام عليك أيها الأجير، فقال الناس: الأمير فقال معاوية دعوا أبا مسلم فهو أعلم بما يقول قال أبو مسلم: إنما مثلك مثل رجل استأجر أجيراً فولاه ماشيته، وجعل له الأجر على أن يحسن الرعية ويوفر جزازها وألبانها فإن هو أحسن رعيتها، ووفر جزازها حتى تلتحق الصغيرة، وتسمن

العجفاء، أعطاه أجره وزاده من قبله زيادة، وإن هو لم يحسن رعيتها، وأضاعها حتى تهلك العجفاء، وتعجف السمينة، ولم يوفر جزازها وألبانها غضب عليه صاحب الأجر فعاقبه ولم يعطه الأجر فقال: معاوية ما شاء الله.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه على المنبر في يوم الجمعة أيها الرعاء: إن لرعيتكم حقوقاً الحكم بالعدل، والقسم بالسوية، وما من حسنة أحب إلى الله من حكم إمام عادل.

التذكرة الثالثة والثلاثون في: آداب حمل السلاح

لقد وصى الشارع الحكيم بجملة آداب يتعين على المجاهد أن يتحلى بها، ويتصف بها، بل يجب أن تصبح جزءً لا يتجزأ منه، حيث يترتب على تركها، وإهمال النظر فيها، مصائب وخيمة، قد تفضي في كثير من الأحيان إلى القتل، أو الجرح، أو العاهة المستديمة عافانا الله والمسلمين من مغبة ذلك.

ومن جملة تلك الآداب التي ينبغي الأخذ بها، ما جاء في الحديث الذي رواه الحاكم في المستدرك والترمذي وغيرهم عن جابر رضي الله عنه قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتعاطى السيف مسلولا. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

ولأحمد والبزار من وجه آخر عن جابر: أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقوم في مجلس يسلون سيفاً يتعاطونه بينهم غير مغمود فقال: ألم أزجر عن هذا. ؟ إذا سل أحدكم السيف فليغمده ثم ليعطه أخاه.

وعليه فإن على حامل السلاح وقد تغيرت الأزمنة، وانتشرت الأسلحة النارية، ولم يعد السيف وغيره مما يعتد به في القتال، أن يتأكد من سلاحه قبل أن يسلمه لأخيه، ولا يسلمه له إلا وقد أخلى بيت النار من الرصاص، وتأكد من ذلك بالقيام بإجراءات السلامة المعروفة، ولا يسلمه لأخيه إلا وقد أمال فوهته للأسفل، ورفع سبابته عن الزناد، ومما ننصح به في هذا الباب أيضاً أن لا يترك المجاهد الرصاص في بيت النار إلا في حال الخطر المؤكد، أما في غير ذلك وخاصة في الأماكن العامة للمجاهدين، ووسط تجمعاتهم، وفي مضافاتهم، وأثناء تنقلاتهم في أماكن آمنة، فالأفضل

والأحوط، عدم ترك الأعيرة النارية في بيت النار، ولكم فقدنا أحبة على قلوبنا بسبب هذا التقصير، ولقد كاد كاتب هذه الكلمات أن يصاب في أكثر من موطن بسبب هذا الإهمال، والعمل بما ذكرنا كفيلٌ بإذن المولى عز وجل بحماية كل فرد من جملة من المصائب قد يسببها الإهمال في الأخذ بهذه الأسباب.

ومن الآداب التي يجب أن يتحلى بها كل حامل سلاح أن لا يشير بسلاحه نحو أخيه البتة لا مازحاً ولا لاعباً ولا غير ذلك، ولقد ورد في ذلك نهيٌ صريحٌ، وتوبيخٌ زاجرٌ، لمن تسول له نفسه أن يتعدى حده، ويشير بسلاحه نحو أخيه، فقد ثبت في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح، فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من النار.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح: هو كناية عن وقوعه في المعصية التي تفضي به إلى دخول النار، قال ابن بطال: معناه أن أنفذ عليه الوعيد، وفي الحديث النهي عما يفضي إلى المحذور وإن لم يكن المحذور محققاً سواء كان ذلك في جد أو هزل.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى وإن كان أخاه لأبيه وأمه.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: قال ابن العربي: إذا استحق الذي يشير بالحديدة اللعن فكيف الذي يصيب بها.؟ وإنما يستحق اللعن إذا كانت إشارته تهديداً سواء كان جاداً أم لاعباً كما تقدم، وإنما أُوخذ اللاعب لما أدخله على أخيه من الروع، ولا يخفى أن إثم الهازل دون إثم الجاد، وإنما نهى عن تعاطي السيف مسلولاً لما يخاف من الغفلة عند التناول فيسقط فيؤذي.

فلا ينبغي للمسلم أن يُرَوِّع أخاه المسلم بأي طريق كان، وخاصةً في السلاح، فالخطأ الأول في هذا هو الخطأ الأخير، وكم من مزحة أورثت ندماً طوال الدهر.

قال شيخ المجاهدين عبد الله عزام رحمه الله بعد أن ساق بعضاً من هذه الأحاديث السابق ذكرها: ولقد سبب التفريط بالأخذ بهذه الأحاديث كثيراً من المشاكل، وأودى بكثير من الأرواح، وكثيراً ما يظن المرء أن سلاحه ليس فيه رصاص فيشير إلى أخيه ويضغط على الزناد فيقتل أخاه فيندم

ولات ساعة مندم، ولقد قتل أحدهم أمه بهذه الطريقة، ولذا يجب أخذ الاحتياط في حمل السلاح فلا يضع رصاصة في بيت النار، ولا يفك الأمان في البيت ولا يضع السلاح في متناول الأطفال الصغار.اهـ

رحم الله الشيخ ونسأل الله أن تجد وصيته آذاناً صاغية، فتعي هذه الوصية وتعمل بها، فقد كان رحمه الله، مثالاً يحتذى في الخير والتوجيه والإرشاد، فرحمة الله عليه.

التذكرة الرابعة والثلاثون في قوله تعالى: { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ..}.

إن مما يجب أن يعلمه كل مجاهد أن الدعاء هو جماع الخير، وديدن الأنبياء والرسل، وسر التوفيق، وعلامة رضى الخالق، ومخ العبادة، بل هو العبادة كلها، بل هو أكرم شيء على الخالق عز وجل، وما أُتيه أحد إلا وفق لكل خير، والدعاء كما قال القشيري رحمه الله في رسالته: مفتاح الحاجة، وهو مستروح أصحاب الفاقات، وملجأ المضطرين، ومتنفس ذوي المآرب.

وقد حثَّ عليه العلي القدير وأمر به في مواطن كثيرة من كتابه الكريم قال الله تعالى: { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}، وقال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}، وقال تعالى: {ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِين، وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ}، وقال تبارك وتعالى: { فَادْعُواْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}، والآيات والأحاديث الصحيحة في فضل الدعاء كثيرة جداً وهي أشهر من أن تشهر، وأظهر من أن تذكر. قال الصنعاني رحمه الله في سبل السلام: واعلم أن الدعاء ذكر الله وزيادة، فكل حديث في فضل الذكر يصدق عليه، وقد أمر الله تعالى عباده بدعائه فقال: ادعوني أستجب لكم. وأخبرهم بأنه قريب يجيب دعاءهم فقال: وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان. وسماه مخ العبادة ففي الحديث عند الترمذي من حديث أنس مرفوعا: الدعاء مخ العبادة. وأخبر صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يغضب على من لم يدعه، فعن أبي هريرة مرفوعاً: من لم يسأل الله يغضب عليه. وأخبر صلى الله عليه وسلم أنه تعالى يحب أن يسأل فأخرج الترمذي من حديث ابن مسعود مرفوعا: سلوا الله من

فضله فإنه يحب أن يسأل. والأحاديث في الحث عليه كثيرة، وهو يتضمن حقيقة العبودية والاعتراف بغنى الرب وافتقار العبد، وقدرته تعالى وعجز العبد، وإحاطته تعالى بكل شيء علما، فالدعاء يزيد العبد قرباً من ربه واعترافاً بحقه، ولذا حث صلى الله عليه وسلم على الدعاء، وعلَّم الله عباده دعاءه بقوله: ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا. الآية ونحوها وأخبرنا بدعوات رسله وتضرعهم حيث قال أيوب: أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين.

فصل: وللدعاء آداب حريٌ بكل داع أن يتحلى بها حتى يكون دعاءه أرجى للقبول عند الله قد ذكرها أهل العلم رحمهم الله في مصنفاتهم ومن تلك الآداب: استقبال القبلة، ورفع اليدين، وحضور القلب بحيث لا يكون ساهياً، وأن يبدأ دعاءه بحمد الله والثناء عليه ثم الصلاة على نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وأن يترصد الأزمان الشريفة كيوم عرفة، وشهر رمضان، والثلث الأخير من الليل إلى غير ذلك من أزمان، ويغتنم الأحوال الشريفة للدعاء كالدعاء بين الإقامة والصلاة، وعند التقاء الزحف ومباشرة الطعان، وفي السجود ووقت نزول الغيث إلى غير ذلك من أحوال يستحب فيها الدعاء، ومن آداب الدعاء أن يدعوه وقد امتلأ قلبه خشوعاً لله وذلةً ورهبةً منه سبحانه وتعالى، ويدعوه موقناً بالإجابة، إلى غير ذلك من آداب ذكرها أهل العلم رحمهم الله تعالى.

واعلم أن للدعاء شروطاً يجب توفرها في الداعي حتى يكون الدعاء مقبولاً عند الله عز وجل، فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لي.

قال ابن حجر رحمه الله في الفتح: وفي هذا الحديث أدب من آداب الدعاء، وهو أنه يلازم الطلب ولا ييأس من الإجابة لما في ذلك من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار، وقال الداودي: يخشى على من خالف وقال: قد دعوت فلم يستجب لي أن يحرم الإجابة وما قام مقامها من الادخار والتكفير.

وقال ابن القيم رحمه الله: ومن الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه أن يستعجل العبد ويستبطئ الإجابة فيستحسر ويدع الدعاء، وهو بمنزلة من بذر بذراً أو غرس غرساً فجعل يتعاهده ويسقيه فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله.

ومن شروط قبول الدعاء أيضاً ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم. وقال: يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك.

قال النووي رحمه الله: قوله صلى الله عليه وسلم: فأنى يستجاب لذلك. أي من أين يستجاب لمن هذه صفته.؟ وكيف يستجاب له.؟.

ومن شروط استجابة الدعاء أيضاً ما قاله شيخ الإسلام في قوله تعالى: وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون. وقد روي أن بعض الصحابة قال: يا رسول الله ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه. فأنزل الله هذه الآية، فأخبر سبحانه أنه قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ثم أمرهم بالاستجابة له وبالإيمان به كما قال بعضهم: فليستجيبوا إذا دعوتهم وليؤمنوا بي إذا دعوتهم. قالوا: وبهذين الشيئين تحصل إجابة الدعوة بكمال الطاعة لألوهيته، وبصحة الإيمان بربوبيته، فمن استجاب لربه بامتثال أمره ونهيه حصل مقصوده من الدعاء وأجيب دعاؤه كما قال تعالى: ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله. أي يستجيب لهم يقال استجابه واستجاب له.

فصل: ولا يعني عدم استجابة الدعاء أن الله لم يقبل دعوة الداع، بل في كثير من الأحيان يدخرها الله للعبد، أو يصرف عنه في دعائه سوءاً مثلها قال صلى الله عليه وسلم: ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجّل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها، قالوا: إذاً نكثر.؟ قال: الله أكثر.

فحال المؤمن في الدعاء بين هذه الثلاث وأنعم بها من حال، قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: ومن رحمة الله تعالى بعبده أن العبد يدعوه بحاجه من الدنيا، فيصرفها عنه، ويعوضه خيراً منها، إما أن يصرف عنه بذلك سوءاً أو يدخرها له في الآخرة، أو يغفر له بها ذنبا.

والدعاء كما قال العلامة ابن القيم ثلاثة أقسام أحدها أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته وهذا أحد التأويلين في قوله تعالى: ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها.

والثاني: أن تسأله بحاجتك وفقرك وذلك فتقول: أنا العبد الفقير المسكين البائس الذليل المستجير ونحو ذلك.

والثالث: أن تسأل حاجتك ولا تذكر واحداً من الأمرين، فالأول أكمل من الثاني، والثاني أكمل من الثالث، فإذا جمع الدعاء الأمور الثلاثة كان أكمل.

فائدة: اعلم علمني الله وإياك أن من فوائد الدعاء رد القضاء فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: إن الله إذا قدر أمراً فإنه يقدر أسبابه، والدعاء من جملة أسبابه، كما أنه لما قدر النصر يوم بدر، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم قبل وقوعه أصحابه بالنصر وبمصارع القوم، كان من أسباب ذلك استغاثة النبي صلى الله عليه وسلم ودعاؤه.

وقال الغزالي رحمه الله: فإن قلت: فما فائدة الدعاء والقضاء لا مرد له. ؟ فاعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة، كما أن الترس سبب لرد السهام، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح، وقد قال تعالى: {وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ}، كما أنه ليس من شرطه أن لا يسقي الأرض بعد بث البذر، فيقال: إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر وإن لم يسبق لم ينبت، بل ربط الأسباب بالمسبّبات هو القضاء الأول الذي هو كلمح البصر أو هو أقرب، وترتيب تفصيل المسبّبات على تفاصيل الأسباب على التدريج والتقدير هو القدر، والذي قدر الخير قدره بسبب، والذي قدر الشر قدر لرفعه سبباً، فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته.

فصل: وإن كان الدعاء في حق كل مسلم مستحباً كما قال النووي رحمه الله، إلا أنه في حق المجاهدين آكد وأوجب وخاصةً في مواطن الضرب والطعان، وملاقاة الخصوم في الميدان وهو بلا شك عاملٌ عظيم وسبب موجب لتنزل نصر الله على المؤمنين قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون }، قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: وهذا تعريفٌ من الله جل ثناؤه أهل الإيمان به السيرة في حرب أعدائه من أهل الكفر به، والأفعال التي يُرجَى لهم

باستعمالها عند لقائهم النصرة عليهم والظفر بهم، ثم يقول لهم جل ثناؤه: "يا أيها الذين آمنوا"، صدقوا الله ورسوله إذا لقيتم جماعة من أهل الكفر بالله للحرب والقتال، فاثبتوا لقتالهم، ولا تنهزموا عنهم ولا تولوهم الأدبار هاربين، إلا متحرفًا لقتال أو متحيزاً إلى فئة منكم "واذكروا الله كثيرًا "، يقول: وادعوا الله بالنصر عليهم والظفر بهم، وأشعروا قلوبكم وألسنتكم ذكره "لعلكم تفلحون"، يقول: كيما تنجحوا فتظفروا بعدوكم، ويرزقكم الله النصر والظفر عليهم. وقال قتادة: افترض الله ذكره عند أشغل ما تكونون عند الضراب بالسيوف.

ولقد كان الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم أكثر ما يكون ملحاحاً في الدعاء، ومتضرعاً إلى جنابه الكريم طالباً النصر والعون منه في ميادين القتال، وساحات الوغى والنزال، فقد ثبت في صحيحي البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو في قبة في بدر: اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم. فأخذ أبو بكر بيده فقال حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك، وهو يثب في الدرع، فخرج وهو يقول: سيهزم الجمع ويولون الدبر. بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر.

وأما لفظ مسلم: عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا، فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض، فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه. وقال يا نبي الله: كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عز وجل: إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين. فأمده الله بالملائكة.

قال الشيخ أبو قتادة الفلسطيني فك الله أسره في مقال قيم من مقالات بين منهجين: في السيرة النبوية علاقة مع عالم الغيب، نعم هي حركة ومسيرة لا تخرِمُ شيئاً من سنة الله تعالى الكونية، بل هي في إطارها، ولكن من سنن الله الكونية علاقة الشهادة بالغيب، ومن سننه حصول الرعب لدى الأعداء، ومن سننه حصول أثر الدعاء، ومن سننه أن ينصر المؤمنين به بسبب ضعفائهم، هذه السنن الكونية سننٌ تعادل شطر عالم الشهادة وسنن الحياة الظاهرة لا ينتبه لها إلا المتضلع بسنة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته، أما غيره فهذه أمور لا يقيم لها وزناً ولا يرفع لها رأساً، سبابة الدعاء

المرتفعة إلى السماء تعادل سيفاً ورمحاً مُشرَعاً، بكاء الثكالى وصراخ المظلومين، هي سهام الليل التي يشتت الله بها الأعداء والكفار.

إن أعظم البشر وأشجعهم وأشدهم بأساً صلى الله عليه وسلم كان في بدر يناجي ربه، لأن هذه المناجاة هي من أعظم السنن التي يستغلها أهل الإسلام في القضاء على الأعداء والكفار.اهـ

فالدعاء لا شك من أعظم ما يستجلب به نصر الله، وأقوى ما يستعان به على علو أكتاف القوم الكافرين، ويخضد به شوكة القوم الظالمين، ويُمكَّنُ بواسطته للمؤمنين، ويدفع به البلاء والضراء، ويجلب به الخير والنعماء، وهو كما رأينا من جملة أسباب النصر في بدر، فالزم غرزه، واستمسك به، واعلم أن النصر مع الصبر، ولن يغلب عسر يسرين.

وهذه جملة مختارة من أدعيته صلى الله عليه وسلم في أثناء غزوه، وعند اشتداد البأس، وتقابل الزحفان.

الدعاء الأول: ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري: اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم.

الدعاء الثاني: ما ورد في جامع الأصول من أحاديث الرسول: اللهم أنت عضدي ونصيري، بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل. هذه رواية أبي داود. وفي رواية الترمذي: أنت عضدي، وأنت نصيري، وبك أقاتل.

الدعاء الثالث: إذا خاف قوماً قال: اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم. قال الحاكم:حديث صحيح على شرط الشيخان.

وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: "حسبنا الله ونعم الوكيل " قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: "إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ".

التذكرة الخامسة والثلاثون في: الهجرة من أجل الجهاد.

اعلم يا باغي الخير أن الهجرة هي عنوان الجهاد، ورمز التضحية، وسيرة العظماء، وطريق الجنة، وسبب النجاة، وعلامة الإيمان، ودليل الفلاح، وهي كما قال الشيخ عبد الله عزام رحمه الله: طريق الهجرة طريق إلى الجنة، طريق إلى الشهادة، طريق إلى الخير، طريق إلى الرزق، طريق إلى العزة، والهجرة هي الخطوة الأولى من خطوات الجهاد ولا بد منها.اهـ

وشأن الهجرة شديد على النفس، صعب مذاقه، مرير تجرعه، لا يتصدر له إلا الأفذاذ من البشر، الذين علو كل شيء، على أوطانهم، على ذكرياتهم، على مواطن الصبا، وميادين الأحبة، وهذا الذي يفسر لك الأجر العظيم، والمقام الكريم الذي وعد الله عباده المهاجرين، قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ الله وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، وقال تعالى: { الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ الله وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ}، وقال تعالى:{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}.

ولعظيم منزلة الهجرة ومكانتها، فقد قعد الشيطان على بابها صاداً عباد الله عن ولوجه، فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه فقعد له بطريق الإسلام فقال: تسلم وتذر دينك ودين آبائك ودين آباء أبيك.؟ فعصاه فأسلم ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول.؟ فعصاه وهاجر، ثم قعد له في طريق الجهاد فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال.؟ فعصاه فجاهد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فمن فعل ذلك كان حقاً على الله عز وجل أن يدخله الجنة، ومن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وقَصَتهُ دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة.

فكل طريق فيه خير لا بد أن يترصده الشيطان ويضع فيه العوائق كما قال ابن القيم رحمه الله: فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه، يمنعه بجهده أن يسلكه، فإن خالفه وسلكه ثبطه فيه وعوقه، وشوش عليه بالمعارضات والقواطع، فإن عمله وفرغ منه قيض له ما يبطل أثره ويرده على حافرته.

فصل: والإيمان والهجرة والجهاد أمور متلازمة، لا ينفك أحدهما عن الآخر، بل الهجرة سببٌ موصلٌ للجهاد في سبيل الله، وقد قرنها رب العزة معاً في مواطن كثيرة من كتابه الكريم، ويظهر ذلك جلياً فيما سبق ذكره من آيات.

قال ابن القيم رحمه الله: ولا يتم الجهاد إلا بالهجرة ولا الهجرة والجهاد إلا بالإيمان، والراجون رحمة الله هم الذين قاموا بهذه الثلاثة قال تعالى: { إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم }.

واعلم أن الهجرة من أجل الجهاد ماضية إلى يوم القيامة، لا يوقفها عدل عادل ولا جور جائر، فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الهجرة لا تنقطع ما دام الجهاد.

وعن رجاء بن حيوة عن أبيه عن الرسول الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الهجرة فقال: لا تنقطع ما جوهد العدو.

فالهجرة من أجل الجهاد قائمةٌ إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة المسيح الدجال فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال.

وربما يسأل سائل كيف نوفق بين هذا وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه: لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا.

فالجواب على ذلك كما قال النووي رحمه الله: قال العلماء الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام باقية إلى يوم القيامة، وفي تأويل هذا الحديث قولان أحدهما: لا هجرة بعد الفتح من مكة لأنها صارت دار إسلام، وإنما تكون الهجرة من دار الحرب وهذا يتضمن معجزة لرسول الله صلى الله عليه و سلم بأنها تبقى دار الإسلام لا يتصور منها الهجرة.

والثاني: معناه لا هجرة بعد الفتح فضلها كفضلها قبل الفتح كما قال الله تعالى: لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل.. الآية، وأما قوله صلى الله عليه و سلم: ولكن جهاد ونية. فمعناه ولكن لكم طريق إلى تحصيل الفضائل التي في معنى الهجرة وذلك بالجهاد ونية الخير في كل شيء.

وقال صاحب تحفة الأحوذي في قوله: ولكن جهاد ونية. قال الطيبي وغيره: هذا الاستدراك يقتضي مخالفة حكم ما بعده لما قبله، والمعنى أن الهجرة التي هي مفارقة الوطن التي كانت مطلوبة على الأعيان إلى المدينة انقطعت، إلا أن المفارقة بسبب الجهاد باقية، وكذلك المفارقة بسبب نية صالحة كالفرار من دار الكفر، والخروج في طلب العلم، والفرار بالدين من الفتن والنية في جميع ذلك.

وفي نفس المعنى قال الشيخ الفقيه عبد الله عزام رحمه الله: لا هجرة بعد الفتح... أي انقطعت الهجرة من مكة إلى المدينة السنة الثامنة من الهجرة بعد فتح مكة، وانتهى الأجر الذي كان يؤخذ بسبب هذا الشعار المسمى بالهجرة، فكان هنالك طائفة اسمها المهاجرون وهم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، انقطع هذا الشرف أو هذا الوسام يوم أن فتحت مكة لأن مكة أصبحت دار إسلام، فلم يعد هنالك في الهجرة تغرير بالمال، ولا بالنفس، ولا تعريض النفس ولا المال للهلاك، فلم يعد هنالك ذلك الشرف الرفيع والوسام العظيم الذي كان يأخذه الذي يهاجر من مكة إلى المدينة.

فهذا الوسام قطعه الله عز وجل يوم فتحت مكة فتوقف إعطاء الأوسمة للناس، لكن هنالك أوسمة أخرى مستمرة إلى يوم القيامة تتضمن معنى الهجرة، وهو الجهاد والنية إلى الجهاد.. (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية) أي انقطع ثواب الهجرة بفتح مكة، ولكن بإمكانكم أن تعوضوا هذا الثواب عن طريق آخر، عن طريق الجهاد، وعن طريق النية للجهاد، فالهجرة مستمرة إلى يوم القيامة.اهـ

فالمفارقة كما قال أهل العلم من أجل الجهاد باقية، والهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام فرض باق على تفصيل ذكره الفقهاء، والخروج من مواطن البدع لمن قدر عليه باق، والفرار من أرض غلب عليها الحرام باق، وجماع الهجرة كما قال شيخ الإسلام وجماع الهجرة هي هجرة السيئات وأهلها، وكذلك هجران الدعاة إلى البدع، وهجران الفساق وهجران من يخالط هؤلاء أو يعاونهم بقيوده الشرعية، فتنبه لذلك والله الموفق.

فصل: وقد تكفل الله عز وجل لمن خرج مهاجراً إليه أن يوسع عليه في رزقه، وأن يمكِّنه من إظهار دينه، ويُيسر له أمور معيشته، وأن يجد متزحزحاً عما يكره وهذا لا شك ملاحظ بالتجربة لمن هاجر إلى الله يبغي نصرة دينه قال تعالى: { وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا

وَسَعَةً }، يقول الأستاذ المعلم سيد قطب رحمه الله في ظلاله القيم وذلك في معرض حديثه عن هذه الآية: وهذه هي الهجرة المعتبرة في الإسلام، فليست هجرة للثراء، أو هجرة للنجاة من المتاعب، أو هجرة للذائذ والشهوات، أو هجرة لأي عرض من أعراض الحياة، ومن يهاجر هذه الهجرة – في سبيل الله – يجد في الأرض فسحة ومنطلقاً فلا تضيق به الأرض، ولا يعدم الحيلة والوسيلة للنجاة وللرزق والحياة: ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة. وإنما هو ضعف النفس وحرصها وشحها، يخيل إليها أن وسائل الحياة والرزق، مرهونة بأرض، ومقيدة بظروف، ومرتبطة بملابسات لو فارقتها لم تجد للحياة سبيلاً، وهذا التصور الكاذب لحقيقة أسباب الرزق وأسباب الحياة والنجاة، هو الذي يجعل النفوس تقبل الذل والضيم، وتسكت على الفتنة في الدين، ثم تتعرض لذلك المصير البائس، مصير الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، والله يقرر الحقيقة الموعودة لمن يهاجر في سبيل الله... إنه سيجد في أرض الله منطلقاً وسيجد فيها سعة، وسيجد الله في كل مكان يذهب إليه يحيه ويرزقه وينجيه..

ولقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يتسابقون لورود ثغور المسلمين، والسكنى فيها والذود عنها، طمعاً في الأجر، ورغبةً في الثواب، بل كانت هجرتهم إليها من أجل الجهاد وقد كان فرض كفاية آنذاك سبباً في شهرتها، وانتشار صيتها كما قال شيخ الإسلام رحمه الله: فلذلك كان صالحوا المؤمنين يرابطون في الثغور مثل ما كان الأوزاعي وأبو إسحاق الفزاري ومخلد بن الحسين وإبراهيم بن أدهم وعبد الله بن المبارك وحذيفة المرعشي ويوسف بن أسباط وغيرهم يرابطون بالثغور الشامية، ومنهم من كان يجيء من خراسان والعراق وغيرهما للرباط في الثغور الشامية، لأن أهل الشام هم الذين كانوا يقاتلون النصارى أهل الكتاب وفي السنن عن النبي أنه قال: من قتله أهل الكتاب فله أجر شهيدين. وذلك لأن هؤلاء يقاتلون على دين، وأما الكفار الترك ونحوهم فلا يقاتلون على دين فإذا غلبوا أولئك أفسدوا الدين والملك، وأما الترك فيفسدون الملك وما يتبع ذلك من الدين ولا يقاتلون على الدين، ولهذا كثر ذكر طرسوس في كتب العلم والفقه المصنفة في ذلك الوقت، لأنها كانت ثغر المسلمين حتى كان يقصدها أحمد بن حنبل والسري والسقطي وغيرهما من العلماء والمشايخ للرباط وتوفى المأمون قريبا منها، فعامة ما يوجد في كلام المتقدمين من فضل عسقلان، والإسكندرية أو عكة أو قزوين أو غير ذلك، وما يوجد من أخبار الصالحين الذين بهذه الأمكنة ونحو ذلك فهو لأجل كونها كانت ثغوراً لا لأجل خاصية ذلك المكان.

رحم الله أئمتنا فقد ضربوا المثل في كل شيء، ولم يتركوا لمن خلفهم سوى البكاء على أطلالهم، والاستئناس بقصصهم، هذا لمن ما زال في قلبه خير وغيرة من العلماء الربانيين.

التذكرة السادسة والثلاثون في: حقيقة الانتصار.

إن أول ما يتبادر إلى الذهن البشري حينما تطرق أبوابه كلمة الانتصار، هو ذاك الطيف البديع الذي يجلل النفس البشرية، وقد انتصرت العقيدة وعلت المبادئ، وابتهجت الروح وتنعم الجسد وتلمس الظفر والغلبة.

نعم! هذا هو الشعور الذي يواكب ويجلل النفس البشرية عندما تطرق مسامعها كلمة الانتصار، وهذا الأمر متحقق في كثير من المواطن والأزمان ولكن في مواطن كثيرة أيضاً قد تتخلف هذه السُنة الجارية، لحكمة جليلة لا يدرك كنه أمرها سوى العليم الحكيم، الذي أحاط بكل شيء علما.

أجل! إن هناك أمراً وحقيقةً كبرى يجب أن يدركها أهل الجهاد وهذه الحقيقة هي: جوهر الانتصار.

إن جوهر الانتصار الحقيقي هو انتصار العقيدة وسمو المبادئ، التي من أجلها بذلت التضحيات، وأُزهقت المهج والأرواح، وأُريقت الدماء، وتناثرت الأجساد، وتطايرت في جو السماء الأشلاء.

وعلى هذا ـ أي انتصار العقيدة ـ بايع الصدر الأول من الصحب الكرام إمام البشرية محمداً صلى الله عليه وسلم، وسار الركب المبارك تحفه العناية الربانية، لا يطمع في شيء من دنيا البشر، همه ومناه أن ينصر عقيدته ويذود دون حماها، ويمكن لها في قلوب الأتباع، لا يرجون بذلك ملكاً، ولا يمنون أنفسهم بصولجانٍ ولا بعرشٍ، راجين ثواب الآخرة والفوز بالنعيم المقيم هناك بين يدي أرحم الراحمين.

روى ابن كثير رحمه الله في السيرة النبوية عن عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري أخو بني سالم بن

عوف: يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل.؟ قالوا: نعم قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبةً وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة.

قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفَّيْنَا.؟

قال: الجنة.

قالوا: ابسط يدك.

فبسط يده فبايعوه.

قال الأستاذ أبو الحسن الندوي رحمه الله مقرراً تلك الحقيقة التي ذكرناها: حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم – بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم – وأنصفوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم، وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة، وفي اليوم رجال الغد، لا تجزعهم مصيبة، ولا تبطرهم نعمة، ولا يشغلهم فقر، ولا يطغيهم غنى، ولا تلهيهم تجارة، ولا تستخفهم قوة، ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم، قوامين بالقسط شهداء لله على أنفسهم أو الوالدين والأقربين. وطَّأ لهم أكناف الأرض، وأصبحوا عصمة للبشرية، ووقاية للعالم، وداعية إلى دين الله.

فصل: فعلى النافر يبغي نصرة دين الله أن يتفطن لهذه الحقيقة، ويعلم أن النصر ليس هو النصر العسكري فحسب، ولا الظفر بمعركة أو معركتين أو حتى ثلاث، وإنه من الإجحاف بمكان أن نختزل النصر في ذلك، إن النصر الحقيقي هو انتصار المبدأ الذي من أجله قاتلت، ولتحقيقه نفرت، فبلال رضي الله عنه انتصر على جلاد الجاهلية بكلمة واحد هي أحدٌ أحد، وآل ياسر رضي الله عنهم كذلك، إن الهزيمة الحقيقية هي هزيمة الفكرة التي تحملها، هي التراجع عن العقيدة التي كلفك الله بتبليغها للناس، هي التخلي عن المبدأ الذي من أجله جاهدت، هذه هي الهزيمة الحقيقية، أما ما دمت صابراً في الطريق، رافعاً الراية، قابضاً على الصمصام، مستعلياً على الباطل المتبجح بالسوء،

فأنت منتصر، وأنت الظافر، لأن العدو أقصى ما يرجو هو التخلي عن المبدأ، والتسليم له والخنوع بين يديه، فتفطن لذلك.

ولقد قصَّ علينا العليم الخبير في كتابه الكريم، بعضاً من قصص أُولئك النفر، الذين هدى الله، وكيف انتصرت عقائدهم، وسمت مبادئهم ورحلت أرواحهم، واحترقت أجسادهم دون عقيدتهم، ولم يحفلوا بالنصر الجسدي، ففي مشهد باهر يستحوذ على القلب بجماله وبهائه، صور العلي القدير في قصة أصحاب الأخدود كيف انتصرت العقيدة، وسمت في سماء المجد الخالد، وكيف ارتقت تلك الأرواح الطاهرة، وعلت كل شيء باذلة النفس والنفيس، والغالي والرخيص، ناصرةً توحيدها وموقنة بموعود ربها، راغبة بمآلها الكريم، وقد نزلت ضيفاً كريماً على مائدة أرحم الراحمين، بعد أن جادت بمهجها رخيصةً، وألقت بأجسادها في أخاديد الجاهلية الطاغية، مؤثرةً عقيدتها على المتاع الدنيوي الرخيص، لترحل عن هذه البسيطة وقد جللها إكليل انتصار الروح على الجسد، ولتبقى وإلى يوم الدين نبراساً منيراً، وشموعاً هادية لكل مَن حمل رسالة ربانية، وتكفل بنشر مبدأ قويم سديد قال تعالى:{ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ }، لقد رحلت تلك الأرواح الطاهرة إلى بارئها،، رحلت وسمت وارتقت وعلت إلى العلياء، رحلت عن دنيا الفناء والبلاء، وفارقت دنيا البشر منتصرة بعقيدتها وقد حازت رضى فاطرها، وأنعم بها من حيازة لا تجارى.

قال الأستاذ الشهيد سيد قطب معلقاً على تلك الآيات الكريمات، وعلى تلك النهاية المحمودة لأصحاب الأخدود في كتابه الميمون معالم في الطريق: إن القيمة الكبرى في ميزان الله هي قيمة العقيدة، وإن السلعة الرائجة في سوق الله هي سلعة الإيمان، وإن النصر في أرفع صوره هو انتصار الروح على المادة، وانتصار العقيدة على الألم، وانتصار الإيمان على الفتنة، وفي هذا الحادث انتصرت أرواح المؤمنين على الخوف والألم، وانتصرت على جواذب الأرض والحياة، وانتصرت على الفتنة انتصاراً يشرف الجنس البشري كله في جميع الأعصار، وهذا هو الانتصار، إن الناس جميعاً

يموتون، وتختلف الأسباب، ولكن الناس جميعاً لا ينتصرون هذا الانتصار، ولا يرتفعون هذا الارتفاع، ولا يتحررون هذا التحرر، ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق.. إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده لتشارك الناس في الموت، وتنفرد دون الناس في المجد، المجد في الملأ الأعلى، وفي دنيا الناس أيضاً، إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال! لقد كان في استطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم.؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر.؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد.؟ إنه معنى كريم جداً، ومعنى كبير جداً، هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض، ربحوه وهم يجدون مس النار، فتحرق أجسادهم الفانية، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار.اهـ

وحتى تتضح الصورة في أذهان أتباع الحق، ويدرك كل موحد وصاحب دعوة، أن الانتصار الحقيقي هو انتصار العقيدة وعلو المبادئ والقيم، نأخذ مثالاً شاخصاً حياً من زماننا الحاضر القريب، زمن جاهلية القرن العشرين.. فهذا معلم الأجيال سيد قطب وما أدراك ما سيد..؟! فيوم أن تهاوت الهامات راكعة على أعتاب ورثة الخنا والفجور، تستجدي لقيمات حقيرة، تبيع دينها بدنيا غيرها ثمناً لها.. شمخ سيد وعلا بمبادئه، وسما بروحه واستعلى بعقيدته ودينه، وركل الدنيا وجاهها، وهجر زخرفها وزينتها، بعد أن أقبلت عليه تستجديه صاغرة حقيرة، وأبى إلا أن يبلغ رسالة ربه، ويؤدي أمانة الأنبياء والرسل، ضارباً بعرض الحائط الوعد والوعيد، محتسباً سياط الجلادين، مستهيناً بحبل المشنقة الذي يلوح أمام ناظريه صباح مساء، رحل سيد وإصبعه التي طالما سطرت تلك الكلمات الخالدة، لا تقر له بقرار ولا تدين له بولاء.

رحل سيد بجسده وتوارى تحت الثرى، وبقيت كلماته الحية التي عرّى بها الجاهلية وسدنتها، وكشفت زيف أدعياء ولاة الأمر، ورسمت معالم ردتهم وكفرهم للعالمين، قناديل معلقة يستهدي بها أبناء التوحيد وأتباع الرسل، وقد كاد ليل الجاهلية يطبق بأستاره على حاضر البشرية المؤلم.

مضى سيد لتنتصر عقيدته ولتعلو مبادؤه، ولتبقى كلماته شاخصة حية متمكنة منتصرة، ولتغدو سيرته اللاحبة عنواناً ساطعاً، ومنارةً سامقةً، وبرهاناً دامغاً بنصر أتباع الرسل وورثتهم، والتمكين لهم في قلوب العالمين، حتى لو غابت أجسادهم وتوارت هيئاتهم، ولم تقر أعينهم بالنصر

والتمكين: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}.

التذكرة السابعة والثلاثون في: أهمية مشاركة الشعوب المسلمة في الجهاد.

إن المتأمل فيما مضى من تجارب جهادية مباركة، يدرك أن السبب المباشر لعدم تمكن تلك الحركات الجهادية من تحقيق هدفها بإقامة حكم الله، وتطبيق شرعه الحنيف، والغلبة على العدو، هو إهمالها لعنصر مهم من عناصر الظفر والغلبة وهو عنصر مشاركة أبناء الشعب المسلم في تكاليف الجهاد، واعتمادها المباشر على عناصر معينة، قد تربت على عين قادتها، ونهلت من معين الخير الصافي العذب، ونالت قسطاً وافراً من التربية والتعليم وهذا لا شك أمرٌ لا غنى عنه، فهذه اللبنة الأولى هي التي سوف تتحمل أعباء المسيرة الجهادية المباركة، وهي التي سوف تنوء بعبء الدعوة والتوجيه والإرشاد، ولكن الاعتماد عليها وحدها في مواجهة آلة الكفر الباطشة، وإهمال دور أبناء الإسلام العامل الأساسي في حسم المعركة، هو الذي يجب أن يُتفطن له ويُعلم، فالخاصة من أبناء الحركة الجهادية سرعان ما يذهبون في بداية العمل الجهادي، فإن لم يكن لهذه الحركة رصيدٌ كبير من المجاهدين، لا شك سوف يتوقف جهادها، وتذوي حيويتها، إن كل مجاهد يجب أن يدرك أن العنصر الأساسي للمعركة، والوقود الذي يُسير عجلة الجهاد هم أبناء الشعب المسلم، وليس الخاصة ممن فتح الله عليهم والتحقوا بصفوف الحركة الجهادية ونالوا ما نالوا من التربية والعلم، وفي هذا الصدد يقول الشيخ عبد الله عزام رحمه الله: والحركة الإسلامية تمثل الصاعق (البادئ) الذي يفجر أطنان المتفجرات، فالشعب هو المتفجرات والحركة الإسلامية هي الصاعق الذي يشعلها ويفجرها ولا تستطيع حركة إسلامية مهما كانت أن تواصل حرباً طويلة الأمد ضد دولة ولو كانت صغيرة فضلاً عن أن تقف سنوات أمام دولة كبرى، والحركة إذا عزلت عن الشعب فقد قضت على نفسها بالموت كالغصن إذا قطع من شجرته مهما كان ناضجاً كبيراً فإنه يذبل ويموت.اهـ

ويقول شيخنا المجاهد أبو مصعب السوري فك الله أسره في كتابه الموسوعة " دعوة المقاومة الإسلامية " وذلك في معرض حديثه عن قوله تعالى: فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين. هي أمر لكل فرد وتكليف شخصي بالقتال، سواء قاتل الناس أم قعدوا.. وأمر للمجاهد

عامة ولأهل العلم والدعوة وأصحاب الخطابة والقلم والكلمة أن يحرضوا المؤمنين، أي كل المسلمين، فالدرس الأول هو الاتجاه للأمة، كل الأمة، بدعوة المقاومة، وليس فقط لخاصتها من أهل الصحوة أو أهل التدين، فالجهاد فريضة على الجميع وعلينا أن نحرض الجميع ونقاتل معهم برهم وفاجرهم، قويهم وضعيفهم، ولاسيما وأن دعوة المقاومة هي دعوة دفع صائل عامة براية الإسلام العامة.اهـ

فصل: فإذا تقرر ذلك عندك يا باغي نصرة هذا الدين، وأدركت أن شجرة الجهاد لن تؤتي أُكلها المرجو من غير مشاركة عوام المسلمين، فاعلم بعد هذا الذي ذكرت أنك تحتاج لكي تواصل المسير مع القوم إلى صبر ومصابرة، فأنت مقبلٌ على أُناس قد تختلف معهم في العادات، وتفترق معهم في الطباع والسلوك، وتتباين معهم في اللسان والفهم والعلم والمعرفة، وهذا ولا شك ثقيلٌ على النفس، صعبٌ مذاقه، ولكن الأجر الذي ينتظر، والهدف الذي تقاتل لأجله، والمقصد العظيم الذي تجشأت العناء من أجل أن تراه واقعاً حياً في دنيا البشر، جديرٌ بأن يبذل له الكثير من الصبر والمصابرة، واللين والمياسرة، ويرفد له من التضحية وتكييف النفس الشيء الأكثر، ويجب أن تدرك أن الناس ما بين ظالم لنفسه ومقتصد وسابق في الخيرات، ومن يبحث عن الكمال في الناس فلن يجاهد أبد الدهر يقول الشيخ الفقيه عبد الله عزام رحمه الله: فالذين يريدون من هذا الدين أن يخوض معركة ضد الظالمين، وضد أعدائه المتربصين الذين يصوبون سهامهم من كل حدب وصوب، ويريدون شعباً ذا صفات: لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. فليبحثوا لهم عن شعب يعيش في السماء، أما في الأرض فقد أبت ذلك: وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين.

ورحم الله الإمام الجويني إذ يقول: ومن طلب زماناً صافياً من الأقذاء والأكدار، فقد حاول ما يند عن الإمكان والإقتدار.

وما أحسن ما قاله بشار بن برد:

ذا أنتَ لم تَشرَبْ مراراً على القذى... ظمئتَ وأيُّ الناسِ تصفو مشاربُهُ

التذكرة الثامنة والثلاثون في قوله تعالى: { إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ }.

اعلم أيها المتولي أمراً من أمور المسلمين، أو متقلداً شأناً من شؤون المجاهدين أن الإمارة كما قال شيخ الإسلام تحتاج إلى ركنان لا غنى عنهما: القوة والأمانة قال تعالى: { إن خير من استأجرت القوي الأمين } وقال صاحب مصر ليوسف عليه السلام: {إنك اليوم لدينا مكين أمين} وقال تعالى في صفة جبريل: { إنه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم أمين}. فهذان الركنان هما أساس الولاية، ويلحق بهما الكثير مما يجب أن يكون عليه الأمير ويتحلى به، بل يكون خلقاً له ملازماً حيث لا غنى عنهما.

فمن ذلك البسطة في العلم والجسم كما قال تعالى حاكياً عن طالوت ملك بني إسرائيل: { قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ }. قال ابن كثير في معرض حديثه عن هذه الآية: وهو مع هذا أعلم منكم، وأنبل وأشكل منكم وأشد قوةً وصبرًا في الحرب ومعرفة بها أي: أتم علماً وقامةً منكم، ومن ها هنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن، وقوة شديدة في بدنه ونفسه.

ومن ذلك أيضاً ما سبق وذكرته في مقال بعنوان " الكمائن من منظور واقعي" أسوق جلها لتتم بذلك المنفعة المرجوة من هذه التذكرة، وأخص بذلك الأمراء العسكريين، وفقهم الله لكل الخير.

أولاً: التجربة القتالية والخبرة العسكرية والمعرفة العامة بفنون قتال العدو ومكره أثناء قيامه بالعمل العسكري. والحكمة من ذلك هو كما قال ابن الأزرق المالكي رحمه الله في بدائع السلك في طبائع الملك: ليحمل على صحيح الرأي وصواب التدبير، لما في التمرن بذلك خصوصاً مع طول المباشرة، من الخبرة بمواقع الأمور، ومقابلة الحوادث.اهـ

ثانياً: إن مما يجب أن يتحلى به الأمير بعد الدربة العسكرية، هي سعة الصدر والسلاسة والليونة وحسن التعاطي مع الآخر، والقدرة على امتصاص الغضب، والتوفيق بين الأفراد، ووضع كل فرد في مكانه المناسب. قال أبو بكر الطرطوشي المالكي رحمه الله في سراج الملوك: الباب العاشر: في معرفة خصال ورد الشرع بها فيها نظام الملك والدول، وهي ثلاثة: اللين وترك الفظاظة والمشاورة.. ثم قال رحمه الله: اعلم أن هذه الخصال من أساس الممالك وقلَّ من يعمل بها من الملوك، اثنتان نزلتا من السماء وواحدة قالها الرسول صلى الله عليه وسلم، أما الإلهية فقال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ

لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}، وفي الآية إشارتان: إحداهما أن الفظاظة تنفر الأصحاب والجلساء وتفرق الجموع والحشم، وإنما الملك ملك بجلسائه وأصحابه وأتباعه وحشمه، وأخلق بخصلة تنفر الأولياء وتطمع الأعداء، فَقِمِنٌ – أي جديرٌ- بكل سلطان رفضها والاحتراز من سوء مغبتها، ولتكن كما قال الله: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}.اهـ

ثالثاً: يجب أن يتميز الأمير بالشجاعة المصاحبة للحكمة، فلا شجاعة زائدة مع تهور، فَيَهلك ويُهلك من معه، ولا جبن وخور يعطل فريضة الجهاد.

قال الفاروق رضي الله عنه موصياً أبا عبيد الثقفي قبيل بعثه للعراق: اسمع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأشركهم في الأمر ولا تجتهد مسرعاً بل اتئد فإنها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف، ولم يمنعني أن أؤمر سليطاً إلا لسرعته إلى الحرب وفي السرعة إلى الحرب إلا عن بيان ضياع، والله لولا سرعته لأمَّرته.

وقال صاحب بدائع السلك في طبائع الملك ابن الأزرق المالكي رحمه الله: قالوا: القائد الحازم كالتاجر الحاذق، إن رأى ربحاً تجر، وإلا تحفظ برأس ماله، ولا يطلب لغنيمة حتى يحرز السلامة.
وقالوا: رئيس العسكر إن لم يكن شجاعاً مدبراً، كان على من معه آفة، ولمن ليس معه عوناً.اهـ

رابعاً: إن الأمير ليس بالغبي ولكن بالذي يغض الطرف ويتغابى... وهذا عين ما قالت العرب:

ليس الغبي بسيد في قومه   لكن سيد قومه المتغابي

فلا يقف على كل صغيرةٍ وكبيرةٍ فَيُنفّر بذلك الجند، ولا يكون متساهلاً هيناً ليناً في الأمور التي تحتاج إلى حزم وحسم واتخاذ قرار، وبمعنى آخر أن يضع الشدة في موضعها واللين في موضعه.

قال أبو حامد الغزالي رحمه الله: قال سفيان لأصحابه: تدرون ما الرفق.؟ قالوا: قل يا أبا محمد قال: أن تضع الأمور من مواضعها الشدة في موضعها، واللين في موضعه، والسيف في موضعه، والسوط في موضعه.

خامساً: على الأمير أن يراعي أفهام أصحابه، وقدراتهم الذهنية والعقلية، فلا يُحمِّلهم ما لا يطيقون، ولا يطلب منهم ما لا يستطيعون، وقد عزل عمر رضي الله عنه زياد بن أبي سفيان عن العراق، فقال له: لم عزلتني يا أمير المؤمنين.؟ ألعجز أم لخيانة.؟، فقال عمر: لم أعزلك لواحدة منهما، ولكن كرهت أن أحمل الناس فضل عقلك.

سادساً: يجب على الأمير أن يراعي جميع أفراده، وخاصةً أن جهادنا يضم بين ثناياه أُناساً من أقوام متعددة ومتباينة العادات والتقاليد، فيراعي هذا الاختلاف والتباين عند تقسيم المأموريات وتوزيع الأعمال.

قال أبو بكر الطرطوشي رحمه الله في سراج الملوك: قالت الحكماء: أسرع الخصال في هدم السلطان وأعظمها في إفساده وتفريق الجمع عنه إظهار المحاباة لقوم دون قوم، والميل إلى قبيلة دون قبيلة، فمتى أعلن بحب قبيلة فقد برئ من قبائل. وقديماً قيل: المحاباة مفسدة.اهـ

فتنبه لذلك يحالفك التوفيق، واعمل بما علمت ييسر لك أمرك بعون الله، ولا تستبد برأي فينقم عليك فلا تنتهض، وعليك بكثرة المشاورة فهو الركن الأعظم في التدبير، والله ولي التوفيق.

التذكرة التاسعة والثلاثون في: الغاية الأسمى من الجهاد.

لا يشك شاك ولا يجادل مجادل أن منزلة الشهادة في سبيل منزلة عظيمة، ودرجتها درجة عالية رفيعة، ومقام صاحبها لا يعلوه مقام بعد مقام الأنبياء والصديقين، بل هي أمنية سيد البشر صلى الله عليه وسلم كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح، ومع هذا الذي ذكرنا إلا أن هناك هدفاً أسمى، ومطلباً أعلى من الشهادة، وغايةً جليلةً لا يعدلها غاية قد شرع من أجلها الجهاد في سبيل الله، ألا وهي إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، والتمكين لدين الله في الأرض، وإقامة حكمه، وتنفيذ شرعته وعلى هذا الذي ذكرنا قاتلت الصفوة الأولى والطليعة المباركة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والمتأمل في كتاب الله يجد مصداق ذلك واضحاً جلياً بين ثنايا كلماته المباركة قال تعالى:{ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ

فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}، قال البيضاوي رحمه الله في تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل: إنما قال { فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ } تنبيهاً على أن المجاهد ينبغي أن يثبت في المعركة حتى يعز نفسه بالشهادة أو الدين بالظفر والغلبة، وأن لا يكون قصده بالذات إلى القتل، بل إلى إعلاء الحق وإعزاز الدين. اهـ

وقال شيخنا أبو الوليد الأنصاري حفظه الله في مقال له تحت عنوان " جهاد من المهد إلى اللحد ":{وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً}، فتأمل كيف قابل بين القتل والغلبة، فأشعر ذلك بأن القتل – وإن كان شهادة يحبها الله – إلا أنها في الظاهر هزيمة أمام الكفار، لأن الذي يقابل الغلبة الهزيمة، وإنما ذكر القتل لشرفه، ولأجل هذا قال بعض سلفنا: " لأن أقتل ورياح المسلمين مقبلة وعدوّ الدين مخذول، أحب إليَّ من أن أقتل ورياح المسلمين مدبرة مولية وعدوُّ الدين ظاهر ولأهل الإسلام قاهر"، أو كلاماً نحو هذا، وهذا لعمر الله من الفقه في الدين، فكيف إذا كان العدو نازلاً في عقر دار المسلمين كما هو حالنا اليوم.؟!.اهـ

فعلى المجاهد في سبيل الله أن يدرك هذا الذي ذكرنا، ويضع نصب عينيه أن الأمة بحاجة إلى من يأخذ بيدها في هذه الدياجير المظلمة، ويرشدها إلى الطريق السوي المرضي عنه، ويعلم أن أمامه هدف سامياً يحتاج إلى رجال ورجال لتحقيقه واقعاً حياً معاشاً، ولا يغيبنَّ عن بالك أيها النافر إلى الله أن من منافع الإسلام استبقاءَ رجاله لدفاع العدو، كما قال ابن عاشور المالكي رحمه الله في التحرير والتنوير، والرجال في هذا الزمان عملة نادرة قلما توجد، والجهاد بحاجة إلى الرجال أكثر من حاجته إلى المال وخاصة في هذا الزمان وفي هذا الصدد يقول الشيخ الفقيه عبد الله عزام رحمه الله: إن أزمة العالم الإسلامي هي أزمة رجال يضطلعون بحمل المسؤولية والقيام بأعباء الأمانة، وكما جاء في الصحيح: الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلته " أي أن الكامل في الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة لقلة الراحلة في الإبل والراحلة هي البعير القوي على الأسفار والأحمال، النحيب التام الخلق الحسن المنظر، ويقع على الذكر والأنثى والهاء فيه للمبالغة". أي لا تجد في كل (مائة جمل) واحداً يحتملك في أسفارك، وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لصفوة من صحبه تمنوا، فتمنى كل واحد منهم شيئاً ثم قالوا: تمن يا أمير المؤمنين، فقال: أتمنى أن يكون لي ملء هذا البيت مثل أبي عبيدة. إن الرجال الذين يعلمون قليلون والذين يعملون أقل، وإن الذين يجاهدون أندر وأغرب، وإن الذين يصبرون على هذا الطريق لا يكادون يذكرون.اهـ

ونحن إذ كنا نسعى لإقامة خلافة الله في الأرض فليس ذلك لأنفسنا كما قال شيخنا أبو المنذر سالم الطرابلسي المالكي تقبله الله: إن الجهاد حركة للملك، وليس هدفنا إقامة الملك لأنفسنا إنما هو لإقامة حكم الله في الأرض.اهـ فلينتبه لهذا الكيس الفطن.

فصل: واعلم أن طلب الشهادة والحرص عليها أمرٌ قد رغب فيه الشارع أيما ترغيب، وحث عليه في مواطن عديدة، ولكن في مقابل ذلك نرى الشارع الكريم يأمرنا بقتل الكفار والإثخان فيهم بل قتل الكفار والنيل منهم قدمه الله عز وجل على الشهادة في سبيل الله كما قال شيخنا أبو الوليد الأنصاري، وذلك في قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ}، وقال عليه الصلاة والسلام حاثاً أتباعه على الإثخان في العدو: من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه. فعلى المجاهد في سبيل الله أن يبذل جهده للنيل من العدو، وليعلم أن إقامة خلافة الله في الأرض مطلب شرعي قد أجمعت عليه الأمة كما قال الماوردي رحمه الله: الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع.

وقال الإمام ابن حجر الهيتمي رحمه الله في الصواعق المحرقة: اعلم أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعوا على أن نصب الإمام بعد انقراض زمن النبوة واجب، بل جعلوه أهم الواجبات حيث اشتغلوا به عن دفنه.

وأيمُ الله إن إعادة حكم الله إلى واقع الحياة لهو مقصد جد عظيم، وهدف سام لا يوفق إليه إلا من أحبه الله واصطفاه ليكون من تلك الصفوة المختارة التي يصدق فيها قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}، والشهادة لا شك آتيةٌ في موعدها الذي شاءه الله وهي مطلب سامٍ، ومقصد جليل، واصطفاء واختيار وأنعم به من اختيار.

التذكرة الأربعون في: معايشة الواقع.

إن مما يجب أن يعلمه كل مجاهد أن معايشة الواقع بكل جزئياته والانغماس في دواخله والتعاطي معه، ثم العمل من خلاله للوصول إلى أفضل النتائج التي يرجوها، وتحقيق ما يرنو إليه، هو

الطريق الأمثل الذي يجب أن يسلكه، ويؤمن بجدوى نفعه، فمن المعلوم لكل ذي بصيرة أن ميدان الجهاد ليس ميداناً مرسوماً بريشة رسام مبدع قلما تخطأ ريشته، بل هو ميدانٌ واسع رحب يتسع للكثيرين، وهناك بون شاسع بين الشيء الموجود في واقع الحال، وبين الشيء المنشود الذي ترجوه، فالذي يمني نفسه ويرسم له في عالم الخيال والفكر، نموذجاً معيناً وحالةً فريدةً لا مجال فيها للخطأ، يجب أن يدرك أنه قد جانب الصواب، ولم يحالفه الحظ في الوصول إلى مبتغاه، يجب أن يدرك كل ناصح لنفسه أن عالم النظريات ودنيا الأحلام، غير عالم الواقع وغير عالم اليقظة، إن سحب المثالية غالباً ما تنتج سراباً يحسبه الظمآن ماءً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

إن الذي يسعى إلى التغيير لا بد أن يترك برجه العاجي، ويتخلى عن أحلامه، ويشمر عن ساعد الجد، وينزل إلى أرض الواقع، ويكابد مشاق الطريق، وغصص الرحلة حتى يحقق بعضاً مما علق بذاكرته.

إن بنات الأفكار ستبقى منحوتة في صخر الذاكرة إلى أن ينزل بها صاحبها ثم يكد ويجتهد ويواصل الليل بالنهار حتى يراها ماثلةً حية في دنيا الواقع وعالم الناس، وبغير ذلك ستبقى حبراً على ورق، ونقشاً بديعاً جميلاً يصول ويجول في عالم الخيالات دون أن يرى نور التحقق في يوم من الأيام.

يقول الشيخ الفقيه عبد الله عزام رحمه الله: فالطائفة التي تنفر هي التي تدرك أبعاد هذا الدين وتفهم أسراره وتسبر أغواره، والحق أن الجهاد ينضج النفس البشرية على حرارة الابتلاء ويرفع درجاتها في ضرام المعركة واللأواء.

والذين يعيشون بين صفحات الكتب ورفوف المكتبات سيبقون يعيشون في أبراج عاجية معلقين في السماء يستنبتون البذور في الهواء.

والذين يتعاملون مع هذا الدين من خلال آراء يقرؤونها ومدارس يتبعونها – أقولها بصراحة– إنهم سيبقون يتعاملون مع نظريات تعيش في مخيلتهم ليس لها تطبيق في عالم الواقع كما يتخيلون وذلك لأن أرجلهم لا تدب على الأرض، سيبقون في مثالية سامية بعيدة عن واقع الأرض، يستعذبونها أماني وأحلاماً ولكنهم لا يعلمون كيف ينقلونها إلى واقع الأرض أحداثاً جساماً، وذلك لأنهم لم يتكبدوا في سبيل إقرارها غصصاً ولم يتجرعوا آلاماً وهذا أمر ملموس قطعي حتى في الأمور الحسية الحياتية فالطبيب الجراح بقدر ما يجري عمليات جراحية فإنه يصبح ماهراً بمهنته محترماً بين

أبناء حرفته، وموثوقاً لدى العام والخاص، وكذلك المهندس والمزارع وحتى الحذَّاء والنجار والحداد فكيف بدين الله الذي قامت عليه السموات والأرض.؟.اهـ

ولا بد لكل مجاهد أن يدرك أنه يتعامل مع بشر يخطؤون ويصيبون، يحالفهم الصواب تارةً، وأخرى يجانبهم، وليس هذا بعيب بل هي طباع البشر التي جبلهم الله عليها، فقد كانت الصفوة الأولى التي ربها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم كذلك، ولولا ذلك لما كان هناك في دين الله أحكام ولا عقوبات، فالذي يعمل في الميدان لا شك أنه سيخطئ، ويكبو فرسه، والجالس القاعد الذي لا يتحرك لهذا الدين هو الذي في معزل عن ذلك، وبون شاسع لا شك بين المتحرك العامل لهذا الدين، والقاعد الجالس ينظر ويسوغ النظريات التي لا تزيده مع الأيام سوى بعداً عن هذا الدين.

إن عَظمة النفوس، وحقيقة الرجال، وأفكار الأبطال، لا تتجلى حقيقتها إلا في ميدان العمل، والإبداع الحقيقي لا يظهر إلا في ساحات الواقع، فحريٌ بكل مجاهد أن يفطن لذلك ولا ينتبذ بنفسه مكاناً قصيا، فالمؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم والله الموفق.

التذكرة الحادية والأربعون في: ائتلاف الأمة أعظم من المستحبات

اعلم علمني الله وإياك وكما قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى أن مدار الشريعة على أن الواجب تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فإذا تعارضت كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، ودفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما هو المشروع. ولا يشك عاقل أن ائتلاف المسلمين عامة، والقائمين على أمر الله هجرةً وجهاداً خاصة، هو من أوجب الواجبات التي يجب أن يسعى كل من حمل همَّ هذا الدين إلى تحصيله، فبتلك الألفة يستمر العطاء، ويسير الركب، وتبحر سفينة الجهاد إلى حيث أراد الله لها أن ترسو، رغم كيد الخائنين، ومكر الكافرين الذي تكفل الله برده.

وإن المتمعن في الهدي النبوي الكريم ليلمح تلك الإشارات النبوية التي تأمر بالألفة وتحث عليها فقد ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري أنه صلى الله عليه وسلم قال: يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا.

قال النووي رحمه الله: وفي هذا الحديث: الأمر بالتبشير بفضل الله وعظيم ثوابه وجزيل عطائه وسعة رحمته، والنهي عن التنفير بذكر التخويف وأنواع الوعيد، محضة من غير ضمها إلى التبشير. وفيه: تأليف من قرب إسلامه وترك التشديد عليهم، وكذلك من قارب البلوغ من الصبيان، ومن بلغ ومن تاب من المعاصي كلهم يتلطف بهم ويدرجون في أنواع الطاعة قليلاً قليلا، وقد كانت أمور الإسلام في التكليف على التدريج فمتى يسر على الداخل في الطاعة أو المريد للدخول فيها سهلت عليه، وكانت عاقبته غالباً التزايد منها، ومتى عسرت عليه أوشك أن لا يدخل فيها، وإن دخل أوشك أن لا يدوم أو لا يستحليها. وفيه: أمر الولاة بالرفق واتفاق المتشاركين في ولاية ونحوها، وهذا من المهمات فإن غالب المصالح لا يتم إلا بالاتفاق، ومتى حصل الاختلاف فات.

وقال العيني رحمه الله: قال ابن بطال: فيه أنه قد يترك يسير من الأمر بالمعروف إذا خشي منه أن يكون سببا لفتنة قوم ينكرونه.

الثاني: فيه أن النفوس تحب أن تساس كلها لما تأنس إليه في دين الله من غير الفرائض.

الثالث: قال النووي: فيه أنه إذا تعارضت مصلحة ومفسدة وتعذر الجمع بين فعل المصلحة وترك المفسدة بدأ بالأهم، لأن النبي أخبر أن رد الكعبة إلى قواعد إبراهيم عليه السلام مصلحة، ولكن يعارضه مفسدة أعظم منه وهي خوف فتنة بعض من أسلم قريباً لما كانوا يرون تغييرها عظيماً فتركها النبي صلى الله عليه وسلم.

الرابع: فيه فكر ولي الأمر في مصالح رعيته واجتناب ما يخاف منه تولد ضررٍ عليهم في دين أو دنيا إلا الأمور الشرعية كأخذ الزكاة وإقامة الحد.

الخامس: فيه تأليف قلوبهم وحسن حياطتهم، وأن لا ينفروا ولا يتعرض لما يخاف تنفيرهم بسببه ما لم يكن فيه ترك أمر شرعي.

وقد كان النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يتألف أصحابه ما وجد إلى ذلك سبيلا، ففي فتح مكة قال من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن، وذلك تأليفاً لقلبه، وإظهاراً لشرفه كما قال أهل العلم، وبعد أن دانت له مكة قال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها: لولا قومك حديث عهدهم بكفر لنقضت الكعبة وجعلت لها بابين: باب يدخل الناس، وباب يخرجون. وذلك مخافة أن ينفروا، ومن باب حرصه صلى الله عليه وسلم على تأليف قلوبهم وتحبيبهم لهذا الدين.

فصل: وعلى طول هذا الطريق قد يَعرض للنافر في سبيل الله في كثير من الأحيان – وهو متحقق بالتجربة والمشاهدة– أن يدفع صائل الكفار مع قوم يتبعون غير مذهبه ويلتزمون غير الذي يلتزم من فروع هذا الدين الاجتهادية، فالأولى في حقه وخاصة إذا علم منهم الجهل في غير مذهبهم، أو شعر منهم النفرة، أن يترك ما علم من الهيئات والسنن، التي يخالف فيها القوم، رغبةً في تأليف قلوبهم، وحرصاً على مخاطبتهم بما يعقلون، وطمعاً في المحافظة على فريضة الجهاد، ودفع الصائل الذي يفسد الدين والدنيا.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في الفتاوى وذلك في معرض حديثه عن ترك بعض هيئات الصلاة تأليفاً للقلوب: ويستحب للرجل أن يقصد إلى تأليف القلوب بترك هذه المستحبات لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم من مصلحة فعل مثل هذا كما ترك النبي صلى الله عليه و سلم تغيير بناء البيت لما في إبقائه من تأليف القلوب، وكما أنكر ابن مسعود على عثمان إتمام الصلاة في السفر ثم صلى خلفه متماً وقال الخلاف شر.

بل ذهب رحمه الله إلى أن متابعة الإمام في الصلاة أولى وأقوى من الإتيان بالمستحب الذي يراه المأموم قال رحمه الله في معرض حديثه عن جلوس المأموم بين الركعات جلسة الاستراحة والإمام لا يفعل ذلك: ومثل هذه المسائل هي من مسائل الاجتهاد، والأقوى أن متابعة الإمام أولى من التخلف لفعل مستحب.

ومن المعلوم في دين الله أن السنة تترك من أجل الإتيان بالواجب، والجهاد فريضة عينية على كل مسلم فإذا أدى القيام بالسنن إلى تأخير هذا الواجب أو تعطيله تترك السنة من أجله.

وأختم هذه التذكرة بما وصى به الشيخ الفقيه عبد الله عزام رحمه الله تلاميذه المرابطين حول ثغور كابل قبل ما يزيد من عشرين عاماً قال رحمه الله: لستم بحاجة إلى توصية لإظهار الاحترام

العميق للمذهب الحنفي الذي يتبعه الأفغان، فهذه وصيتنا لكم منذ الخطوات الأولى في الطريق، وهذا جزء من ديننا، وأنا أعلم أنكم من أتباع المذهب المالكي، لكن لابد في هذه المرحلة وأنتم تعيشون بين الأفغان أن تصلوا حسب المذهب الحنفي، وهذه فتاوى شيخ الإسلام والإمام أحمد ومالك والشيخ الألباني بوجوب – لعله رحمه الله قصد استحباب ذلك، مع أن الألباني رحمه الله يوجب ذلك وقد ذكر ذلك رحمه الله في موطن آخر– ترك هيئات الصلاة المخالفة للمذهب الحنفي إذا كان الإمام حنفياً.

التذكرة الثانية والأربعون في قوله تعالى: {ولا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلا إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}.

لقد خصَّ العلي القدير المجاهد في سبيله بكرامات لم يجعلها لأحد سواه، وحباه منازل لا يرتقيها إلا من سار على خطاه، تفضلاً منه ومنة عليه لما يبذله من جهد وجهاد، وبذل وعطاء، وتضحية وبلاء، ومن ذلك ما قصه سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {ولا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلا إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}. قال ابن كثير رحمه الله: أي: ينزلون منزلاً يُرهبُ عدوهم { وَلا يَنَالُونَ } منه ظفراً وغلبةً عليه إلا كتب الله لهم بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرتهم، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم، أعمالاً صالحةً وثواباً جزيلاً { إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }.

فأي منزلٍ ينزله المجاهد في سبيل الله يراغم به العدو، ويدخل الحزن فيه والغيظ على قلبه فهو منزلٌ يحبه الله، ويجازي عليه الجزاء الأوفى إن خلصت النية وصدقت الطوية، وليس ذلك فحسب بل إن نومه ونبهه ومزحه وضحكه وحركته وسكونه كله له أجر وليس ذلك لأحدٍ سواه كما جاء في حديث الغزو غزوان الآتي، وأكثر من ذلك أن الصائم القائم الدائم الذي لا يفتر من صلاة ولا صيام لا يوازيه أجراً ولا يجاريه سعياً كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم والبخاري في معناه. عن أبي هريرة قال قيل للنبي صلى الله عليه وسلم–ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل قال: لا تستطيعونه. قال: فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا كل ذلك يقول: لا تستطيعونه. وقال في الثالثة: مثل

المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى.

قال ابن عبد البر رحمه الله في التمهيد: هذا من أفضل حديث وأجله في فضل الجهاد لأنه مثَّله بالصلاة والصيام وهما أفضل الأعمال، وجعل المجاهد بمنزلة من لا يفتر عن ذلك ساعة، فأي شيء أفضل من الجهاد يكون صاحبه راكباً وماشياً وراقداً ومتلذذاً بكثير من حديث رفيقه وأكله وشربه وغير ذلك مما أبيح له وهو في ذلك كله كالمصلي التالي للقرآن في صلاته، الصائم مع ذلك المجتهد إن هذا لغاية في الفضل وفقنا الله برحمته.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الغزو غزوان فأما من ابتغى وجه الله وأطاع الإمام، وأنفق الكريمة، وياسر الشريك، واجتنب الفساد فإن نومه ونبهه أجر كله، وأما من غزا فخراً ورياءً وسمعةً، وعصى الإمام وأفسد في الأرض فإنه لن يرجع بكفاف. رواه أبو داود، والنسائي والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم.

قال القرطبي رحمه الله في المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: كل ما يصدر من المجاهد في حالتي: نومه ويقظته، وسكونه وحركته، هو عمل صالح يكتب له ثوابه دائما، بدوام أفعاله، إذ لا يتأتَّى لغيره فيه، لأنه على كل حال في الجهاد، وملابس أحواله، وذلك: أن المجاهد إما أن ينال من العدو، أو يغيظه، أو يروِّعه، أو يكثر سواد المسلمين، أو يصيبه نصب، أو مخمصة، وكل ذلك أعمال كثيرة لها أجور عظيمة.اهـ

فأي فضل بعد هذا، وأي كرامة بعد هذه الكرامة، فوالله لو علم الملوك ما نحن فيه من نعمة لجالدونا عليها بالسيف والسنان، ولكنه محض فضل الله يختص به من يشاء من عباده نسأله سبحانه وتعالى مزيد فضله وجزيل عطائه وحسن شكره.

فصل: ولا شك أنه يعرض للمجاهد في سبيل الله في هذا الطريق الطويل الموصل الى رضوانه أن يلتزم البيوت مرابطاً لفترات طويلةٍ منتظراً إما الدورات التدريبية، أو اللحاق بكتائب القتل والقتال في ميادين النزال، ولا ريب أن هذا شديدٌ على النفس، مريرٌ تجرعه، ولكنه في المقابل موطن يغيظ الكفار، ومنزل يتضاعف فيه الأجر والثواب، وثبات المجاهد في هذه الحال هو حياة للأمة، وبصيص أمل في إحياء روح الجهاد ومعاني الاستشهاد في روع أبنائها، ويكفي أن يعلم أعداء الله أن

هناك من يتربص بهم الدوائر، ويتحين الفرصة للإغارة عليهم، وهذا من فضل الله، بل هو كما قال ابن القيم في المدارج: ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه وإغاظته له وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه أحدها قوله ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة. سمى المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغماً يراغم به عدو الله وعدوه والله يحب من وليه مراغمة عدوه وإغاظته كما قال تعالى: ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين.. ثم قال رحمه الله: فمن تعبد الله بمراغمة عدوه فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر وعلى قدر محبة العبد لربه وموالاته ومعاداته لعدوه يكون نصيبه من هذه المراغمة ولأجل هذه المراغمة حمد التبختر بين الصفين.

فأبشر أيها الراجي عفو ربك بالخير العظيم، واصبر في موطنك الذي أقامك الله فيه، واشكر الله أن أحياك لهذا الوقت واصطفاك لتحيي ما اندرس من معالم هذا الدين، وتجدد فريضة الجهاد وعبادة القتال، في هذه الغربة الثانية لهذا الدين.

التذكرة الثالثة والأربعون في: اسألوا أهل الثغور.

لقد أنعم العلي القدير على عباده النافرين حراس الثغور، وحملة لواء الجهاد والدين، وخصَّهم عن غيرهم بمزايا لم تجتمع في سواهم من الناس، قال تعالى: { والذين جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ الله لَمَعَ المحسنين }، قال ابن الجوزي في زاد المسير: والذين جاهدوا فينا أي قاتلوا أعداءنا لأجلنا لنهدينهم سبلنا أي لنوفقنهم لإصابة الطريق المستقيمة، وقيل لنزيدنهم هداية وإن الله لمع المحسنين بالنصرة والعون، قال ابن عباس: يريد بالمحسنين الموحدين، وقال غيره: يريد المجاهدين وقال ابن المبارك: من اعتاصت عليه مسألة فليسأل أهل الثغور عنها لقوله لنهدينهم سبلنا.

وقال القرطبي رحمه الله: قال سفيان بن عيينة لابن المبارك: إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله تعالى يقول: " لنهدينهم " وقال الضحاك: معنى الآية، والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينهم سبل الثبات على الإيمان.

وهذا الفهم الذي حباهم الله إياه واستأثرهم به عن سواهم لم يأت من عبث، بل هو جزاء نفرتهم وانشغالهم عن لذائذ الحياة وشهواتها بدفع أعداء هذا الدين، ومصاولتهم ومناجزتهم في ميدان الحتوف ومظنة القتل، يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في الظلال: الذين جاهدوا في الله ليصلوا إليه ويتصلوا به، الذين احتملوا في الطريق إليه ما احتملوا فلم ينكصوا ولم ييأسوا، الذين صبروا على فتنة النفس وعلى فتنة الناس، الذين حملوا أعباءهم وساروا في ذلك الطريق الطويل الشاق الغريب، أولئك لن يتركهم الله وحدهم ولن يضيِّعَ إيمانهم، ولن ينسى جهادهم، إنه سينظر إليهم من عليائه فيرضيهم، وسينظر إلى جهادهم إليه فيهديهم، وسينظر إلى محاولتهم الوصول فيأخذ بأيديهم، وسينظر إلى صبرهم وإحسانهم فيجازيهم خير الجزاء.

وعلماء أهل الثغور هم مظنة العلم والفهم والإحاطة، ولا تكاد تجد مسألة من مسائل الدين أو الدنيا إلا ولهم فيها خبر على العموم والإجمال، وهذا ما يفسر قول السلف إذا اختلف الناس في مسألة فانظروا ما عليه أهل الثغور، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ولهذا كان الجهاد موجباً للهداية التي هي محيطة بأبواب العلم كما دل عليه قوله تعالى: والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا. فجعل لمن جاهد فيه هداية جميع سبله تعالى، ولهذا قال الإمامان عبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما: إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ماذا عليه أهل الثغر فإن الحق معهم، لأن الله يقول: والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا. وفي الجهاد أيضاً حقيقة الزهد في الحياة الدنيا وفي الدار الدنيا، وفيه أيضاً حقيقة الإخلاص فإن الكلام فيمن جاهد في سبيل الله لا في سبيل الرياسة، ولا في سبيل المال، ولا في سبيل الحمية، وهذا لا يكون إلا لمن قاتل ليكون الدين كله لله ولتكون كلمة الله هي العليا.

فصل: واعلم علمني الله وإياك أن كثيراً من المسائل المهمة في الدين كمسائل توحيد الحاكمية ومسائل الجهاد ونوازله لا تؤخذ من العلماء القاعدين يوم أن تجب عليهم الحركة والنفير لنصرة المستضعفين في الأرض، ولا يُسئل عن مسائل الجهاد إلا أهل الجهاد، وخاصةً علماءه العاملين المتحركين بهذا الدين الناصبين رقابهم للموت، فهم أصدق الناس لهجةً وأهداهم سبيلاً، وأقربهم الى النطق بالحق، فقد تخلصوا من الأثقال التي تشدهم الى الدنيا، وعَلو على شهوات الحياة، وزالت عنهم الفتن والقيود التي تقيدهم فلا سلطان جائر يهابونه، ولا سيف مسلط على رقابهم يرعبهم، وهكذا كل عالم صادع بالحق في وجه الطاغوت له نصيب من هذه الهداية الربانية، وإن لم ينفر لساحات

الجهاد وميادين الحتوف، وهو على ثغر عظيم نسأل الله القبول لهم ولنا، بل إن مواقف هؤلاء وكتاباتهم كانت لها أعظم الأثر على حياة الكثيرين من أبناء الحركة الجهادية العالمية جزاهم الله عنا وعن الإسلام كل خير.

قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله في ظلاله القيم: إن هذا الدين منهج حركي، لا يفقهه إلا من يتحرك به، فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه، بما يتكشف لهم من أسراره ومعانيه، وبما يتجلى لهم من آياته وتطبيقاته العملية في أثناء الحركة به.

أما الذين يقعدون فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممن تحركوا، لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا، ولا فقهوا فقههم، ولا وصلوا من أسرار هذا الدين إلى ما وصل إليه المتحركون وبخاصة إذا كان الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والخروج بصفة عامة أدنى إلى الفهم والتفقه.

إن الذي غلبت عليه شهوته، وقيدته مصالح الدنيا، وأثقلته أحمالها الى الأرض، وآوى الى السلطان، وتفيء ظله النكد لا يمكن بحال من الأحوال –إلا أن يشاء الله– أن يفتي بخلاف رغبة السلطان، لأنه ليس على استعداد أن يخسر مكاسب الدنيا الدنية، بل هو حريص على مرضاة أهواء السلطان ليزداد قرباً ويدنو منزلة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال ابن القيم رحمه الله: وكل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها، فلا بد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه وخبره وإلزامه لأن أحكام الربّ سبحانه كثيراً ما تأتي على خلاف أغراض الناس ولاسيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشبهات، فإنهم لا تتم لهم أغراض إلا بمخالفة الحق ودفعه.

ويقول الإمام الخطابي رحمه الله واصفاً حال من يدخل على السلاطين: ليت شعري من الذي يدخل إليهم اليوم فلا يصدقهم على كذبهم، ومن الذي يتكلم بالعدل إذا شهد مجالسهم، ومن الذي ينصح ومن الذي ينتصح منهم. وهذا لعمر الله في زمانك فكيف بك لو رأيت هذا الزمان، ماذا كنت سوف تقول.؟!

ونوصيك في نهاية هذه التذكرة بما وصى به الشيخ أيمن الظواهري إخوانه قبل ما يقرب من اثنتي عشرة سنة قال حفظه الله في كتابه القيم " شفاء صدور المؤمنين": كما ندعو إخواننا المجاهدين

ألا يستمعوا في المسائل المهمة إلا لأهل العلم المجاهدين، دون أهل العلم الذين لا خبرة لهم بالجهاد، ولا العلماء القاعدين، ولا لأصحاب المناصب الذين يقبضون راتبهم من الطواغيت المرتدين، ليصدوا المسلمين عن الجهاد،كما قال العالم المجاهد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: والواجب أن يعتبر في أمور الجهاد برأي أهل الدين الصحيح، الذين لهم خبرة بما عليه أهل الدنيا، دون أهل الدنيا الذين يغلب عليهم النظر في ظاهر الدين، فلا يؤخذ برأيهم، ولا برأي أهل الدين الذين لا خبرة لهم في الدنيا.

التذكرة الرابعة والأربعون في: الإنفاق في سبيل الله.

إن من الأمور البينة التي لا يتطرق إليها شك، أن الإنفاق في سبيل الله، وبذل المال للجهاد أمرٌ عظيم قد حرض عليه الشارع الحكيم، وأمر به في مواطن كثيرة من كتاب الله، حيث أن المال هو عصب الجهاد، وسبب يقيني لديمومته وبقائه واستمرار عجلته، بل إن الشارع الكريم قدمه على بذل النفس في كل المواطن إلا في موطن واحد من كتاب الله، وما ذلك إلا لأهميته القصوى في الجهاد، وقد عذر الله القاعدين عن الجهاد من أصحاب الأعذار، أما أصحاب المال فلا عذر لهم عند الله في بذل المال للجهاد فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: جاهدوا المشركين بأموالكم وأيديكم وألسنتكم.

قال الإمام الصنعاني رحمه الله في سبل السلام: الحديث دليل على وجوب الجهاد بالنفس وهو بالخروج والمباشرة للكفار، والمال وهو بذله لما يقوم به من النفقة في الجهاد والسلاح ونحوه، وهذا هو المفاد من عدة آيات في القرآن { جاهدوا بأموالكم وأنفسكم }.

والإمساك عن النفقة في سبيل الله، وبذل المال الذي أعطى الله يعني التهلكة كما قال تعالى:{وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }.

قال ابن كثير رحمه الله: ومضمون الآية: الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء وبذلها فيما يقوى به المسلمون على

عدوهم، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار إن لزمه واعتاده. ثم عطف بالأمر بالإحسان، وهو أعلى مقامات الطاعة، فقال: { وأحسنوا إن الله يحب المحسنين }.

فالواجب على المسلم المستطيع أن لا يبخل على الجهاد والمجاهدين، ويعطي مما أعطاه الله، فهذا والله خير الدنيا والآخرة، فإذا كان قد ضن بنفسه فلا يضنن بما أعطاه الله، وحاجة الجهاد اليوم الى المال جل عظيمة، بل ربما تكون أعظم من الحاجة الى الرجال، وميادين الجهاد كثيرة ولله الحمد والمنة فليسارع الى الإنفاق قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

فصل: أما المجاهد ذو السعة وقد أكرمه الله بالهجرة والجهاد فلا يفوتنه هذا الخير العظيم، وخاصة في مواطن الجهاد التي يتضاعف فيها الأجر والثواب، فليبذل في سبيل الله مما أعطاه الله، ولا ينتظرن أحداً في بذل ما عنده نصرةً لهذا الدين فالسعيد من كانت له يدٌ كريمة في هذا الجهاد المبارك، والمفلح من أنفق قبل الفتح وقاتل، وليحرص كل ذي سعة أن يكون له صدقة جارية في سبيل الله، يعود أجرها عليه حتى بعد مواراته الثرى، وقد بوب البخاري في صحيحه فقال: باب من احتبس فرساً في سبيل الله: ثم ساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده، فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة.

قال صاحب الفتح رحمه الله: قال المهلب وغيره: في هذا الحديث جواز وقف الخيل للمدافعة عن المسلمين ويستنبط منه جواز وقف غير الخيل من المنقولات ومن غير المنقولات من باب الأولى. وقوله: "وروثه "يريد ثواب ذلك لا أن الأرواث بعينها توزن وفيه أن المرء يؤجر بنيته كما يؤجر العامل وأنه لا بأس بذكر الشيء المستقذر بلفظه للحاجة لذلك. وقال ابن أبي جمرة: يستفاد من هذا الحديث أن هذه الحسنات تقبل من صاحبها لتنصيص الشارع على أنها في ميزانه بخلاف غيرها فقد لا تقبل فلا تدخل الميزان. وروى ابن ماجه من حديث تميم الداري مرفوعا: من ارتبط فرساً في سبيل الله ثم عالج علفه بيده كان له بكل حبة حسنة.

ولا يمنعنك من البذل قلة المبذول فهو عند الله أضعاف أضعاف ما تبذل قال الله تعالى: {وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }. قال الألوسي رحمه الله: ولا ينفقون نفقة صغيرة ولو تمرة أو علاقة سوط ولا كبيرة كما أنفق عثمان رضي الله تعالى عنه في جيش العسرة.

واعلم أنه لا حسد في هذه الدنيا إلا في اثنتين كما صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار.

فطوبى لمن حباه الله مالاً وأنفقه في سبيل مرضاة ربه، وأي نفقة تعادل النفقة في سبيل الله لو كان أرباب المال يعقلون.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وقد تم الفراغ من مراجعة هذه التذكرة في أرض الهجرة والجهاد "أفغانستان" ونحن نرقب وشْكَ عذاب الله في أمة الصليب في الثاني عشر من شهر ذي الحجة لعام اثنين وثلاثين وأربعمائة وألف من هجرة الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم والله أعلى وأعلم.

كتبه/ الراجي عفو ربه

عبد الله بن خالد بن محمد بن علي العدم

ادعوا لإخوانكم المجاهدين

إخوانكم في

مركز الفجر للإعلام